جامعة الجزائر-02- أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

- قسم: التاريخ

- تخصص: تاريخ قديم

العهد الروماني في الجزائر (40-430 م): نقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية

مذكرة مقدمة لنيل درجة ماجستير في التاريخ القديم

إعداد الطالب | **إشراف الدكتورة**

أوحاشي طاهر | أيت أعمارة ويزة

أعضاء لجنة المناقشة

د.رحماني بلقاسم	**رئيسا**
د. أيت أعمارة ويزة	**مقرر**
د.مقدم بنت النبي	**عضوا**

السنة الجامعية: 2015-2016

جامعة الجزائر-02- أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

- قسم: التاريخ

- تخصص: تاريخ قديم

العهد الروماني في الجزائر (40-430 م): نقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية

مذكرة مقدمة لنيل درجة ماجستير في التاريخ القديم

إعداد الطالب | **إشراف الدكتورة**

أوحاشي طاهر | أيت أعمارة ويزة

أعضاء لجنة المناقشة

د.رحماني بلقاسم	**رئيسا**
د. أيت أعمارة ويزة	**مقرر**
د.مقدم بنت النبي	**عضوا**

السنة الجامعية: 2015-2016

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع في المقام الأول إلى العائلة و الأستاذة المشرفة أيت عمارة ويزة. وأهديه في المقام الثاني إلى القراء والمستضعفين في الأرض في قرى وحقول ومصانع الجزائر العميقة. وأهديه في المقام الأخير إلى كل العارفين بالله الذين يتذوقون هذه المقولة " *إن الحقيقة في ذاتها واحدة لا تتعدد، ولكنها تتشكل وتتلون مثل الماء الذي أخذ شكل الإناء الذي هو فيه و يتلون بلونه، هذا رغم أن الماء في حقيقته لا شكل له ولا لون* ".

أهدي هذا العمل أيضا إلى كل الأمهات مثل أمي التي حافظت بذاكرتها على ثقافتنا الشفوية لكي لا تندثر.

وأهديه أيضا إلى الحاج حشلاف محمد الذي يثابر للتوفيق بين العمل و الدراسة. لا يسعني في الأخير إلا أن أهديه للمركز الأسقفي للدراسات و الأبحاث.

قائمة المختصرات

- Ency. Ber. : Encyclopédie berbère, Paris.
- H.A.A.N : Histoire Ancienne de l’Afrique du Nord, Gsell, Paris.
- R. Af. : Revue Africaine .

يعتبر البحث حول " العهد الروماني في الجزائر (*40-430*): نقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية " من المواضيع الهامة المعالجة لتاريخ الجزائر القديم. ولإختيارنا لهذا الموضوع إرتباطا وثيقا بإهتمامنا البالغ بالتاريخ الوطني.

لم يتول الكتابة في تاريخ الجزائر خلال العهد الروماني مؤرخون محترفون. ما يجب أن نؤكده هو أن الإسطوغرافيا (Historiographie) ماهي إلا هيئة لإضفاء الشرعية على النظام الإستعماري الفرنسي من خلال مد جسور التواصل بينه و بين التواجد الروماني في المنطقة. فكتب كانيا روني (Cagnat René) عن الجيش الروماني بإفريقيا في حين أن مومست تيودور (Mommsen Théodor) أنجز قبل ذلك مدونة للنقوش اللاتنية في بلاد المغرب الكبير. ويمكن إعتبار بواسيير غاستون (Boissière Gaston) من المؤرخين الأوائل الذين أحاطوا التواجد الروماني بالدراسة.

إهتدينا منذ الوهلة الأولى إلى دراسة موضوع يهتم بالإسطوغرافيا وتاريخ العهد الروماني في الجزائر بالتحديد لعدة أسباب. لم تحض دراسة تاريخ الجزائر في العصور القديمة بالاهتمام الكافي في الأطوار التعليمية في المدرسة الجزائرية وهذا ما استخلصته دراسة للأستاذ الجامعي رمعون حسن الذي توصل إلى نتيجة مفادها أن الماضي الجزائري والمغاربي بشكل عام قد همش، في حين أخذ المشرق العربي حصة الأسد من تلك الدراسة في البرامج التعليمية عند بداية تسعينيات القرن الماضي[1].

وما أوصلنا إلى هذا الوضعية أساسا هو نفور طلبة دراسات ما بعد التدرج من الاهتمام بتاريخ بلاد المغرب القديم بسبب هيمنة اللغة الفرنسية على هذه الدراسات، وهذا العائق الأخير لم يمنعنا بل حفزنا على خوض تجربة البحث في هذا المجال مع الخائضين. يوجد هناك سبب بسيط و مقنع جعلنا نتناول هذا . يوجد هناك سبب بسيط ومقنع جعلنا نتناول هذا

[1] Remaoun, H., 1995, *Sur l'enseignement de l'Histoire en Algérie ou la crise identitaire à travers* (*et par*) *l'école*. *Approche à travers une étude comparée des manuels utilisés dans les classes Secondes Cycle des lycées algériens et marocains, Comment on enseigne l'histoire en Algérie*, CRASC, Oran, pp ; 47-67.

الموضوع يتمثل في طموحنا في كتابة تاريخ تاريخ الجزائر، خاصة وأن هذا الأخير كان مصدر إلهام لأشهر المفكرين العرب مثل عبد الله العروي، والغربيين مثل رائد مدرسة الحوليات فرناند بروديل، وهو ما نعتبره يعد سببا كافيا للخوض في هذا الموضوع الشيق و الشائك.

بحثنا كأي بحث لا يخل من الصعوبات و التي يأتي على رأسها إنعدام أبحاث ودراسات حول الموضوع بالجزائر و التي يضاف إليها قلة إن لم نقل إنعدام بيبلوغرافيا متخصصة حول الموضوع باللغة العربية مما إضطررنا إلى القيام بالترجمة.

ومن خلال ما ذكرنا يمكن عرض إشكالية بحثنا كما يلي: ماهي طبيعة الممارسة الإسطوغرافية في الجزائر خلال العهد الفرنسي؟ وما يهمنا هو تبيان العلاقة بين الممارسة الإسطوغرافية و الإيديولوجية و السياسية و الحد الفاصل ما بين الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية و الإستشراق الفرنسي؟ ما هو تأثير السياسة و الإيديولوجية و الجمعيات العالمة على الممارسة الإسطوغرافية خلال العهد الفرنسي بالجزائر؟ وما تأثير هذا الإرث في بلورة نظرية إنعتاق التاريخ من الإيديولوجيا والسياسة في الجزائر المستقلة؟ وكيف تعاملت الجامعة و المثقفين مع هذا الإرث؟

أنجزت العديد من الأعمال الأكاديمية حول موضوع الإسطوغرافيا من طرف الباحثين و نحن بدورنا سندل بدلونا و نخوض مع الخائضين. لقد صب إهتمامنا على دراسة ظروف نشأة الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية وتعداد المدارس التاريخية المهيمنة عليها و الأعمال الأكاديمية و المؤرخين الذين حملوا لوائها. وتعتبر الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية وليدة الحركة الإستعمارية خلال القرن العشرين، و قد حاولت السلطات الفرنسية بالجزائر الإستعانة بعلم التاريخ من أجل إضفاء الشرعية على التواجد الفرنسي بالبلاد. ولا شك في أن في أن القاسم المشترك بين الإسطوغرافيا الرومانية و الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية هو تناولهما تاريخ بلاد المغرب الكبير بالدراسة في زمن الحرب و الأزمة، حيث ظهرت الإسطوغرافيا الرومانية في القرن الثالث قبل الميلاد أثناء الحروب البونيقية، و الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية قد تبلورت في أوج المد الإستعماري في القرن التاسع

عشر. ولا ترتبط كتابة التاريخ بمناهج و طرق البحث فحسب بل بأهواء المؤرخ و تشبعه بروح عصره وشيوع موضة فكرية ونظرية علمية.

لقد قسمنا مذكرتنا إلى ثلاث فصول. ففي الفصل الأول الذي عنوناه " جذور إسطوغرافيا *العهد الروماني بالجزائر* " عرفنا الإسطوغرافيا في المقام الأول ثم بعد ذلك حددنا ملامح الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية التي بينا أنها بنت المدرسة الوضعية الفرنسية. وبعد ذلك سلطنا الأضواء على التتحقيب وكيف ظهر ثم تطرقنا إلى إشكالية تحقيب العصور القديمة في بلاد المغرب الكبير. وتطرقنا بعد ذلك إلى إشكالية تجاهل الإسطوغرافيا الإسلامية الكلاسيكية لتاريخ العصور العصولا القديمة ولم نتوان في الإشارة إلى المقاربة الجديدة في الإسطوغرافيا والتي تدع إلى الإستعانة بالمصادر الإسلامية في مجال الحفريات.

لقد تناولنا في الفصل الثاني الذي عنوناه " الممارسة الإسطوغرافية بالجزائر خلال العهد الفرنسي (1837-1930)، دراسة الممارسة الإسطوغرافية بالجزائر من خلال تسليط الأضواء على دور المؤسسات: الجمعيات العالمة و المجلة الإفريقية و جامعة الجزائر. لقد إرتبط إسم مؤرخين مرموقين بتلك الإسطوغرايفا ولهذا تناولنا بالدراسة أربعة أقطاب من بينهم: مرسيي إرنست و غوتيي إميل فيليكس و جوليان شارل أندري (Julien Charles André) و فيفري بول ألبير (Février Paul-Albert)،الذين يمثلون أربعة نماذج للكتابة التاريخية. وفي هذه الظروف برزت إسطوغرافيا وطنية جزائرية والتي كان يمثل كل من أعمر بوليفة ومبارك الميلي نماذج أصيلة لها.

خصصنا الفصل الثالث الذي عنوناه " تطبيق مقاربة التاريخ الجديد على تاريخ الجزائر القديم " إلى الحديث عن مصير الإرث المعرفي للإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية في جزائر بعد الإستقلال. ولقد سلطنا الأضواء على مقاربة دعاة " التريخ الجديد " لبتي ناد روادها إلى ضرورة تحرير الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية من السياسة و الإيديولوجية. لم نتوان في دراسة نماذج من التاريخ الجديد أمثال العروي عبد الله و بروديل فرناند (Fernand Braudel) و ساحلي محمد شريف.

لقد حضيت الإسطوغرافيا بإهتمام المجلات المتخصصة بالجزائر على غرار مجلتي إنسانيات ونقد في حين أن الممارسة الإسطوغرافية بالجزائر حظيت منذ الإستقلال بتدعيم من الدولة الجزائرية التي أسست مراكز جامعية لتأطير تلك الممالرسة ونخص بالذكر: المركز الوطني للدراسات التاريخية و المركز الوطني لدراسات ما قبل التاريخ و الأنتروبولوجيا والتاريخ. لم يتوقف الإهتمام بالإسطوغرافيا عند هذا الحد بل تعداه إلى تأسيس مجلات تنشر أعمال المؤرخين ونخص بالذكر تاريخ وحضارة المغرب ومجلة التاريخ.

لم ينحصر الإنتاج المعرفي على إسهامات المؤرخين المحترفين بل تعداه إلى إثرائها بأعمال أكاديمية لمناضلين في الحركة الوطنية الجزائرية على غرار مولود قايد ومحفوظ قداش و محمد شريف ساحلي. إستوقفتنا إسم هذا الأخير طويلا لأنه جاء بمقاربة جديدة في كتابه " إنعتاق التاريخ " أين أطلق دعوة لإنعتاق التاريخ من السياسة و الإيديولوجية.

سار المؤرخ المغربي عبد الله العروي على نهجه فتبنى تلك النظرية وتوسع فيها. لقد أخضع عبد الله العروي التحقيب وتسمية البلاد والإسطوغرافيا لميزان العقل والنقد. كما دحض بعض المقولات التي روجت لها الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية مثل مقولة " *من إستعمار إلى أخر* ". ما يهمنا في إسهام عبد الله العروي هو سعيه للإجابة عن السؤال الكبير الذي طرحته الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية: ماهو عمق التواجد الروماني في بلاد المغرب الكبير؟ وماهو سبب إخفاق روما في بلاد المغرب الكبير؟

بعد عرض إشكالية بحثنا علينا أن نضع موضوع الإسطوغرافيا في إطاره الزماني و المكاني. في صدد الحديث عن الإطار الزمني علينا أن نشير إلى أن خلال قرن من الزمن 1837 و1930 تشكلت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية وتحددت معالمها. أوكلت مهمة تأطير الممارسة الإسطوغرافية في البداية إلى الجمعيات العالمة (Les sociétés savantes) وبعض المجلات كالمجلة الإفريقية قبل أن تتكفل الجامعة بهذا الدور خاصة بعد بروز مؤرخين محترفين أمثال مرسيي إرنست (Ernest Mercier) و غوتيي إميل فليكس (Émile Félix Gautier) و قزال ستيفان (Stéphane Gsell) و ألبيرتيني أوجين

(Eugène Albertini). وكان رد فعل هيمنة تلك الإسطوغرافيا هو نشأة إسطوغرافيا وطنية جزائرية والتي يمثل كل من أعمر بوليفة ومبارك الميلي وأحمد توفيق المدني أهم روادها. إنها بدايات الإسطوغرافيا الوطنية الجزائرية.

من البديهي أن يكون القطر الجزائري هو بالإطار المكاني لموضوع بحثنا. رغم تعاقب عدة غزاة و محتلين على الجزائر فهذا لم يكن عائقا أمام تشكل وعي عند سكان البلاد بأنهم ينتمون إلى قطر جغرافي واحد له حدود. في هذا الصدد كان شعورهم بالانتماء إلى " *دار الإسلام* " قويا. من البديهي أن عند التطرق إلى الوطن الجزائري فإن مسألة الحدود فيها نظر. إذا كانت الحدود الشمالية للجزائر ثابتة منذ العصور الوسطى فإن الحدود الجنوبية كانت دائما غير واضحة المعالم. كان إمتداد و توغل الحدود نحو الجنوب نتيجة طبيعية لتوسع الاحتلال الفرنسي في الصحراء، التي تعتبر العمق الجغرافي لما يسمى بإفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) [2]. خلال هذا التوسع ألحقت فرنسا عدة مناطق بالجزائر على غرار توات، قورارة و تيدكلت في الغرب، و جانيت في الجنوب الشرقي[3].

قسمت الجزائر إلى ثلاث عمالات، الجزائر، وهران و قسنطينة، و التي تضاف إليها الأقاليم العسكرية في الجنوب. إداريا، كان الحاكم العام للجزائر هو من يسير المستعمرة في حين يعين والي على رأس كل مقاطعة. إجتهد المشرع الفرنسي في إستنساخ النظام البلدي الفرنسي مع إجراء بعض التعديلات عليه. ساد في كامل القطر الجزائري نوعين من البلديات: البلديات المختلطة، وضع على رأسها محافظ إداري، يخضع لإدارته السواد الأعظم من الجزائريين، و البلديات الكاملة الصلاحيات، يسيرها رئيس بلدية منتخب، وفيها يتواجد بكثرة العنصر الأوربي. وتعتبر مدينة الجزائر بمثابة العاصمة السياسية والإدارية والإقتصادية لهذا القطر خلال العهد الفرنسي.

[2] Blais, H., 2012, « La longue histoire de la délimitation des frontières de l'Algérie », *Histoire de l'Algérie à la période coloniale*, Paris, p. 113.

[3] Harbi, M., 2009, 1954, *La guerre commence en Algérie*, Alger, p. 100.

علينا في الأخير أن نشير إلى أهم الأعمال التي إعتمدنا عليها في مذكرتنا. أولا للإحاطة بتراجم أهم مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية إعتمدنا على قاموس أنجز تحت إشراف بويون فرانسوا (François Pouillon) تحت عنوان " *قاموس مستشرقي اللغة الفرنسية* " الذي يحتوي على سير ألف مستشرق فرنسي من بينهم قزال وغوتيي ومرسيي وغيرهم.

لتحديد مفهوم الإسطوغرافيا إعتمدنا على مراجع متخصصة على غرار جورج لوففر صاحب كتاب " *ميلاد الإسطوغرافيا الحديثة* " الذي نشر عام 1970. لقد حاول في كتاب متخصص أن يتبحر في الموضوع بدأ من أصول الإسطوغرافيا في العصور القديمة إلى غاية عصره. إستخلص أن البون شاسع بين بدايات هذا العلم الذي كان يبحث عن الأسباب وبين عصره أين كان المؤرخين يطمحون إلى كتابة تاريخ شامل. وفي صدد الحديث عن الإسطوغرافيا ليس في وسعنا إلا الإحالة إلى كتاب المؤرخ فيرميران بيار (Pierre Vermeren) " *مأساة إسطوغرافيا مغرب ما بعد الإستقلال* " الذي تطرق إلى مسيرة أجيال من المؤرخين في بلاد المغرب الكبير خاصة في فترة مابعد الإستقلال. وميزة الكتاب أنه أحال إلى المدارس التاريخية التي ينتمون إليها. ماذا يمكن القول عن البيبلوغرافيا حول دور المؤسسات في الممارسة الإسطوغرافية ؟ لقد إستفدنا كثيرا من مذكرة صديقي لعمارية حول المجلة الإفريقية إلى جانب مقالات بول ألبير فيفري و جان بيار لابورت (Jean-Pierre Laporte) حول الجمعيات العاملة.

إن تحريرنا لمذكرة في موضوع الإسطوغرافيا لا يعني بأي حال من الأحوال أننا أعطينا الموضوع حقه بل نحن على يقين على أننا في أول الطريق، وما يهمنا هو أن موضوع الإسطوغرافيا أثار اهتمام المجلات المتخصصة في الجزائر وأخص بالذكر مجلتي **إنسانيات** و **نقد**.

ختام الكلام أن موضوعنا يدرس تاريخ التاريخ وتاريخ الأفكار والنظريات المتعلقة بالتاريخ.

الفصل الأول

جذور إسطوغرافيا العهد الروماني بالجزائر

الحديث عن ثراء مفهوم الإسطوغرافيا (L'historiographie) هو حديث ذو شجون، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفصله عن التاريخ، وبالتالي عن الزمن. كان هذا المفهوم دائم الإرتباط بتطور المناهج والمقاربات والمدارس التاريخية في مجمل الحضارات والثقافات. ومن البديهيات المسلم بها أن بلاد المغرب الكبير عموما والجزائر خصوصا كانتا مصدر إلهام لمؤلفي المصادر الأدبية الكلاسيكية، الإغريقية والرومانية: الإلياذة ، هوميروس (Homère)، والتواريخ ، هيرودوت (Hérodote)، وحرب يوغرطة ، سالوستيوس (Salluste) وحرب إفريقية ، و قيصر (Le psuedo César). يمكن القول بأن لكل عصر إسطوغرافيته الخاصة، حيث لم يكف المؤرخون عن التأليف حول تاريخ بلاد المغرب بدء من القديس أوغسطين مرورا بأشهر المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى مثل إبن خلدون، الذي كان تقريبا معاصرا لمؤرخ ذائع الصيت محمد إبن حسن الوزان، وصولا إلى مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية: قزال، وبرتيي (Berthier) و غوتيي وغيرهم. إن توفر هذه المجموعات النصية أو المؤلفات (corpus) ، قد جعل التطرق إلى موضوع الإسطوغرافيا ممكنا و هذا نظرا إلى سهولة الوصول إلى هذا الإنتاج المعرفي.

في معرض حديثنا عن الإسطوغرافيا بالجزائر علينا الإقرار مع فاتان جان كلود (Jean-Claude Vatin) بأن " *تاريخ الجزائر كتبه الفرنسيون* "[1]. نحن بصدد الحديث عن ما إصطلح على تسميته بالإسطوغرافيا، والقاسم المشترك بين الإسطوغرافيا الغربية، دراسة لوففر جورج[2] ، والإسطوغرافيا الشرقية، دراسة العروي عبد الله[3]، هو أن التاريخ لا يدرسه أستاذ متخصص. إن ما أثار فضولنا هو رسوخ الإعتقاد بأن الإسطوغرافيا الإسلامية الكلاسيكية أهملت، بل تجاهلت، حقبة العصور القديمة المرادفة لديها لمصطلح " *الجاهلية* "*.

[1] Vatin, J-Cl., 2010, *L'Algérie. Politique, histoire et société*, Alger, p. 17.
[2] Lefebvre, G., 1971, *La naissance de l'historiographie moderne*, Paris, p. 23.
[3] Laroui, A., 1999, *Islam et Histoire. Essai d'épistémologie*, Paris, p. 11.
* سوف نشرح لاحقا أسباب هذا التجاهل في إحدى فقرات هذا الفصل.

الإشكالية المطروحة، في هذا البحث، هي أن نشأة الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية جاء في العصر الذهبي للإستشراق الفرنسي، وبالتالي لتجنب أي إلتباس علينا أن نحدد الموضوعات التي يدرسها كل من الاستشراق والاسطوغرافيا. لا يسعنا هنا إلا أن نلح على فكرة جوهرية طرحها المفكر المغربي العروي عبد الله والتي تبنيناها بدورنا ومفادها أن الإستشراق هو قسم من الإسطوغرافيا[4]. لكن ما يهمنا هنا في المقام الأول هو تحديد مفهوم الإسطوغرافيا.

ا- مفهوم الإسطوغرافيا:

مع الترجمة وإمتزاج الثقافات يتبين لنا أن مفهوم الإسطوغرافيا له ما يقابله في الثقافة العربية وهو مفهوم التاريخيات، وهي الترجمة المفضلة للمفكر المغربي العروي عبد الله[5]، ويعبر بواسطتها عن أحد مباحث علم التاريخ.

ما هي الجذور التاريخية لهذا العلم؟ يعرض المؤرخ الفرنسي كاربونيل شارل أوليفيي ، وهو أحد أكبر المتخصصين في ميدان الإسطوغرافيا، فرضية جريئة لتفسير الظهور المتأخر لهذا العلم و مفادها أن التقديس المفرط الذي يكنه المؤرخون في الغرب وفي الصين*[6] منذ ألفي سنة لسابقيهم منعهم من إخضاع إنتاجهم الفكري للنقد والتمحيص[7]. يركز

---

[4] العروي، ع.، 2005، *مفهوم التاريخ*، بيروت، ص. 205.

[5] العروي، ع.،2005، ص. 97.

* ما يميز الإسطوغرافيا الصينية عن غيرها هو إستمرارية و تراكم الإنتاج المعرفي طيلة عشرين قرنا. تعتبر التقاليد الصينية كونفشيوس (Confucius) ، الذي عاش ما بين 551 و 479 ق. م ، " *أب التاريخ* " الصيني. ينسب إلى كونفشيوس كتابة الكتب الخمسة الكلاسيكية الصينية و كثيرا ما تتحدث في مضمونها عن عصر ذهبي فات أوانه. إذا كان التاريخ الصيني القديم يعتبر مزيج من الواقع و الأسطورة، فإن تلك الإسطوغرافيا طرأ عليها تجديد ما بين القرن الخامس و الثالث ق. م حيث ظهر أسلوب الحوليات.

يعتبر كل من كتابي " *حولية الربيع و الخريف* " و " *كتاب الوثائق* " من أقدم الكتب التي وصلت إلينا. شكك النقاد في كون كونفشيوس هو الكاتب الفعلي لهذه المصادر[6]. أنشأت عائلة هان (Han) إدارة خاصة أوكلت إليها مهمة رسمية تتمثل في كتابة التاريخ و تتكون من : أمين الأرشيف، مؤرخ رسمي " *مكلف بكتابة التاريخ الرسمي و تاريخ العائلة الحاكمة* ". أوكلت للمؤرخ عدة مهام في الصين : عالم بالأحداث (Chronologiste)، منجم و كاهن، واضع الرزنامة، إداري و مستشار. لقد إحتفظ التاريخ بإسم كل من سو ما تان (Sseu-Ma T’an) و نجله سو ما تسيان (Sseu-Ma Ts’ien) على أنهما

كاربونيل شارل أوليفيي (Charles-Olivier Carbonell) على فكرة جوهرية تتمثل في ظهور هذا العلم في ألمانيا في عصر الأنوار أين ساعد على نشأته بروز طبقة من المؤرخين المتخصصين، أساتذة وأرشيفيون، متحكمون في المنهجية النقدية[8].

نحن على يقين أننا في دراستنا يجب أن نأخذ بعين الإعتبار سوء التفاهم الذي حصل بين الغربيين و المسلمين نتيجة الإستعمار. لا يوجد، تاريخيا، نموذج واحد للإسطوغرافيا لأن لكل دولة وثقافة وحضارة مناهج ومدارس ومقاربات خاصة بها في الدراسات التاريخية. على سبيل المثال لو أخذنا الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية لرأينا هذا الاختلاف ماثلا للعيان ومن هذا المنطلق يمكن أن نفسر الجدل الذي أثاره موضوع الإستشراق. ولتوضيح ذلك يمكن إعتبار الحملة الفرنسية على مصرفي 1798، وإحتلال الجزائر في 1830، بمثابة محطتين هامتين تسمحان لنا بالوقوف على البون الشاسع بين الإسطوغرافيا في الثقافتين.

مهما يكن من أمر فإن ما يسمى عند المسلمين بدار الإسلام كانت أرض خصبة لظهور علم جديد وهو الإستشراق في حين أن الإسلام في تلك المنطقة كان الوريث الطبيعي لحضارات عريقة: بلاد المغرب الكبير، بلاد ما بين النهرين، مصر وبلاد فارس. لقد كان لتعرض دار الإسلام إلى صدمة الإستعمار نتيجتين وخيمتين. تتمثل الأولى في إهتزاز ثقة المسلمين بأنفسهم وهنا علينا أن نذكر أن مصدر تلك الثقة هي الإنتصارات الكبيرة التي حققها الإسلام في حقبه التاريخية الأولى، أما النتيجة الثانية فهي نشوء علم جديد يهتم بتاريخ الإسلام بأقلام غربية، إنه الإستشراق. كان رد الفعل الطبيعي لهيمنة الدراسات الإستشراقية سلبيا من طرف العرب والمسلمين إذ رفضوا مناهج و مقاربات الإسطوغرافيا الغربية، ويلخص عبد الله العروي هذا التذمر بقوله : " *الإشكال هو أن ما*

أشهر مؤرخي الصين القديمة بحيث إعتبر كتابهما " *مرجعية للإسطوغرافيا خلال عشرين قرنا* ". إهتمت الإسطوغرافيا الصينية بعدة مواضيع : التاريخ الرسمي، علم الأنساب، أسماء الأعيان... وغيره.

[7] Carbonell, Ch-O, 1982, « Pour une histoire de l'historiographie », *His. Historiographie* 1, Milan, p. 8.

[8] Carbonell, Ch-O, 1986, p.8.

يفعله دارس روما يبدوا طبيعيا للجميع و لا أحد يعارض المبدأ. أما ما يفعله دارس الإسلام من غير المسلمين، وحتى من المسلمين أحيانا، فإنه يبدو بدعة في نظر جمهور المسلمين (...) الإشكال، كما نراه، منهجي في الجوهر. على أي أساس منطقي عام، ظاهر واضح، يمكن للمرء أن يعارض تطبيق المناهج المعاصرة في دراسة التاريخ الإسلامي"[9].

ما يهمنا هنا هو دراسة نظرة حضارة إلى حضارة أخرى تكون إما قريبة منها جغرافيا أو بعيدة عنها زمنيا. تلك النظرة هي رهينة عوامل مادية أو إيديولوجية. إن ظهور الإستشراق في العالم الإسلامي جاء في الفترة الزمنية نفسها التي ظهرت فيها إسطوغرافيا العصور القديمة.

سوف نتطرق إلى الإسطوغرافيا بمعنى التاريخ كما كتبه المؤرخون لا التاريخ كما عاشته الإنسانية، وحين نتساءل عن معنى الإسطوغرافيا يتبادر إلى ذهننا الإشكال الذي طرحه المفكر الفرنسي جورج لوففر، الذي يعتبر مرجعا أساسيا في هذا الموضوع. لقد عرض في كتاب قيم تصور المدرسة التاريخية الفرنسية لموضوع الإسطوغرافيا حيث أماط اللثام عن ماهيتها، حيث يحدد هدفها بقوله: " *تعريف القراء بكل أولائك الذين تساءلوا عن الطبيعة العميقة للتاريخ* "[10]. ما يتبادر إلى ذهننا في أول وهلة هو ماذا يقصد بالطبيعة العميقة للتاريخ ؟. من خلال البيبلوغرافيا المتخصصة التي جمعناها عن الموضوع سوف نعرض على القارئ أراء أكاديميين حول مفهوم الإسطوغرافيا.

رغم دخول جورج لوففر مباشرة في صلب الموضوع إلا أننا نفضل التعريف الذي قدمه لنا عبد الله العروي، في محاولته لضبط مفهوم الاسطوغرافيا، من خلال قوله: " *نتعرض في هذا القسم لما أسميناه التاريخيات، مقابل كلمة إسطوغرافيا وهذه تعني، بالمعنى الضيق، مجموع النتائج التي توصل إليها الدارسون للكتابات التقليدية مثل الحوليات والمذكرات و الأخبار الجزئية والطبقات و السير ... إلخ (لانغلوا و سينيوبوس)، و في*

[9] العروي، ع.، 2005، *مفهوم التاريخ*، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء-بيروت، ص. 206.
[10] Lefebvre, G., 1971, p. 15.

المعنى الواسع، دراسة طرق البحث و الإستقصاء في شؤون الماضي"[11]. ومن خلال التعريف الذي يقدمه عبد الله العروي نستشف مفهومين للإسطوغرافيا. إذا كان المفهوم الأول يعني نتائج بحوث المؤرخين فإن المفهوم الثاني مرتبط بطرق البحث وبالتالي المنهجية. إن تكرار الإحالة إلى عبد الله العروي لديه ما يبرره؛ حيث يعتبر مؤرخ غزير الإنتاج ومتحكم في مناهج البحث المعاصرة إلى جانب إطلاعه الواسع على الثقافة الإسلامية التقليدية.

ما يعيبه كاربونيل شارل أوليفيي على كل أولائك* الذين تناولوا مبحث الإسطوغرافيا هو أن طرحهم إقتصر على عرض الموضوع من وجهة نظر أدبية، فنية- جمالية أو فلسفية[12]، أما هو فقد عرض لنا مفهومه الخاص في مقدمة مختصرة أين كتب قائلا " *الإسطوغرافيا ما هي إلا تاريخ خطاب – مكتوب و يقال أنه يعبر عن الحقيقة- صادر عن أناس الذين من خلال خطابهم يتحدثون عن الماضي أو بالأحرى عن ماضيهم. و على العموم الإسطوغرافيا هي شهادة موثوق بها و هي في متناول الإنسان و هي من بقايا الثقافات الضائعة* "[13]. وهنا نفهم أن الإسطوغرافيا هي أولا خطاب مكتوب وثانيا شهادة وأثر عن ثقافات الماضي. إن النقطة الهامة التي ألح عليها كاربونيل شارل أوليفيي هي أن المؤرخين يهتمون أولا بوقائع الماضي وماضي الممارسة الإسطوغرافية.

لقد تبنى كل من غي بوردي (Guy Bourdé) و هيرفي مارتن (Hervé Martin) المقاربة نفسها في كتابهما الموسوم " *المدارس التاريخية* " ، والذي يعتبر دون أي مجاملة كتابا كلاسيكيا في الموضوع. وحسب وجهة نظرهما فالإسطوغرافيا تعني " *إستقصاء مختلف الخطابات حول المنهجية التاريخية و مختلف صيغ الكتابة التاريخية من العصور*

---

[11] العروي،ع.، 2005، ص,97.

* نقصد بكلامنا كل من هنري إيرني مارو و بيار شانو.

[12] Carbonell, Ch-O., 1986, *L'Historiographie*, Que sais-je ?, Paris, p. 3.

[13] Carbonell, Ch-O., 1986, p.4.

الوسطى إلى وقتنا الحالي "[14]. " خطاب " و " منهجية " هما إذن كما نرى مفهومين كثيرا التداول عند أهل الاختصاص.

في دراسة حديثة، 2011، يعرض نيكولا أوفنستاد (Nicolas Offensttadt) مختلف المفاهيم التي أعطيت للإسطوغرافيا في حين أنه جدد هذا المفهوم على ضوء التحولات الإقتصادية والفكرية والسياسية التي طرأت على المجتمع إنطلاقا من خمسينيات القرن الماضي: إزدياد عدد طلبة التاريخ في الجامعات والمدارس العليا، إلحاحه على ضرورة وضع كتابات المؤرخين في الإطار التاريخي الذي زاولوا فيه نشاطهم، تأثرهم بموضة العصر، كما أبرز تأثرهم بالصراعات الأكاديمية والرهانات السياسية[15]. نظر نيكولا أوفنستاد إلى الإسطوغرافيا من زاوية خاصة به، و يتلخص مفهومه لها بقوله "*تهتم الإسطوغرافيا بدراسة المؤرخين و تصورهم للتاريخ إضافة إلى إنتاجهم المعرفي. فممارسات التاريخ بمعنى " تاريخ التاريخ " و " المنهجية أو الإبيستيمولوجيا " يمكن إدراجهما ضمن مفهوم الإسطوغرافيا على حد تعبير فرانسوا هارتوغ (François Hartoug). لاحقا، إستخدم هذا المفهوم ليعبر عن مجمل أعمال المؤرخين خلال فترة زمنية محددة أو المواضيع التي تناولوها بالدراسة، الإسطوغرافيا الماركسية مثلا* "[16].

قصارى القول، إن مفهوم الإسطوغرافيا لم يثبت على معنى واحد بل تغير عبر التاريخ وإذا أخذنا مثلا العينة البيبلوغرافية التي إعتمدنا عليها لأكدنا بأن هذا المفهوم تغير خلال النصف قرن الماضية.

بعدما فرغنا من تعريف الإسطوغرافيا علينا أن نربط هذا التعريف بموضوع بحثنا ألا وهو إسطوغرافيا العهد الروماني بالجزائر. ما يهمنا في هذا المقام هو عرض حصيلة لتلك الإسطوغرافيا أو بالأحرى نتائج أبحاث المؤرخين على حد تعبير عبد الله العروي.

---

[14] Bourdé, G., Martin, H., 1983, *Les écoles historiques*, Paris, p. 8.
[15] Offenstadt, N., 2011, *L'Historiographie*, Que sais-je ?, Paris, p. 4.
[16] Offenstadt, N., 2011, p. 4.

II- ملامح إسطوغرافيا العهد الروماني في الجزائر:

هناك عدة محطات تمكننا من تتبع الخطوات الأولى للإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية الفرنسية ونذكر من بينها تأسيس لجنة الاستكشاف العلمي عام 1837 وإنشاء الجمعيات العالمة في الجزائر خلال الإمبراطورية الثانية (1852-1870)، وفي هذه الفترة كان للحفريات نصيب الأسد من الأبحاث وهذا ما يفسر تأخر ظهور أول المؤرخين المعاصرين أمثال إرنست مرسيي وستيفان قزال. ما يهمنا هنا هو التطرق إلى الإنتاج المعرفي لما يسمى ب " *المدرسة التاريخية الجزائرية* " من خلال المحاولات الأولى لعرض حصيلة تلك الإسطوغرافيا وذلك في أعمال أوجين ألبرتيني وستيفان قزال. لا يسعنا بعد ذلك إلا وضع هذه الإسطوغرافيا في إطارها التاريخي عبر تسليط الأضواء على جسور التواصل بينها و بين الإسطوغرافيا الفرنسية في القرن التاسع عشر إذ لا يمكن أن نفهم الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية دون تقديم نبذة عن إسطوغرافيا القرن التاسع عشرة في فرنسا التي ولدت من رحمها.

1- أوجين ألبيرتيني وإفريقيا الرومانية

لأخذ فكرة أولية عن بيبلوغرافية العهد الروماني بالجزائر المتداولة في الأوساط العلمية والأكاديمية في النصف الأول من القرن العشرين على وجه العموم، وفي فترة ما بين الحربين (1918-1939) على وجه الخصوص لم يكن لدينا خيارات أخرى سوى الاعتماد على كتاب أوجين ألبيرتيني المعنون " *إفريقيا الرومانية* "[17]، لنقدم فكرة ولمحة عن الإنتاج الأولي لإسطوغرافيا العهد الروماني بالجزائر.

السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا بإلحاح هو من يكون أوجين ألبرتيني يا ترى؟ لقد خصص له قاموس المستشرقين الفرنسيين حيزا خاصا، إذ أدرج في خانة عالم النقوش وعالم الحفريات ومؤرخ للحقبة الرومانية[18]، ويعود الفضل إلى أبيه في إهتمامه بالثقافة الكلاسيكية، الآداب الإغريقية واللاتينية. إنظم أوجين ألبيرتيني، على غرار ستيفان قزال، إلى إحدى أشهر المدارس المختصة في تاريخ العصور القديمة ألا وهي مدرسة روما (École de Rome) وهذا ما بين 1903 و 1906، وبعدما عرج على إسبانيا إستقر المقام

[17] Albertini, E., 1955, *L'Afrique Romaine*, Alger, 126p.

[18] Gutron, C., 2008, « Albertini Eugène », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 9.

بأوجين ألبيرتيني بالجزائر فكان خير خليفة لقزال وكاركوبينو (Carcopino). يعد ألبيرتيني من أشهر الأقلام المتخصصة التي لها إسهامات في المجلة الإفريقية.

بعد هذا التعريف البسيط بأوجين ألبرتيني، سنحاول أن نضع كتابه السالف الذكر في سياقه التاريخي. كان هذا الكتاب الوجيز موجه في الأصل إلى ضباط مصلحة شؤون الأهالي وقد نشر لأول مرة سنة 1923 ثم أعيد نشره في سنوات 1927، 1937، 1950 وأخيرا في سنة 1955، وهو على الأرجح أول محاولة جادة لتقديم عرض ومسح أولي لتلك الإسطوغرافيا بعد قرن من بداية الاحتلال، وفي هذا الصدد، يعترف ضمنيا أوجين ألبيرتيني بأنه لا يمكن تجاهل حقيقة علمية بسيطة تتمثل في أن تلك الإسطوغرافيا لم تأت من العدم بل شربت من مناهل المصادر الأدبية الكلاسيكية، مؤرخي وجغرافيي الإغريق واللاتين، ومعطيات الحفريات.

رغم أن أوجين ألبيرتيني كان معاصرا لستيفان قزال إلا أن هذا الأخير كان له السبق في مضمار الدراسات التاريخية فلم يكن بوسع أوجين ألبيرتيني إلا يحيل إلى إسهامه في بناء صرح إسطوغرافيا العصور القديمة في بلاد المغرب الكبير. ومن بين كل من أدلى بدلوه في مضمار إسطوغرافيا العصور القديمة عموما وإسطوغرافيا العهد الروماني خصوصا، حظي ستيفان قزال (1864-1932) بمنزلة ومقام رفيعين. لا جدال ولا مراء في أن ستيفان قزال كان السباق والرائد في هذه الدراسات بحيث أثار إعجاب وتقدير كل من صادفه مما جعل أوجين ألبيرتيني يعلق على مساره المهني قائلا " *موهبته النادرة في التاريخ* "[19] أي في خدمة تاريخ الجزائر.

لخص أوجين ألبيرتيني الحياة الفكرية الثرية لستيفان قزال في أسطر، وقد كتب في هذا الصدد يقول: " *لقد شرع في كتابة تاريخ شمال إفريقيا القديم والذي أنجز منه ثمانية أجزاء (دار النشر، هاشيت؛ الجزء الأول، 1913؛ الجزء الثاني والثالث، 1918؛ الجزء الرابع، 1920 ؛ الجزء الخامس والسادس، 1927؛ الجزء السابع والثامن، 1928). هذه الأجزاء الثمانية تناولت تاريخ شمال إفريقيا حتى عام 40 بعد الميلاد أي إلى غاية إلحاق*

[19] Albertini, E., 1955, p. 9.

موريتانيا بروما؛ وهذا الحدث هو إيذانا بخضوع شمال إفريقيا للسيطرة الرومانية. أما تاريخ الأربعة قرون التي تمثل العهد الروماني في شمال إفريقيا فسوف تشكل مضمون الأجزاء اللاحقة "[20]، وتعبر هذه الجملة الأخيرة عن حسرة الكاتب التي نتقاسمها معه لأن الموت خطف هذه الشخصية الفذة قبل إتمام مشروعه.

بعدما تفرغ أوجين ألبيرتيني من وضع إكليل الغار على رأس ستيفان قزال، أماط اللثام عن المنهجية التي اتبعها لتحليل ووصف بيبلوغرافيته. لقد أحالنا إلى كل الأعمال التي تطرقت إلى " *التاريخ العام لشمال إفريقيا* "[21]. ضمن كل البيبلوغرافيا التي وضعها، حظي مؤرخين بمكانة خاصة فيها، وهما إرنست مرسيي وشارل أندري جوليان. يعتبر إرنست مرسيي بحق مرجعية علمية وأكاديمية قبل أفول نجمه مع بزوغ نجم ستيفان قزال، وكان إسهامه في إسطوغرافيا العصور القديمة وحتى اللاحقة كبيرا حيث كتب كتاب هام في ثلاث أجزاء تحت عنوان: تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور إلى الغزو الفرنسي [22]. لقد صدر الكتاب في ثلاث أجزاء بدار النشر لورو (Leroux)، ومن بين الثلاثة أجزاء، يثير فضولنا الجزء الأول الذي يهم المختصين. كان هذا الكتاب مرجعية للمختصين قبل أن يزيحه من مكانته كتاب شارل أندري جوليان" *تاريخ شمال إفريقيا من البدء إلى الفتح الإسلامي* "[23]، الذي نشر عام 1931، وما يهمنا هي العشرة فقرات الأولى التي سلطت الأضواء على حقبة العصور القديمة.

لم تحجب تلك الأعمال الذائعة الصيت نظر أوجين ألبيرتيني عن التعليق على كتب وأعمال أخرى أقل شأنا، ولقد أدرج في هذه الخانة كل الأعمال التي تطرقت إلى التاريخ العام لروما والتي تناولت في طياتها أجزاء تناولت بالدراسة إفريقيا الرومانية. عموما،

---

[20] Albertini, E., 1955, p. 10.
[21] Albertini, E., 1955, p. 10.
[22] Mercier, E., 1888-1891, *Histoire de l'Afrique Septentrionale* (*Berbérie*) *depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, 3* vol, Paris.
[23] Julien, Ch-A., 1978, *Histoire de l'Afrique du Nord. Des origines à la conquête arabe*, Alger.

تأسف الكاتب على المكانة المحدودة لتلك المنطقة في هذه الكتابات. كما توقف عند كتاب المؤرخ الألماني ثيودور مومسن الذي نشر كتاب تحت عنوان " التاريخ الروماني"[24].

إن ما يعيبه مومسن على إسطوغرافيا العهد الروماني بالجزائر في نهاية القرن التاسع عشر هو غياب " *تاريخ خاص و مطنب لإفريقيا الرومانية* "[25]. إن قلة المراجع المتخصصة في تاريخ إفريقيا الرومانية لم يمنعه من الإشارة إلى مراجع أخرى أقل ما يقال عنها أنها تحيلنا إلى بيبلوغرافيا في الموضوع و التي علق عليها قائلا " *تهتم بوصف الإدارة والحضارة الرومانية. هي كتب إشهار وتعميم، موجهة إلى جمهور مثقف، لكنه غير متخصص. تحافظ في الغالب على طابع مختصر وعام، ورغم ذلك فهي مهمة للتلقين والتدريب* "[26]. ما يهمنا في هذا المقام هو تلك البيبلوغرافيا الخاصة بالعهد الروماني التي إعتمد عليها أوجين ألبيرتيني في كتابه " إفريقيا الرومانية " وفي هذا الصدد نحيل القارىء إلى أعمال هؤولاء المؤرخين : غاستون بواسيير[27] و قزال ستيفان[28] ومقالات مؤرخين مثل أوجين ألبيرتيني و غوستاف مرسيي و غ. إيفر[29] و جيروم كاركوبينو[30].

لم يقتصر الإنتاج المعرفي على هذه المواضيع بل حظي الجانب العسكري باهتمام المؤرخين ونخص بالذكر هنا كتاب كانيا روني الذي نشر تحت عنوان الجيش الروماني الإفريقي و الاحتلال العسكري في عهد الأباطرة "[31]. حظي هذا الكتاب الذي نشر سنة 1912 بإشادة أوجين ألبيرتيني الذي علق عليه قائلا: " *إنه مصنف غني بالمعلومات*

---

[24] Mommsen, Th., 1863, *Histoire romaine*, 2 tomes, Paris.
[25] Albertini, E., 1955, p.11.
[26] Albertini, E., 1955, p. 11.
[27] Boissière, G., 1878, *Esquisse d'une histoire de la conquête et de l'administration romaine dans le Nord de l'Afrique et particulièrement dans la province de la Numidie*, Paris, 1895, *L'Afrique romaine*, Paris.
[28] Gsell, S., 1903, *L'Algérie dans l'Antiquité*, 2ème édition, Alger.
[29] Albertini, E., Marçais, G., Yver, G., 1937, *L'Afrique du Nord française dans l'histoire*, Alger.

[30] Carcopino, J., 1943, *Le Maroc antique*, 9 édition, Paris, 342 p.
[31] Cagnat, R., 1912, *L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs*, Paris.

المستخلصة من النقوش وبقايا الحفريات لاسيما حول التنظيم العسكري وبطريقة غير مباشرة حول التاريخ السياسي، الاقتصادي والروحي للبلاد "[32]. دراسة كونيا الخاصة بالجانب العسكري أثرتها دراسات أخرى مثل دراسة بيكار (G-Ch.Picard) وباراديز (Baradez). كان لهذين الكتابين، خاصة الثاني، دورا بارزا في إحياء الدراسات حول خط الليمس في شمال إفريقيا، أما في مجال الحفريات فقد كان لستيفان قزال الفضل في الدفع بدراسات الحفريات خطوات إلى الأمام خاصة بعدما نشر كتابه القيم " النصب القديمة في الجزائر" الذي نشر سنة 1901[33]. وقبل ذلك فقد خلد ستيفان قزال إسمه في ميدان الحفريات حين نشر إحدى أشهر أعماله و المتمثلة في : الأطلس الأركيولوجي لتونس والجزائر (Atlas archéologique)، والذي أصدره بالجزائر سنة 1902 ثم بباريس سنة 1911. إن كثرة إحالة أوجين ألبيرتيني إلى ستيفان قزال و أعماله هو إعتراف بمكانة هذا الأخير في الساحة الأكاديمية و العلمية. إذن يقودنا الحديث عن مدرسة الجزائر التاريخية إلى التطرق إلى أحد أشهر روادها ألا وهو ستيفان قزال.

2- أعمال ستيفان قزال و أرائه حول الإسطوغرافيا

مما لا شك فيه أن إلمام ستيفان قزال بالحفريات وإطلاعه على أعمال أقرانه من علماء الحفريات وأطروحاتهم جعله ملما بالمصادر الأركيولوجية مما أعطى له مفاتيح لقراءة النصوص الأدبية. ما أن حلت الذكرى المئوية لإحتلال الجزائر حتى بزغ نجم ستيفان قزال الذي أوكلت إليه مهمة تقديم كتاب ذائع الصيت يخلد تلك الذكرى "*تاريخ ومؤرخي الجزائر* " والذي يعتبر بدون مبالغة كتاب كلاسيكي في الموضوع الذي نتناوله. إذن، ما إن حلت سنة 1930 المصادفة للذكرى المئوية لإحتلال الجزائر حتى سارع المؤرخون إلى إعداد حصيلة قرن من الإسطوغرافيا، وفي هذا الإطار خلد مؤرخو الجزائر إسمهم بأحرف من ذهب في كتاب نشر عام 1931 تحت عنوان " *تاريخ و مؤرخي الجزائر* "[34]، حيث عرضوا فيه نتائج أعمالهم وشرحوا فيه مناهج وطرق البحث التي إستخدموها. ورغم تواجد

[32] Albertini, E., 1955, p. 11.
[33] Albertini, E., 1955, p. 13.
[34] Gsell, S., 1931, « introduction », *Histoire et historiens de l'Algérie,* Paris, 1931.

ثلة من المؤرخين المتميزين والمختصين في الساحة فإن مهمة تقديم هذا العمل الكبير أوكلت إلى أشهر مؤرخي " الجزائر الفرنسية " الذي تعدت شهرته الأفاق ألا وهو ستيفان قزال. من هو هذا الأخير يا ترى؟

أ- ستيفان قزال* و العلوم المساعدة للتاريخ: الحفريات و النقوش

ما بين 1913 و 1928 نشر ستيفان قزال ثمانية أجزاء من كتابه " *تاريخ شمال إفريقيا القديم* "، و الذي صار مرجعا في الدراسات التاريخية مما خول له تبوأ مكانة مرموقة بين نظراءه من المؤرخين إذ يعتبر مؤرخ متخصص في العصور القديمة لشمال إفريقيا. لم يكن ستيفان قزال يدري أن تلك الشهرة التي إكتسبها سوف تحجب الأضواء على جوانب مهمة من سيرته الذاتية والخاصة فقليلون هم على دراية بتمكنه من علم الحفريات وإتقانه لقراءة رموزها.

علينا أن نشير في البداية إلى أن إسم ستيفان قزال جاء ذكره في ترجمة للمستشرقين الفرنسيين أين صنف في خانة " *أركيوليوجي، مختص في قراءة المنقوشات ومؤرخ شمال إفريقيا* "[35]. على الرغم من النجاحات التي حققها ستيفان قزال في الميدان العلمي و الأكاديمي إلا أن الظروف عجلت بقدومه إلى الجزائر. أثناء تواجده بإيطاليا واجهت مدرسة روما عراقيل كبيرة لتوسيع حفرياتها في إيطاليا مما إضطر ستيفان قزال إلى شد الرحال نحو شمال إفريقيا الخاضعة آنذاك للسيادة الفرنسية.

---

* ترجع أصول ستيفان قزال العائلية إلى منطقة الألزاس واللورين أين ولد في عائلة بروتستانتية مولعة بالعلوم. ولقد زاول دراسته الثانوية في أشهر ثانويات فرنسا على الإطلاق، ثانوية لويس الكبير (Louis-le-Grand)، مما فتح له آفاقا واسعة إذ سجل نفسه كطالب في المدرسة العليا للأساتذة (ENS) أين كلل مساره الدراسي بالنجاح لما تحصل على شهادة الأستاذية في التاريخ سنة 1886. تعلق ستيفان قزال بالتاريخ القديم كان حافزا ليشد الرحال إلى روما، المدينة الخالدة، لينظم إلى مدرسة روما (école de Rome) وإستقر به المقام هناك إلى غاية 1890. هناك أظهر كفاءة لا نظير لها في التحكم في العلوم المساعدة للتاريخ: الحفريات، المسكوكات وعلم المنقوشات. لأكثر تفاصيل حول حياة ستيفان قزال أنظر: Gutron, G., 2008, « Gsell Stephane », *Dictionnaire des orientalistes de langue française,* Paris, p. 462.

[35] Gutron, G., 2008, p.462.

بدأ نجم ستيفان قزال في البزوغ بالجزائر بعدما تفرغ لنشر حولية إخبارية خاصة بالحفريات في المجلة الإفريقية ولم يعقه ذلك من زيارة عدة مواقع للحفريات ونخص بالذكر هنا موقع تيبازة. إستلهم ستيفان قزال موضوع أطروحته اللاتينية من زياراته إلى الموقع الأثري بتيبازة، التي كانت مصدر إلهام له بحيث أنجز مونوغرافيا عن موريتانيا القيصرية. للتذكير فإن قزال ناقش أطروحة دكتوراه تحت عنوان " بحث *حول* حكم *الإمبراطور دوميتيان* "[36].

شكل تعيين ستيفان قزال لخلافة ماسكراي (Masqueray) على كرسي التاريخ وتاريخ العصور القديمة لشمال إفريقيا تحولا كبيرا في حياته، ورغم ظروف العمل الصعبة فإن ستيفان قزال قدم خدمة جليلة للمؤرخين حين وضع تحت تصرفهم أعمال خالدة تعينهم في أبحاثهم ونخص بالذكر هنا " *نصب جزائر العصور القديمة* "[37] ، الذي نشر عام 1901، و" *الأطلس الأركيولوجي للجزائر* "[38] ، الذي نال إشادة الباحثة المختصة كليمونتين غوترون (Clémentine Gutron) التي علقت على الكتاب قائلة " *يمثل إلى يومنا هذا أساس كل بحث أركيولوجي في الجزائر* "[39]. خلاصة القول أن هناك أعمال خالدة تقاوم الدهر والنسيان.

إن عودة ستيفان ستيفان قزال إلى فرنسا ومغادرته المفاجئة للجزائر لا يمكن تفسيرها إلا بالفاجعة التي ألمت به في سنة 1910 حين خطفت منه المنية زوجته مما عجل بعودته إلى باريس. إن إستقرار ستيفان قزال بباريس لا يعني أنه طوى صفحة تلك المرحلة بل بالعكس بقيت صلته بالجزائر وبما يكتب عنها وثيقة إلى درجة أن السلطات الأكاديمية الفرنسية و تقديرا لمكانته العلمية وعرفانا لمجهوداته خصصت له كرسي تاريخ شمال إفريقيا في كوليج دو فرانس (Collège de France) عام 1912. ورغم أن منصبه الجديد كان عبئا ثقيلا عليه إلا أن ذلك لم يمنعه من التفرغ لكتابة مؤلفه الخالد والذائع الصيت "

[36] Gsell, S., 1883, *Essai sur le règne de l'empereur Domitien*, Thèse de doctorat présentée à la Faculté des Lettres de Paris, Paris.
[37] Gsell, S., 1901, *Les monuments antiques de l'Algérie*, 2 vol, Paris.
[38] Gsell, S., 1911, *Atlas archéologique de l'Algérie*, Alger et Paris.
[39] Gutron, G., 2008, p.462 .

تاريخ شمال إفريقيا القديم "[40]. من المفارقات العجيبة في مسار ستيفان قزال فشله في تجسيد مشروعه العلمي الطموح والمتمثل في كتابة تاريخ شمال إفريقيا من حقبة ما قبل التاريخ إلى غاية الفتح الإسلامي وهذا لسبب بسيط وهو أن الموت حال دون ذلك. السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو التالي: ما هي القيمة التاريخية و العلمية لأعمال ستيفان قزال؟. جزء من الإجابة نجده عند كليمونتين غوترون التي أشادت بأعماله إذ كتبت معلقة عليها : " *هذه الأعمال سلطت الأضواء على صفحات من التاريخ كانت مجهولة في حين أنه قبل مجيء قزال لم تتوفر أعمال شاملة تتطرق للفترة الفينيقية أو ممالك الأهالي* "[41]. يكفي ستيفان قزال فخرا أن أعماله أهلته للحصول على جائزة جون رينو (Jean Reynaud)، التي تمنحها الأكاديمية الفرنسية وهذا سنة 1929.

لم يتوانى المؤرخ الفرنسي جيروم كاركوبينو عن تقديم عبارات الثناء و الإطراء لكتاب ستيفان قزال فكتب معلقا على قيمته العلمية " *كان ستيفان قزال أول من حظي بإستغلال كل المادة العلمية المتعلقة بالحضارتين الفنيقية والقرطاجية إلى درجة أن ألم بالموضوع ويظهر ذلك ماثلا للعيان في الأجزاء الأربعة الأولى لكتابه القيم تاريخ شمال إفريقيا القديم* "[42]. إلمام ستيفان قزال بالموضوع جعل جيروم كاركوبينو يتناول الجوانب الغامضة من تاريخ المغرب الأقصى التي تحاشى ستيفان قزال الكتابة عنها: العهد الفنيقي ورحلة حنون.

إن الكتابة حول شخصية ستيفان قزال جديرة أن تخصص لها أطروحة جامعية، لكن ما يهم موضوعنا هو التطرق إلى تصوره للإسطوغرافيا.

ب- ستيفان قزال و إسطوغرافيا العصور القديمة في الجزائر

بعد عرض نبذة عن حياة وأعمال ستيفان قزال سوف نقدم وجهة نظره حول إسطوغرافيا العصور القديمة في الجزائر. للأمانة العلمية علينا أن نشير أن ستيفان قزال

[40] Gsell, S., *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord*, 8 vol, Paris.
[41] Gutron, G., 2008, p.463 .
[42] Carcopino, J., 1943, *Le Maroc antique*, Paris, p. 9.

تفرغ لجمع وقراءة كل ما كتب عن شمال إفريقيا في العصور القديمة منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر.

قبل قدوم ستيفان قزال إلى الجزائر إقتصرت التنقيبات الأركيولوجية على القيام بالحفريات في موقع من المواقع أو مدينة من المدن لأن لم تتبلور بعد إستراتيجة شاملة للحفريات فلم يكن هناك تنسيق بين البعثات العلمية. في هذا الصدد علينا أن نشير إلى أن الأعمال الأولى التي نشرت لستيفان قزال كانت تخص علم الحفريات : " *أبحاث الحفريات في الجزائر* "[43] و " *المرشد الأركيولوجي لضواحي مدينة الجزائر* "[44]. لن نبالغ في الإطراء إن قلنا أن كفاءة ستيفان قزال العلمية وإلمامه بكل ما يتعلق بالحفريات جعله يشارك المؤرخ الألماني ثيودور مومسن في إعداد مدونة للنقوش بعنوان " مجموعة *المنقوشات اللاتنية* ". منذ أن نشر ستيفان قزال كتابين يمثلان مرجعية في الحفريات ألا وهما " النقوش اللاتينة في الجزائر "[45] و " الأطلس الأركيولوجي "[46] أصبح مرجعية في الحفريات وفي قراء النقوش.

قبل أن نبدأ حديثنا عن وجهة نظر ستيفان قزال حول إسطوغرافيا الجزائر في العصور القديمة علينا أن نتوقف عند كتابه المشهود " *تاريخ شمال إفريقيا في القديم* " لأن هذا الكتاب خول له أن يتبوأ مكانة علمية كبيرة بين نظراءه من المؤرخين إلى درجة أن أصبح المرجعية الأولى في الموضوع.

كانت أجمل المفاجآت أن يعرض القائمون على الذكرى المئوية لإحتلال الجزائر على ستيفان قزال أن يتكفل بتقديم كتاب صار فيما بعد كتابا كلاسيكيا فيما يتعلق بإسطوغرافيا الجزائر ألا وهو " *تاريخ ومؤرخي الجزائر* ". سوف نحلل هنا المقدمة التي وضعها ستيفان قزال للكتاب لأنها بكل بساطة تسلط الأضواء على تاريخ التاريخ أي الإسطوغرافيا في الجزائر. ما يهمنا في هذا التقديم على وجه الخصوص وفي محرري

[43] Gsell, S., 1893, *Recherches archéologiques en Algérie*, Paris.
[44] Gsell, S., 1896, *Guide archéologique des environs d'Alger*, Alger.
[45] Gsell, S., 1919, *Inscriptions latines de l'Algérie*.
[46] Gsell, 1902, *Atlas archéologiques de l'Algérie*, Alger et Paris.

الكتاب على وجه العموم هو إنتمائهم إلى المؤسسة العلمية والأكاديمية التي خول لها الكتابة في ماضي الجزائر.

من الواضح أن ستيفان قزال دخل مباشرة ودون أي مقدمات في صلب الموضوع بحيث يظهر ذلك جليا في المقدمة التي وضعها لكتاب "*تاريخ ومؤرخي الجزائر*". فإلمامه بالموضوع جعله يوفق إلى حد بعيد في تقديم لمحة سريعة ومختصرة عن حال إسطوغرافيا العصور القديمة على وجه الخصوص وعن إسطوغرافيا العصور اللاحقة على وجه العموم، حيث تساءل: " *ماذا نعرف عن تاريخ شمال إفريقيا سنة 1830 ؟ النزر القليل تقريبا. أولا فيما يخص حقبة العصور القديمة، فإذا ما استثنينا بعض الروايات المتعلقة بالحروب التي خاضها كل من الرومان والبيزنطيين، التي تتميز بالغموض والتي يضاف إليها مجموعة من أسماء الأماكن و الطرقات، فإن معرفتنا غامضة. أما فيما يتعلق بانتشار المسيحية فإن معرفتنا تتلخص في قوائم طويلة لأسماء الأساقفة إلى جانب بعض الأعمال الأدبية الكثيرة التي لقيت رواجا بعيدا عن المحيط الذي ابتكرت فيه* "[47].

دافعت مونيك دوندان عن نفس الأطروحة حين أجابت عن التساءل الذي كان يؤرق خاطر الكثير من المؤرخين : ماهي حال معارفنا عن الجزائر قبل 1830؟ تملك المؤسسات الأكاديمية في فرنسا معلومات شحيحة في الموضوع كان مصدرها الرحالة العرب والأوروبيون الذين كانوا يجوبون ربوع البلاد[48].

إذا كان ستيفان قزال ملما بكل ما صدر ونشر عن حقبة العصور القديمة في الجزائر سواء تعلق ذلك بالحفريات أو الدراسات التاريخية، فإنه لم يكن ساذجا إلى حد أن يجهل العلاقة السببية الموجودة بين الاستعمار ونشأة إسطوغرافيا معاصرة في الجزائر، حيث يقول " *الحملة على مدينة الجزائر التي صاحبها مباشرة غزو الجزائر أعطى للمؤرخين أدوارا جديدة. بل يمكن القول أنها فرضتها عليهم* "[49]. فيما تتمثل هذه الأدوار والمهام

[47] Gsell, S., 1931, « introduction », p. 1.
[48] Dondin-Payre, M., 2008, « Historiographie de l'Afrique du Nord antique », *Annuaire de l'école pratique des hautes études*, Paris, p. 113.
[49] Gsell, S. , 1931, « introduction», p. 1-2.

الجديدة التي أوكلت إلى المؤرخ يا ترى؟ من البديهي عند الساسة والمؤرخين أن الماضي وبالتالي التاريخ ينير درب الحاضر " *هنا و أكثر من أي مكان آخر يبدوا جليا أن معرفة الماضي ضرورية للحاضر. ما هي أصول السكان الذين نتصادم معهم و كيف تشكلت عاداتهم ومؤسساتهم و معتقداتهم ؟ ما هي العبرة التي يمكن إستخلاصها من التواجد والإحتلال الروماني، الذي يبدوا ظاهريا مزدهرا، في حين أن إضمحلاله كان سريعا؟* "[50].

شغل علم التاريخ مكانة مرموقة في الاحتفالات الصاخبة التي رافقت الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر (1830-1930). رغم إختلاف المدارس و وجهات النظر إلا أن ستيفان قزال أشاد كثير بشارل أندري جوليان الذي عين هو أيضا عضوا في لجنة الذكرى المئوية (Commission du Centenaire). حسب ستيفان قزال فإن المؤرخين إشتغلوا على نمطين من التاريخ: تاريخ " الأهالي " و تاريخ الأجانب و الدخلاء الذين تعاقبوا على البلاد. ما يعاب على مقاربة ستيفان قزال هو تعميمه لفكرة نمطية مفادها أن " البربر " لم تسري عليهم قوانين التغيير[51].

رغم مكانة قزال العلمية فإن من الأمانة العلمية أن نشير إلى أننا نعيب عليه سرعة تبنيه للأفكار المسبقة وهذا دون أي نقد أو تمحيص، ومن بين القوالب والصور السلبية عن سكان بلاد المغرب الكبير التي تبناها وروج لها نجد مقولة تعاقب الحضارات على أرض المغربالكبير ، حيث علق بخصوص هذه الفكرة بمايلي: " *الأجانب يولجون حضارتهم إلى المدن أين ترسخ و تزدهر حتى ينتابنا شعور أنها ستسود البلاد إلى الأبد. لكن كل هذا ما هو إلا سراب لأن تلك الحضارة تستسلم وتترك العنان لحضارة أخرى. في هذا المخاض يبقى التضارب والتباين بين المدن والأرياف واضحا، لأن الريف يبدوا دائما مغمورا في همجية دائمة، سواء كان ذلك عن جهل أو عدم قدرة فإن الغزاة تجاهلوا هذا التضاد ولم يتبادر إلى ذهنهم أن يبنوا سيادتهم على قواعد متينة* "[52]. دائما في مجال الأشياء التي نؤاخذ ستيفان قزال عليها نذكر المقابلة والموازنة التي يعقدها بين التاريخ الفرنسي وتاريخ

[50] Gsell, S., 1931, « introduction», p.2.
[51] Gsell, S., 1931, « introduction», p. 4.
[52] Gsell, S., 1931, « introduction», p.5.

مستعمرتها الجزائر، حيث يقول مستصغرا إحدى المستعمرات: "*كان من سوء حظ الكنيسة الإفريقية* (...) *عدم إنجابها لشخصية فذة مثل القديس مارتن* (*Saint Martin*) *الذي قام بتنصير سكان الأرياف وهذا لغرض جعلهم يتعلقون بالدين المسيحي ومن ثمة مد الجسور مع الثقافة اللاتينية* "[53].

توظيف التاريخ لإعطاء الشرعية لظاهرة الاستعمار هي إحدى وظائف الإسطوغرافيا في تقدير ستيفان قزال، حيث يقول في هذا الصدد:" *التاريخ يحدد لنا واجباتنا : الإرادة الراسخة لنكون أسيادا في كل مكان وفي كل الأوقات وضرورة وجود إحتلال مبني على معمرين أوربيين في الأرياف و أخيرا ضرورة تقريب الأهالي منا لكي يسهل دمجهم في المستقبل. ليس هذا النوع من التاريخ بعلم عديم الفائدة في شمال إفريقيا* "[54]. يشدد ستيفان قزال على أهمية العلوم المساعدة للتاريخ في إزدهار هذا العلم وفي هذا الإطار يستشهد بمقولة غوتيي " الجغرافيا هي عين التاريخ ".

فسر ستيفان قزال الحيز الكبير الذي تشغله الحفريات في الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية بقلة النصوص التي حفظتها المخطوطات، ومن هذا المنطلق يمكن إعتبار إستيلاء فرنسا على الجزائر إيذانا بتوسيع الميادين التي تدرسها الإسطوغرافيا وتجلى ذلك بعد تأسيس لجنة الاستكشاف العلمي للجزائر سنة 1837. لقد أماط ستيفان قزال اللثام عن التركيبة الاجتماعية لدارسي تلك الحقبة، حيث صرح قائلا: " *وجد هناك رجال تفرغوا لدراسة ماضي الجزائر رغم أن لا ثقافتهم ولا تكوينهم ولا حرفتهم تؤهلهم لإنجاز هذه المهمة فإن أقل ما يقال عن العمل الذي أنجزوه أنه صنيعة علماء ذوي قيمة كبيرة و ليس عمل هواة* (...) *معظمهم كانوا ضباطا على منوال كاريت وبلسيي ودولامار، ويرجع الفضل إليهم في منحنا ألاف الوثائق في الحفريات و النصوص اللاتينية* "[55]. خارج الحيز الضيق للعسكريين، لمع نجم بعض الكتاب المدنيين مثل لاكروا (Lacroix)، والي الجزائر ما بين 1863-1873، الذي أثار الإنتباه بفضل مقالاته في المجلة الإفريقية حول الإستعمار

[53] Gsell, S., 1931, « introduction», p.5.
[54] Gsell, S., 1931, « introduction», p.5.
[55] Gsell, S., 1931, « introduction», p.8.

الروماني في المغرب، كما يمكن إدراج ليون رونيي (Léon Renier) أيضا في الخانة نفسها، حيث أوكلت إليه مهمة إحصاء وجمع النقوش اللاتينية. خلاصة القول أن إحصاء كل هؤلاء المولعين بالتاريخ مع ذكر أعمالهم الرائدة جعل ستيفان قزال يتحدث عن " *مدرسة جزائرية عتيقة للتاريخ* "[56].

لم يشد ستيفان قزال عن القاعدة إذ تحدث بإسهاب عن بدايات الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية في الجزائر بحيث إتبع نهج المؤرخ الفرنسي هورغون (Heurgon) فأشاد بأعمال رواد الحفريات في الجزائر. من هنا يجب تفهم حديث ستيفان قزال عن إنجازات أعضاء لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر. ومن المهم هنا الإحالة إلى أعمال رواد الحفريات في الجزائر أمثال الرائد دولامار (Delamare) وليون رونيي. جدير بالإشارة أن ستيفان قزال وبغظ النظر عن إلمامه بموضوع الحفريات أشاد بمجهودات من سبقوه في هذا المضمار والذين كان جلهم ينتمون إلى الفئات الإجتماعية التالية: الأطباء و الموظفون و المهندسون والضباط ورجال الدين على حد تعبير هورغون دائما[57].

في هذا المقام يواصل ستيفان قزال عد وإحصاء كل المؤسسات والأشخاص الذين أثروا بإسهماتهم تلك الإسطوغرافيا، وفي هذا الصدد ذكر جامعة الجزائر التي تأسست عام 1880، وأساتذة الثانويات والمدارس. لم تقتصر المساهمة في وضع لبنات تلك الإسطوغرافيا على فرنسيي الجزائر بل أسهم مفكرون من فرنسا وأجانب في إثرائها، ونذكر منهم مومسن، من ألمانيا، مولر (Müller)، من الدنمارك، كونيا ومونسو وديبل (Diehl) من فرنسا.

لا نغادر هذا الموضوع الحساس بدون الحديث عن أطروحة هورغون جاك في الموضوع وهذا من باب إثراء موضوعنا بوجهة نظر أخرى غير وجهة نظر ستيفان قزال. ما يهمنا في هذا الموضوع هو أن جاك هورغون حدد ثلاثة مراحل كبرى في كتابة

[56] Gsell, S., 1931, « introduction», p.8.
[57] Heurgon, J., 1956, « L'œuvre archéologique française en Algéri », Bulletin de l'Association Guillaume Budé : Lettres d'humanités n° 15, Paris, p. 8.

الإسطوغرافيا الكولونيالية. جدير بالإشارة أن المرحلة الأولى تبدأ من 1837 إلى غاية عام 1880 وهي مرحلة البدايات التي ظهر فيها على الساحة هواة غير متخصصين إنشغلوا خاصة في ميدان الحفريات. من الضروري أيضا أن نركز الحديث عن المرحلة الثانية (1880-1912) التي تتزامن مع إنشاء جامعة الجزائر وفيها بدأ التنقيب في المواقع الكبرى في الجزائر: تمقاد (1880) و لامبيز (1883) و شرشال (1886) و تبسة (1888) وتيبازة (1891) ومداروش (1905)[58].

ومن المهم هنا التوقف عند هذه المرحلة لأن لم ترتكز الأبحاث عن التنقيب والحفريات فقط بل تعدى الأمر إلى نشر وطبع أعمال تاريخية مهمة في الموضوع وفي هذا الصدد نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: رني كانيا " الجيش الروماني في إفريقيا (1882) " و بول مونسو " الأدب اللاتيني لإفريقيا الوثنية " (1894). يضاف إلى تلك الكوكبة أعمال كل من قزال وكوركوبينو ودييل[59]. لكن علينا أن نشير أن جاك هورغون تحدث عن مرحلة ثالثة تبدأ من سنة 1912 وتنتهي مع حرب الجزائر سنة 1954 وفي هذه المرحلة الأخيرة انشأ ما يعرف بمديرية التاريخ العتيق والتي عين على رأسها كل من أوجين ألبرتيني (1923-1932) ولوشي لويس (1932-1954).

إذا وقف القدر عائقا أمام ستيفان قزال ليمنعه من إكمال أعماله التي توقفت على أعتاب الفترة الرومانية فإن الحظ كان مع خلفاءه الذين درسوا الفترة بدقة. في إطار الحديث عن الإسطوغرافيا في الجزائر كان لا بد أن نلح على فكرة جوهرية مفادها أن من حيث التكوين العلمي لكل أولائك الذين تناولوا الإسطوغرافيا بالدراسة فإنهم تكونوا في المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية وبالتالي لفهم مناهجهم علينا أن نتعرض بالحديث إلى الإسطوغرافيا الفرنسية في القرن التاسع عشرة.

[58] Heurgon, J., 1956, p. 8.
[59] Heurgon, J., 1956, p. 10.

III - ملامح الإسطوغرافيا الفرنسية في القرن التاسع عشر

لم يكن الفضول هو الحافز لكي ندرس الإسطوغرافيا الفرنسية في القرن التاسع عشر، بل إن إنتماء معظم مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية إلى المدرسة التاريخية السائدة في فرنسا آنذاك ألا وهي المدرسة الوضعية (École positiviste) هو الدافع الحقيقي لتناول الموضوع. وعلى القارئ أن يتذكر أن لتاريخ العصور القديمة حصة الأسد في البرامج الدراسية في التعليم في فرنسا في القرن التاسع عشر[60].

لكي نعطي للإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية حقها كان علينا أن نلح على فكرة مفادها أن هناك صلة وطيدة وعلاقة متينة بين رواد تلك الإسطوغرافيا و الإسطوغرافيا الفرنسية وفي هذا الصدد سنقدم نماذج لأسماء تركت بصمتها في مجال الإسطوغرافيا في الجزائر: من عالم الحفريات ليون رونيي (1809-1895) مرورا بأحد أشهر رؤساء المجلة الإفريقية السيد أوغست شيربونو (1813-1882) ووصولا إلى مؤرخ الجيش الروماني في إفريقيا ألا وهو كانيا روني (1852-1937). و أذكر هنا أن كل من ليون رونيي وأوغست شيربونو لم يكن لديهم تكوين أكاديمي وجامعي كمؤرخين بل درسوا التاريخ في الثانوية : ثانوية شارلمان بباريس فيما يخص شيربونو (Cherbonneau) [61] وثانوية مدينة رامس فيما يخص ليون رونيي[62]. لا يمكن نسيان وتجاهل حقيقة تاريخية ذكرها المؤرخ الفرنسي أنطوان بروست (Antoine Prost) [63] مفادها أن مادة التاريخ كانت قبل 1880 تدرس في الأقسام التعليمية السفلى: الإبتدائي و الثانوي، في حين أنها لم تدرج في الجامعات الفرنسية إلا بعد سنة 1880.

---

[60] Prost, A., 2010, *Douze leçon sur l'histoire*, Paris, p. 19.

[61] Messaoudi, A., 2008, « Cherbonneau Jacques Auguste », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 210.

[62] Gran-Aymerich, E., 2008, « Renier Charles Alphonse Léon », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 815.

[63] Prost, A., 2010, p. 18.

تعتبر الجزائر مصدر إلهام وميدان بحث لمؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية و خاصة للمتخصصين في النقوش اللاتنية على غرار ليون رونيي وتلميذه كانيا روني. لكي تكون لدينا فكرة واضحة عن المقاربات و المنهجية التي يتبعها مؤرخوا الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين يجب علينا أن نعطي فكرة واضحة عن المدرسة التاريخية السائدة في فرنسا في تلك المرحلة التاريخية. وما أعنيه بالمدرسة التاريخية المهيمنة هي المدرسة الوضعية التي إحتكر المنضوين تحت لوائها المناصب بالجامعات والمدارس العليا. ماهو تصور المدرسة الوضعية للتاريخ يا تارى ؟

أطلقت عدة نعوت وتسميات على إسطوغرافيا القرن التاسع عشر على وجه العموم وعلى الإسطوغرافيا الفرنسية على وجه الخصوص ولكن يبقى أشهرها هو تسمية المدرسة الوضعية التي ينعتها خصومها* بتسميات التاريخ الحدثي (Histoire événementielle) والتاريخ-المعركة (histoire-bataille).

رغم أننا يمكننا تتبع إرهاصات تلك الإسطوغرافيا بداية من الحروب الصليبية إلى غاية الفترة المعاصرة، فرواسار (Froissart)، وفليب دي كومين (Philippe de Commines)، غيوم بودي(Guillaume Budé) ، جان بودان (Jean Bodin)، بوسوي (Bossuet)، مونتسكيو (Montesquieau) وفولتير (Voltaire)، إلا أنه ليس من المؤكد أن مؤرخي القرن التاسع عشر تباهوا بالانتساب إلى سابقيهم. لكي نعطي لتلك الإسطوغرافيا حقها علينا أن نسلط الأضواء على مكانتها بين الأمم الأوربية في القرن التاسع عشر. إذا الحكم الذي أصدره المؤرخ الفرنسي كورنرت إميل (Coorneart Emile) حول حال الإسطوغرافيا في فرنسا في بداية القرن التاسع عشر، عند عام 1800، كان قاسيا جدا ومثيرا للشفقة حيث قال " *هناك نزر قليل من التاريخ و نفور منه* "[64]، فإن

* ما نعنيه بخصومها هم المؤرخون المنضون تحت راية مدرسة الحوليات.

[64] Coornaert, E., 1977, *Destins de Clio en France depuis 1800. Essai*. Paris, p. 19.

من الواضح أن موقف أنطوان بروست ليس أقل رحمة منه حين أقر بتفوق المدرسة التاريخية الألمانية على نظيرتها الفرنسية[65]

تعتبر الفترة الممتدة من 1815 إلى 1830 بالعصر الذهبي للإسطوغرافيا في فرنسا، حيث سادت في تلك الفترة النزعة الإنسانية ولهذا تعتبر الفترة ب " *العصر الذهبي للإسطوغرافيا و يتجلى ذلك في الشغف الكبير بالماضي* "[66]. يمكن القول بصفة عامة أن التاريخ لم يدرج كمادة إجبارية للتدريس في الثانويات إلا عام 1818 بحين برمجت ساعتين للتدريس فقط خلال الاسبوع[67].

بزغ نجم مجموعة من المؤرخين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر وكان لهم تأثير كبير على الرأي العام. لكن مماهو جدير بالملاحظة كذلك أن المؤرخين على غرار كاميل جوليان (Camille Julien) بالغ في الإطراء حين تحدث عن " *جيل من المؤرخين الكبار* ". ولعلى المؤرخ الفرنسي جول ميشلي لم يبالغ حين نعتهم ب " *الكوكبة النبيلة* ". ويهمنا هنا ذكر أسماء هؤولاء المؤرخون نظرا لمكانتهم في إسطوغرافيا القرن التاسع عشر: بروسبير بارونت (Prosper Barante) 1782-1856، أدولف تيير (Adolphe Thiers) 1795-1877، فرنسوا غيزو (François Guizot)، 1787-1874، أوغسطين تيري (Augustin Thierry) 1795-1856، وأخيرا فرنسوا مينيي (François Mignet) 1796-1884. يضاف إلى كل هؤلاء، الذين كان تجمعهم صداقة متينة، إسم مؤرخين تجاوزت شهرتهما الأفاق: جول ميشلي (Jules Michelet) 1798-1874 وكيني (Quinet) 1803-1875. ترك كل هؤلاء بصمتهم على الإسطوغرافيا الفرنسية سواء من ناحية المنهجية ومقاربة البحث أو من ناحية المواضيع الجديدة التي تناولوها بالدراسة.

[65] Prost, A., 2010, p.24.
[66] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 85.
[67] Prost, A., 2010, p. 19.

كانت إعادة قراءة الماضي هي الموضة السائدة عندهم، في هذا الصدد ألم يعتبر أوغسطين تيري مصطلح " *الأجناس*" مفتاح لقراءة وتفسير تاريخ كل من إنجلترا وفرنسا " *ثأر وقصاص الشعوب المغلوبة، الساكسون والغاليين، من أحفاد الشعوب الغالبة، النورمانديين و الفرنجة* "[68].

خطى المؤرخون خطوة إلى الأمام في الكتابة التاريخية فلم يكتفوا بكتابة التاريخ فقط بل نظروا إلى ما يسمى ب " *فلسفة التاريخ* "، حيث أن معظم مؤرخي وفلاسفة القرن التاسع عشر قد وضعوا قوانين لتفسير التاريخ: كارل ماركس (Karl Marx) وصراع الطبقات، غوبينو (Gobineau) و فكرة الأجناس، تين (Taine) وتأثير الجنس والمحيط واللحظة على الإنسان. ألم يتنبأ هؤلاء بنهاية سعيدة للتاريخ مثل ما كان الأمر عليه مع هيجل (Hegel) وسيادة الروح والفكر، ميشلي وانتصار الحرية، ماركس ونهاية الاستلاب، كيني وتعظيم الحرية.

لم تنظر السلطة السياسية الفرنسية إلى الأعمال والبحوث التاريخية التي كتبها كل من تيري، وغيزو، وتيير، وميني، وبارونت وميشلي بعين الرضا، لأن في إعتقاد السلطة السياسية كان هناك بون شاسع ما بين ما يسمى ب " التاريخ الرسمي" والتاريخ الذي أنتجه أو بالأحرى صنعه هؤلاء على حد تعبير المؤرخ إبن خلدون. لم تبق السلطة السياسية مكتوفة الأيدي أمام تنامي هذا النوع من الإسطوغرافيا بل لقد مارست مضايقات ضد هؤلاء المؤرخين. لم يسلم كل من المؤرخين غيزو وكوزان من بطش السلطة حيث حرما من كرسي التاريخ في جامعة السربون. في حقيقة الأمر كانت غاية هؤلاء المؤرخين من كتابة التاريخ " *الثأر للثورة الفرنسية* "[69]، حيث إعتبر المؤرخون الفرنسيون " *ثورة 1830* " نصرا كبيرا لهم، وفي هذا الصدد أشار كاميل جوليان في كتاباته إلى " *إنتصار التاريخ* " و بالتالي إنتصار الليبرالية. إرتقى المؤرخون بعد الثورة إلى أعلى المناصب مثل ما هو الحال مع تيري الذي أصبح مستشارا للدولة، كما دخل فيلمان وكوزان إلى الوزارة، في حين إرتقي ميني إلى منصب مدير للأرشيف في وزارة الشؤون الخارجية.

[68] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 89.
[69] Coornaert, E., 1977, p. 24.

كان تخصص المؤرخون في تلك الفترة عامل ساهم في إهتمامهم بدراسة عدة مواضيع مثل تاريخ الآداب والفلسفة، والتاريخ الديني، والتاريخ العسكري والدبلوماسي وتاريخ العلوم. كان السواد الأعظم من المؤرخين مولعين بتاريخ العصور الوسطى وثورة 1789. لكن على العموم قد حظي التاريخ بمكانة مرموقة بين كل العلوم قبل أن ينافسه عليها علم جديد ألا وهو علم الاجتماع.

1- السجال بين التاريخ وعلم الاجتماع:

لم تكن تجدد الدراسات التاريخية من حيث المقاربات والمناهج والمواضيع التي تناولتها بالبحث والتمحيص إلى جانب طغيان المنهجية النقدية بمعزل عن نشأة علم الاجتماع الذي حاول رواده التقليل من شأن علم التاريخ، وهنا نتساءل لماذا يا ترى هذا التنافر بين الفريقين، المؤرخين وعلماء الاجتماع؟

حل إيمان المفكرين والناس بسلطة العلم خلال القرن التاسع عشر محل إيمان الأتقياء من كل الديانات بالرسالات المنزلة، وتعتبر الموضوعية الهاجس البكر للمؤرخين الذين سطع نجمهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: طوكفيل (Tocqueville)، رينان، فوستيل دي كولنج (Fustel de Coulanges)[70]. حظي التاريخ النقدي عندهم بمكانة مميزة ومقام رفيع حتى صار سمة للإسطوغرافيا في ذلك العصر.

أثرى أوجست كونت (Auguste Comte) المعرفة التاريخية حين أقنع معاصريه بوجهة نظر خاصة به مفادها أن هناك " قانون " يفسر التاريخ[71]. لقد لقيت هذه الفكرة رواجا واسعا وتقبلها سواء الجامعيون أو حتى عامة الناس بشغف كبير بل لقد شغلت بالهم لعقود وسنوات طويلة. صنف أوجست كونت العلوم من البسيطة إلى المعقدة وحظي هذا التقسيم بقبول المؤسسات العلمية إلى درجة أن تصنيفه للعلوم كان " *مرجعية لعصر بأكمله* "[72]. لم يدر بخلد أوجست كونت أدنى شك بخصوص المكانة الريادية لعلم الاجتماع بين

[70] Coornaert, E., 1977, p. 48.
[71] Coornaert, E., 1977, p. 69.
[72] Coornaert, E., 1977, p. 69.

العلوم، لكن الإشكالية التي إستعصى حلها على علم الاجتماع هي كيفية تفسير إنتقال الإنسانية من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات المعقدة. لم يكن أمام علماء الاجتماع إلا إنتظار قدوم إميل دوركايم (Émile Durkheim) ليقترح حلا عمليا وهذا ما بين 1883 – 1894 عن طريق " *دراسة القبائل والعشائر البعيدة عنا والتي يمكن مصادفتها في القارات البعيدة مثل أستراليا* "[73]، وقد تبنى جورج لوففر الفكرة نفسها مع تحفظه عن فكرة هل ما يسمى بالمجتمعات البدائية التي نراها في تلك البلدان هي في بدايات التطور أم أنها هي نتيجة لانحطاط المجتمع. لقد جعل التطبيق العملي لهذه الفكرة من الإثنولوجيا وهي من العلوم المساعدة للتاريخ، إحدى المواضيع التي يدرسها علم الاجتماع.

يرى إميل دوركايم أن دعائم منهجية علم الاجتماع مبنية على " *الملاحظة المباشرة للوقائع* "[74]، ولهذا السبب لم يعر إميل دوركايم أي إهتمام للإنسان وتجاهل دوره في صناعة التاريخ، وعلى العكس من ذلك ركز جل إهتماماته على دراسة المجتمع والقوانين التي تسيره؛ ويحق القول هنا، إننا أمام صيغة حديثة ل " *النزعة الحتمية* " التي لا تعير أي إهتمام للإنسان.

كان لنظريات العلوم الإنسانية التي سادت خلال القرن التاسع أثرا كبير على العقول، ولكي نرصد حقيقة هذا التأثير ينبغي علينا وضع هذه النظريات في إطارها التاريخي ونبين تأثير هذا الأخير على هذه النظريات وروادها بصفة عامة. من بين هذه النظريات نجد نظرية التطور (L'évolutionnisme)، التي وضع أسسها شارل داروين (1809-1882)، والتي لقيت صدا واسعا ورواجا كبيرا في الأوساط العلمية والسياسية، فمن الناحية الإجتماعية، ووفقا لنظرية التطور، تمر المؤسسات والمجتمعات على غرار الأنواع الحيوانية بمراحل مختلفة في تشكلها. إن وجود مجتمعات بدائية خلال القرن التاسع عشر معاصرة للمجتمعات المتقدمة هي إحدى المعطيات الموضوعية التي بنى داروين نظريته عليها وكان من البديهي أن تتبنى هذه النظرية في الأنثروبولوجيا. تمثل المجتمعات البدائية في نظر الأنثروبولوجيين إحدى مراحل تطور البشرية، ومن حيث لا يعلم وضع داروين و

[73] Coornaert, E., 1977, p. 70.
[74] Lefebvre, G., 1971, p. 299.

أسس " *تصورا تطوريا لمختلف الثقافات أو ما يسمى في ذلك الوقت ب " الأجناس " فالمعدن النفيس للحضارة الأوربية (إذن العالمية) يوجد في العالم الأنجلوسكسوني وهناك تدرج* (*gradation*) *للحضارات* "[75]، وللأسف أولت هذه النظرية تأويلا عنصريا فكان هناك صنفين من البشر: الأعلى والأدنى.

إن نشوب جدال ونقاش حاد بين المؤرخون وعلماء الاجتماع حول ماهية التاريخ وماهية علم الاجتماع ماهو إلا خاتمة منطقية لصراع النفوذ والحظوة بين الفريقين. في هذا الصدد إعتبر علماء الاجتماع التاريخ " *ممون ومنبع لا ينضب من الوقائع التاريخية* "[76]. لقد لخص جورج لوففر مآخذ علماء الاجتماع على علم التاريخ في هذه النقاط: 1 - تاريخ القرن التاسع عشر هو تاريخ سياسي محض يغض النظر عن الحياة الاقتصادية، الاجتماعية والدينية للإنسان. 2- يتحامل علماء الاجتماع على علم التاريخ وينعتونه بالوصفي الذي يتجاهل " *السمات الأساسية* " للحضارة وقالوا عنه أنه يبغض عقد المقارنات[77]. في خضم هذا التجاذب والسجال بين الفريقين جاء المؤرخ الفرنسي شارل سينيوبوس، صاحب كتاب " مدخل إلى الدراسات التاريخية "، بالفكرة القائلة أن " التاريخ هو علم الحوادث التي لا تقع إلا مرة واحدة "[78]، وكان غرضه هو تبيان أن ليس لعلم الاجتماع الأهداف نفسها التي يسعى إليها التاريخ. كان رد فعل علماء الاجتماع شديدا وقويا، وفي هذا السياق قد أعاب سميان (Simiand) على التاريخ إهتمامه بالأحداث وبالتقسيمات الكرونولوجية على حساب النظرة العامة للأحداث.

ما يهمنا في التطرق إلى هذا السجال بين الفريقين هو أن مآخذ علماء الاجتماع تبنتها فيما بعد مدرسة تاريخية فرنسية أخرى صار لها فيما بعد باع طويل في مضمار الدراسات التاريخية ألا وهي " *مدرسة الحوليات* ". إسطوغرافيا القرن التاسع عشر التي تحامل عليها خصومها المعاصرين، علماء الاجتماع، وخصومها اللاحقين، رواد مدرسة الحوليات،

---

[75] Deliège, R., 2006, *Une histoire de l'anthropologie, école, auteurs, théories*. Paris, p. 19.

[76] Coornaert, E., 1977, p. 71.

[77] Lefebvre, G., 1971, p. 301.

[78] Coornaert, E., 1977, p. 71.

أطلقت عليها تسمية التاريخ التقليدي ثم أصبح مصطلح " التاريخ الحدثي"، ذي الصبغة التحقيرية هو السائد، لكن هل شيوع هذه التسمية يعني أننا يجب أن نهمل تلك الإسطوغرافيا؟

2- التاريخ الحدثي: مفهوم وتأويلات

سوف نحاول أن نعطي أولا نبذة بسيطة عن مساهمة كل من الدولة في فرنسا والمؤسسات في الانتشار الواسع للتاريخ ثم نحاول ثانيا أن نفسر كيف أن من رحم المؤسسات التعليمية والجامعية ولد "*تاريخ* جديد " ألا وهو التاريخ الحدثي.

لم تكن فرنسا بالشاذة عن القاعدة فيما يخص مسألة تدريس التاريخ في المدارس، المعاهد والجامعات الفرنسية، بل إذا ما إستثنينا إحالات أساتذة الأدب، الأخلاق والسياسة إلى التاريخ في دروسهم، فإن التاريخ لم يدرج في مناهج التعليم كمادة علمية مستقلة يتولى تدريسها أستاذ خاص بها. وضعت اللبنة الأولى لتدريس التاريخ في فرنسا مباشرة بعد الثورة الفرنسية، وأعطت الجمعية التأسيسية الفرنسية (La Convention) طابعا وطنيا ورسميا لتعليم التاريخ حين أسست في المقاطعات مدارس مركزية أوكلت إليها مهمة تكوين الأساتذة وخصصت أقسام لتدريس مادة التاريخ[79]. أطلق أولائك الذين وضعوا المناهج التعليمية تسمية " *التاريخ الفلسفي للشعوب* " على مادة التاريخ، وقد أولت بعد ذلك الدولة والحكومات الفرنسية المتعاقبة إهتماما خاصا بتدريس التاريخ ولهذا الغرض أنشأت مدارس متخصصة مثل مدرسة الميثاقيون* (École des chartes) عام 1823 ومدرسة الدراسات العليا (École des Hautes études). ويعتبر تأسيس المجلة التاريخية في عهد الإمبراطورية الثانية تكريسا لمكانة التاريخ والدراسات التاريخية في المجتمع الفرنسي.

رغم تحامل وإحتقار الكثير لهذه المدرسة التاريخية التقليدية التي نعتت ب " *التاريخ الحدثي* " إلا أننا يجب أن نقر مع نواريل جيرارد (Noiriel Gérard) أن معظم أساتذة

[79] Coornaert, E., 1977, p. 98.

* يطلق عليها أيضا إسم مدرسة علم الوثائق والتي تأسست في باريس عام 1822 وتوجد بجامعة السبرون. يمكن ترجمة إسمها كا يلي المدرسة الوطنية لعلم الوثائق.

التاريخ في جامعة السربون قبل الحرب العالمية الثانية كانوا مختصين سواء في الثورة الفرنسية أو العلاقات الدولية[80]، ومن البديهي أنه يمكن أن نستخلص أننا بصدد الحديث عن التاريخ السياسي بإمتياز. من الأمانة العلمية الإقرار بأن رواد مدرسة الحوليات هم من روجوا لهذه التسمية، التي رسخت في عقول النخب الفكرية الذين أخذوا عنها فكرة نمطية سلبية، وفي هذا الصدد عرض المؤرخ نواربيل جيرارد أطروحة جريئة حول حقيقة هذه التسمية حيث فسر لنا كيف نسي الناس المعنى الأولي للتسمية وبقيت راسخة في أذهانهم تلك المفاهيم السلبية التي لصقت بالمعنى الأولي للتسمية. السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو التالي: ماذا يعني نواربيل جيرارد بالتاريخ الحدثي؟

حدد نواربيل جيرارد معنى التاريخ الحدثي في كتاب تحت عنوان " *ما التاريخ المعاصر؟* " (Qu'est-ce que l'histoire contemporaine ?)، حيث قال " *إنها مقاربة تاريخية ترمي إلى وضع الوقائع في سياقها التاريخي وتسعى إلى إبراز الجانب الشاذ للوقائع مع إعطاء مكانة خاصة للأشخاص و لأعمالهم* "[81]. ومنه فالتاريخ-الحدثي هو تاريخ سياسي يقوم على ثلاثة معايير أساسية وهي الواقعة التاريخية، والإنسان والمحيط، ومن المواضيع المفضلة لدى محترفي هذا التاريخ التقليدي نجد الثورة الفرنسية وحروب 1870، 1914-1918. يجب التذكير بأن هذه النزعة الإسطوغرافية لم تسلم لاحقا من نقد وتحامل خصومها عليها، والذين أطلقوا عليها تسمية نمطية " *التاريخ الحدثي* ".

كانت مساهمة فرناند بروديل في وضع المسمار في نعش " *التاريخ التقليدي* " فاصلة في الدراسات التاريخية، حيث بقيت الانتقادات التي وجهها إلى التاريخ-الحدثي مدوية في آذان معاصريه وإلى غاية اليوم يمكن للقارئ الإطلاع عليها في مجلة " *الحوليات* " (annales)، وبالظبط في عدد عام 1958. ما يؤاخذه فرناند بروديل على هذا التاريخ هو الإفراط في التركيز على " *الوقائع الكبرى* " والاهتمام بالزمن القصير[82]. رغم بقاء إسم فرناند بروديل ملازما لهذه التسمية إلا أن لوسيان ففر (Lucien Febvre)، أحد الرواد

[80] Noiriel, G., 1998, *Qu'est-ce que l'histoire contemporaine ?,* Paris, p. 33.
[81] Noiriel, G., 1998, p. 31.
[82] Noiriel, G., 1998, p. 32.

الأوائل لمدرسة الحوليات، ينتمي إلى الجيل الأول، هو من أطلق هذه التسمية وروج لها في الأوساط العلمية والأكاديمية. تعود أصول هذه التسمية إلى الجدال الذي نشب بين لوسيان ففر وهنري هاوزر (Henri Hauser) في أوائل القرن الماضي. ما يعيبه لوسيان ففر على هذا الأخير هو تفضيله التركيز على الوقائع في كتابه " *التاريخ الدبلوماسي لأوروبا (1871-1914)* " إلى جانب تجاهله ل " *تأثير الاقتصاد على السياسة* "[83]. كان فحوى الجدل بين المؤرخين وعلماء الاجتماع، الذي أشرنا إليه سابقا، يتعلق ب " *الواقع والحقيقة التاريخية* ". هل نسلم بمقولة سينيوبوس حين أطلق العنان لصرخته الشهيرة " *لا حقيقة غير الأشخاص* "[84]، ومغزى هذا الجدل هل نكتب تاريخ المؤسسات وبالتالي المجتمع أم تاريخ الوقائع التاريخية وبالتالي الأفراد؟. الإعتقاد السائد هو أن الناس فهموا مفهوم التاريخ-الحدثي في معناه الضيق: تاريخ المواعيد الكبرى، تاريخ المعارك و تاريخ المفاوضات. في حقيقة الأمر منذ البداية نشأ سوء تفاهم بين ممثلي المدرستين التاريخيتين.

إنطلاقا من مقال نقدي كتبه لوسيان ففر تعرض فيه لكتاب إميل بورجوا (Emile Bourgeois)، " *وجيز التاريخ الدبلوماسي* " (Manuel d'histoire diplomatique)، أين أبدى ملاحظاته حول الكتاب الذي نشر أصلا للترويج عن الموضوع، تبنى من جاء بعده أفكاره دون نقد وتمحيص. في هذا الصدد ألم يشفع نواربيل جيرارد لأصحاب التاريخ-الحدثي حين كتب معلقا " *قراءتي لمعظم الرسائل الجامعية التي نوقشت منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى غاية الخمسينيات، جعلتني أستخلص أن لا وجود لتاريخ-توقيت* (*Histoire-date*) *أو التاريخ-المعركة* (*Histoire-bataille*) "[85]. مهما يكن من أمر فإن التاريخ-الحدثي بمعنى " التاريخ التقليدي " كان موضة الكتابة و لا يمكن إنكار تأثيره على الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية التي نشأت بالجزائر.

بعدما قدمنا لمحة عن إسطوغرافيا القرن التاسع عشر في فرنسا علينا أن نتناول موضوع التحقيب و كيف عالجته الإسطوغرافيا.

[83] Noiriel, G., 1998, p. 32.
[84] Noiriel, G., 1998, p. 34.
[85] Noiriel, G., 1998, p. 35.

IV- العصور القديمة وإشكالية التحقيب في الإسطوغرافيا

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ندرس الإسطوغرافيا دون أن نتطرق لفكرة التحقيب لأن فكرة تقسيم التاريخ إلى حقب لها تاريخ أيضا إذ أنها إبتكرت في القرن السادس عشر أي في أوج عصر النهضة الفكرية بأوربا. ماهي يا ترى دوافع تقسيم التاريخ إلى حقب؟

علينا أن نقوم في المقام الأول بتحديد المصطلحات إذ أننا نعني بالتحقيب ما يسمى بالتحقيب الثلاثي: عصور قديمة ووسطى وحديثة. للإطلاع على حيثيات إبتكار حقبة العصور القديمة علينا أن نضع هذه الفكرة في سياقها التاريخي. في هذا الصدد لا يخفي رواد النزعة الإنسانية إعجابهم بالمؤرخين الإغريق والرومان بحيث طبعت لأول مرة في هذا العصر أعمال تاكيتوس (Tacite) ، 1515، وبلوتاركوس (Plutarque) عام 1559 و غيرهم، وفي هذا الإطارأسهمت الصحافة والمطبعة في إنتشار أعمال مؤرخي العصور القديمة، وبالتالي إعادة إكتشافهم من طرف الجمهور وبالتالي القراء. لن نحكم على هذه الأعمال لكن علينا أن نذكر القارئ بالرواج الواسع الذي لقيه كتاب بلوتاركوس " *السير الموازية* " (Les vies parallèles) [86] خاصة في فرنسا أين نشر لأول مرة سنة 1559. كما تميز عصر النهضة بظهور فكرة التحقيب الثلاثية: العصور القديمة، العصور الوسطى و العصور الحديثة[87].

بغض النظر عن فكرة التحقيب فهناك عدة مفاهيم للزمن: الزمن الكوسمي و الزمن النفسي و الإجتماعي و التاريخي. ما يهمنا هنا هو أن إعادة إكتشاف العصور القديمة من طرف رواد النزعة الإنسانية طرح أمامهم إشكالية تصنيف و تحقيب فترة العصور الوسطى التي " *نظر إليها بنوع من الإستصغارلأنها لا تسمو إلى مستوى الماضي الهليني و الروماني و لا التطورات المهمة المحققة مع النهضة* " على حد تعبير محمد فتيحة[88]. إذن

[86] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 55.

[87] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 56.

[88] محمد، ف.، 2005،" تدريس تاريخ العصر الوسيط ومسألة التحقيب، التحقيب في الكتابة التاريخية المغاربية "، *أعمال ندوتي مراكش وتونس 2005*، تونس و الرباط، ص. 13.

كان إطراء رواد النزعة الإنسانية على مفكري العصور القديمة وإزدرائهم لمفكري العصور الوسطى سببا مباشرا لإبتكار التحقيب.

رغم أن إسطوغرافيا العصور الوسطى غلقت قوس تلك الإسطوغرافيا إلا أنها رأت النور من جديد خلال عصر النهضة في أوربا. في هذا المقام، ألم تعتبر الإسطوغرافيا الفرنسية كتاب مونتسكيو "*تأملات في أسباب عظمة الرومان و إنحطاطهم*"[89]، الصادر سنة 1734 ، كتاب مؤسس إستلهم مادته من حقبة العصور القديمة؟. كيف يمكن أن نغض البصر عن الإشارة إلى كتاب لمفكر فرنسي ذائع الصيت، تجاوزت شهرته الأفاق؟ مهما يكن من أمر فإن جورج لوففر أدرج مونتسكيو في خانة الذين كتبوا " *التاريخ العقلاني* " حيث قدم لنا براهين وحجج عقلانية ليفسر لنا " *عظمة، ثم إنحطاط الرومان* "[90]. يتمثل إسهام مونتيسكيو في أنه تخلى عن الأسباب اللاعقلانية والخرافية مثل العناية الإلهية (la providence) لتفسير الحوادث التاريخية.كان غرض مونتسكيو (1689-1755) حسب عبد الله العروي من تناول هذا الموضوع هو دراسة القوانين وعلاقتها بجملة من العوامل : المناخ، الإقتصاد، الأخلاق، الأعراف والطقوس الدينية[91]. لقد حذ مونتسكيو حذو ماكيافلي (Machiével) فأراد إستنباط القوانين والعبر من تاريخ الرومان. عموما لا يعدوا كتاب هذا الأخير، الذي إستوحاه من كتاب تيت-ليف، من أن يكون هدفه هو " *النصح المفيد المستوحى من تاريخ روما في عظمتها* "[92]. المنهج نفسه تبناه تقريبا مونتسكيو في دراسته وهنا كتب عبد الله العروي موضحا " *يقول مونتسكيو إن أسباب نهوض روما هي نفسها التي أدت إلى الخلل والإنحطاط ثم الإنهيار، أسباب عائدة إلى التشريع، التربية، رعاية الأعراف، تدبير المعاش، رسم الضرائب، تعبئة الجيش* ... إلخ "[93]. إطناب وانبهار مفكري

---

[89] Montesquieu, Ch-L., 1968, *Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et leur décadence*, Paris.

[90] Lefebvre, G., 1971, p. 121.

[91] مونتسكيو ، *تأملات في تاريخ الرومان. أسباب النهوض و الإنحطاط*، ترجمة العروي، ع.، 2011، الدار البيضاء، ص.8.

[92] مونتيسكيو، 2011، ص. 11.

[93] مونتيسكيو، 2011، ص. 13.

النهضة الأوربية بمؤرخي حقبة العصور القديمة جعلهم يشمئزون من مؤرخي العصور الوسطى.

لقد أثريت إسطوغرافيا عصر النهضة بالعلوم المساعدة للتاريخ كالنحو (La philologie) ، حيث طرحت دراسة اللغة على المؤرخ الإشكال التالي: ما هو أقدم مخطوط من بين كل المخطوطات التي وصلت إليه، في حين أن غيوم بودي وضع اللبنات الأولى لعلم المسكوكات (La numismatique) حين قام بنشر كتابه حول النقود الرومانية. توسعت قائمة العلوم المساعدة للتاريخ إلى علم الأرشيف: بحث جاكوب فون رامينجن (Jakob von Rammingen) في الموضع و إبتكار سكاليجر (Scaliger) لمنهجية لقياس الكرونولوجيا. تزامنت هذه التغيرات التي أثرت الإسطوغرافيا مع إقامة أول المراكز الأرشيفية الخاصة بالدولة في إسبانيا في حين فتحت المكتبات الجامعية والوطنية في أوربا. في هذا المناخ السياسي والعلمي نشأ ما يسمى بالتاريخ النقدي (Histoire critique) ويعود الفضل في ذلك إلى كل من بروني (Bruni) وبيوندو(Biondo)[94].

لا يمكن لأحد أن ينكر إسهامات عصر النهضة الأوربية سواء في إبتكار التحقيب الثلاثي أو في اللجوء إلى العلوم المساعدة للتاريخ لدراسة العصور القديمة.

1- إشكالية تحقيب العصور القديمة و الوسطى في الإسطوغرافيا المغاربية

لم تكن مسالة التحقيب عامة وتحقيب حقبتي العصور القديمة والوسطى في بلاد المغرب الكبير أوفر حضا من نظيرتها في الغرب لأن في الكثير من الأحيان المقياس الزمني المعتمد كمعيار للتحقيب في منطقة ما لا يصلح في منطقة أخرى لأسباب سياسية وإقتصادية وثقافية.

لقد قسم المؤرخون العصر الوسيط إلى ثلاث مراحل في الغرب: العصر الوسيط الأعلى (القرن 5 م – 10 م) والعصر الوسيط الأوسط أو العصر الفيودالي (القرن 11 م-13 م) وأخيرا العصر الوسيط المتأخر (القرن 14 م-15 م). الإشكال المطروح هو أن

[94] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 59.

مفهوم العصور الوسطى يختلف في الحضارة الإسلامية عن نظيره في الحضارة الغربية فماذا نعني به في الإطار الإسلامي ؟ وماهو الحد الفاصل بين العصور القديمة والوسطى في بلاد المغرب يا ترى؟

كان من عادة مؤرخي العهد الفرنسي في الجزائر أن يجعلوا من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الكبير مقياس للفصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى وبالتالي أخذت تلك الواقعة التاريخية كمعيار للتحقيب. ليس من المستبعد أن يكون أولائك المؤرخين على غرار قزال ومرسيي قد تأثروا بمؤرخي المسلمين الذين جعلوا من حدث تاريخي وهو مجيء الإسلام بداية لهذا التحقيب. إذا كان العصر الوسيط في الغرب هو ذلك العصر الذي يلي مباشرة العصور الوسطى فإن هذا العصر في التصور الإسلامي هو مجرد بداية لتاريخ جديد وفي هذا الصدد لقد عقدت المؤرخة التونسية محمد فتيحة مقارنة بين مفهوم العصور الوسطى في الثقافتين " *من الناحية الزمنية التاريخ الإسلامي إبتدأ بعد هذا بما يزيد عن قرن ونصف والفتوحات الإسلامية إنتهت في المغرب في نهاية القرن السابع وكان يلزم مزيدا من الوقت لتستقر الأمور وتظهر ملامح التنظيمات الإسلامية الأولى في التعمير والتعليم والإدارة. هذه مرحلة بدايات وتأسيس ولا تتوسط أي شيء، هي تبدأ في أذهان أصحابها من عدم ووصفت ما سبق بالجاهلية وإن كان من الصعب إيجاد مقابل لهذا في تاريخ المغرب لكن الإسلام يحجب ما قبله كما قيل. ولا شك في أن ما هو وسيط في التاريخ الأوربي هو بالنسبة للإسلام بدايات وتأسيس وتألق في البحر المتوسط وحتى في أوربا ذاتها* "[95]. إذن من نافلة القول أن ليس للمفهومين نفس الدلالة في الثقافتين فشتان بين بداية شيء والقول أنه يتوسط شيء أخر.

علينا أن ننبه القاريء إلى مسألة هامة ألا وهي كيف ظهر التحقيب المتعارف عليه اليوم. لن نبالغ إن قلنا إن التحقيب هو إبتكار القرن السادس عشر. في هذا الصدد، كان التحقيب (la périodisation) والبحث عن الأسباب هو الشغل الشاغل للتاريخ العقلاني وهو نعت أطلقه جورج لوففر على التاريخ السائد في القرن السادس عشر. لقد أماط جورج

[95] محمد، ف.، 2005، ص. 13-14.

لوففر اللثام عن الظروف التاريخية التي إبتكر فيها هذا المصطلح و تلك التقنية " *تحت تأثير الرقي العام للحضارة إهتمت بتمييز و تحديد الحقب الكبرى للتاريخ، العصور الوسطى، النهضة، إلى جانب البحث عن الأسباب العميقة التي أفضت إلى هذه التيارات الكبرى* "[96]. هذه النقطة مهمة في دراستنا التنظير لفكرة التحقيب الذي هو إبتكار غربي محض وبالتالي يمكن أن نفسر تلك القطيعة التي تحدثت عنها الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية والتي تعني بها القطيعة مع الحقبة الإسلامية والقطيعة مع حقب العصور القديمة.

لا يضاهي تجاهل الإسطوغرافيا الإسلامية الكلاسيكية لحقبة العصور القديمة إلا فكرة القطيعة بين حقبتي العصور القديمة والوسطى التي جاء بها المفكر البلجيكي هنري بيران (Pirenne Henri) في كتابه القيم " *محمد وشارلمان* " (Mahomet et Charlemagne)[97]. كانت إشكالية التمييز بين نهاية العصور القديمة وبدايات العصور الوسطى هو الشغل الشاغل للمؤرخ البلجيكي هنري بيران مما جعله يكرس لها أبحاثه. ما يهمنا في أطروحة هنري بيران هو إلحاحه الشديد على فكرة أن للإمبراطورية الرومانية طابع متوسطي " *فشرق المتوسط إغريقي وغربه لاتيني* "[98].

قدم هنري بيران أطروحة جريئة مفادها أن الفتوحات الإسلامية تسببت في غلق الضفة الغربية للبحر الأبيض المتوسط في وجه الملاحة البحرية وبالتالي وضعت حدا لوحدة البحر المتوسط[99]. لقد تأسف هنري بيران على تلك الوضعية وعلق قائلا " *كان التوسع السريع والمفاجيء للإسلام عبارة عن وسيلة عجلت بحدوث قطيعة مع تقاليد العصور القديمة*. (...) *رغم أن بلدان شمال إفريقيا وإسبانيا كانت منضوية تحت لواء الغرب إلا أنها صارت تدور في فلك بغداد. لقد ظهرت هناك ديانة وثقافة جديدة في كل الميادين* "[100]. لقد إستوقفتني هذه الجملة الأخيرة كثيرا كما إستوقفت الكثير من الباحثين لأن مما أثار الإنتباه عند كل دارسي العصور القديمة المتأخرة في بلاد المغرب الكبير هو سرعة زوال الثقافة والديانة

[96] Lefebvre, G., 1971, p.121.
[97] Pirenne, H., 1970, *Mahomet et Charlemagne*, Paris, 218 p.
[98] Pirenne, H., 1970, p. 3.
[99] Pirenne, H., 1970, p. 120-128.
[100] Pirenne, H., 1970, p. 215.

المسيحية مع مجيء الإسلام. فإلى جانب دلالته التاريخية فمصطلح القطيعة الذي إبتكره هنري بيران وروج له مؤرخوا الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية له دلالة أخرى وهي إنقطاع جسور التواصل بين العهد الروماني والحقب التاريخية اللاحقة. في هذا الصدد ألم تصور الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية العصور القديمة في شمال إفريقيا على أنها تعاقب للمحتلين: فنيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون على حد تعبير محمد المبكر[101]. لقد إعتمدت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية على معيارين لتحقيب العصور القديمة في بلاد المغرب الكبير. فالمعيار الأول إثني وعرقي والذي يظهر جليا عند دراستها للعهود الفنيقية والرومانية مثلا أما المعيار الثاني فهو معيار ديني، المسيحية والإسلام. ما يهمنا هنا هو إلحاح تلك الإسطوغرافيا على التأثيرات الأجنبية وتجاهلها لإسهامات العنصر المحلي.

علينا الإقرار أن التحقيب يوجد في صميم الكتابة التاريخية. لقد دعا المؤرخ المغربي هشام عبد الصمد في إطار حديثه عن التحقيب إلى ضرورة تسليط الأضواء على " *نبش وإظهار زمن بربري في ركام الغزوات المتعاقبة* " ولقد أطلق هو الأخر صرخة من أجل إنعتاق التاريخ القديم لبلاد المغرب الكبير[102].

رغم كل ما قيل عن التحقيب في الإسطوغرافيا المغاربية إلا أننا لا يمكن إنكار أننا في صدد الحديث عن إسطوغرافيا دونها الأجنبي فهي موجودة ضمنيا في كتب الإسطوغرافيا الرومانية: بوليب وتيتوس ليفيوس وأبيانوس (Appien) وغيرهم.

---

[101] Almoubaker, M., 2005, « La fin de l'antiquité au Maghreb, ou le Maghreb à la croisé de deux chemins », *La périodisation dans l'écriture de l'histoire du Maghreb. Actes des tables rondes de mai et septembre 2005 Marrakech-Tunis*, Fatma Ben Slimane et Hicham Abdessamad, Rabat, p. 129.

[102] Abdessamad, H., 2005, « La périodisation dans l'écriture de l'histoire du Maghreb. Le bricolage et la patience », *La périodisation dans l'écriture de l'histoire du Maghreb. Actes des tables rondes de mai et septembre 2005 Marrakech-Tunis*, Fatma Ben Slimane et Hicham Abdessamad, Rabat, p. 139.

2- لمحة عن إسطوغرافيا العصور القديمة

إن جذور الإسطوغرافيا تعود إلى العصور القديمة، حيث تعتبر بلاد اليونان الموطن الأول للإسطوغرافيا وبها يرتبط إسما مؤرخين تعدت شهرتهما الأفاق ألا وهما هيرودوت وثوسديد. ظهرت الملامح الأولى للإسطوغرافيا في القرن الخامس قبل الميلاد. كان التاريخ الذي كتبه هيرودوت مزيج بين الإحداث والأساطير ما يجعلنا نميز بين الرواية الشفوية والأحداث المكتوبة. فما هو الفرق بين الذاكرة والتاريخ؟

أ- التاريخ بين الذاكرة و الكتابة

لكي نفهم ماهو الفرق بين الذاكرة والتاريخ من جهة و علاقة ذلك بإسطوغرافيا شمال إفريقيا في العصور القديمة من جهة أخرى كان علينا أن نشرح هل الذاكرة هي مرادف لكلمة التاريخ؟

تدرج الدراسات الأنتروبولوجية الجماعات البشرية التي يصطلح على نعتها ب " البربر " في خانة الثقافات الشفوية. ما يهمنا في هذا الصدد هو تأثير الأساطير والروايات الشفوية على الكتابات التاريخية. وإذا كنا لا نحيد عن القاعدة التي وضعها المؤرخون والتي مفادها: لا تاريخ بدون توفر وثائق، إلا أن هذا لا يمنعنا من الإقرار أن هناك تراث شفوي غني وجد له مكانة في كتب التاريخ. يكفي أن نطلع على تعليق غابريال كامبس على تلك الأساطير القديمة التي نقلها كل من سالوست و بروكوبيوس (Procope) لنتأكد أن أي رواية تاريخية يمكن أن تصبح حقيقة تاريخية إذ كتب معلقا على هذا الموضوع " *فقد كانت الروايات تتداول من أقدم العصور في أوساط العلماء ولدى رواة الأساطير عن أصول سكان شمال إفريقيا* "[103]. ومن الواضح أن كامبس غابريال في صدد الإحالة إلى الأساطير التي رواها سالوستيوس و بروكوبيوس عن أصول " البربر".

ومن البديهيات التي يسلم بها أي مؤرخ هي أنه ليس هناك تاريخ بدون وثائق، وفي هذا الإطار كان شارل أوليفيي كاربونيل محقا حين إعترف بوجود عدة مجتمعات لم تنتج

[103] كامب، غ.، 2014، البربر. ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حيزل، الدار البيضاء، ص. 55.

إسطوغرافيا[104]، لكن عدم وجود إسطوغرافيا لا يعني عدم إهتمام المجتمعات الإنسانية أو الشعوب بالماضي لأن في هذه الحالة تناط بالذاكرة مهمة الحفاظ على وقائع الماضي. ما يعاب على هذا التاريخ هو أنه لم يصل إلينا لأن الذاكرة كانت عرضة للنسيان والإهمال. علينا الإقرار بأن من بين الشروط التي يجب أن تتوفر لدراسة الماضي هو العثور على أثر يمكننا من دراسة عصر من العصور، وما نقصده ب " الأثر " هو تلك الوثائق التي تعود سواء إلى العصر الذي نتناوله بالدراسة أو تكون قريبة زمنيا منه، حيث يطلق في الغالب على ذلك " الأثر " مصطلح" المصادر" [105]. كان كل من لانغلوا (Langlois) وسينيوبوس على صواب حين إعتبرا أن " *كل فكر و كل فعل لم يخلف أثرا (...) يعتبر شيء ضائع بالنسبة للتاريخ* "[106].

يعتبر القرن الخامس قبل الميلاد مرجعية في الدراسات التاريخية والإسطوغرافية وهذا لسبب بسيط يتمثل في أن أولى الدراسات التاريخية، هيرودوت وثوسديد، التي وصلت إلينا تعود إلى هذا العصر، ودون مبالغة، التاريخ هو إنتاج العبقرية الإغريقية. رغم إعتراف جورج لوففر أن الإسطوغرافيا المعاصرة " *بدأت مع عصر النهضة* "[107] إلا أن جذورها التاريخية تعود إلى زمن عتيق حيث يعتبر الرواية (le récit) بمثابة الشكل الأول للتاريخ. إنطلاقا من مقولة " *لا توجد رواية تاريخية بدون وثائق*"[108] يؤكد الكاتب على أن الوقائع التاريخية التي وصلت إلينا هي تلك التي حفظتها الوثائق والنقوش والكتابة، وفي هذا المقام يجدر بنا أن نشير إلى أن مصطلح الوقائع التاريخية هي ترجمتنا ل (Les faits historiques). إنطلاقا من هذه المسلمة يتبنى لوففر أطروحة بديهية فحواها أن جل الوقائع التاريخية التي لم تسجل أو تحفظ كانت عرضة للضياع. الإستثناء الوحيد في هذه الحالة الذي يستحق الذكر هي تلك الوقائع التاريخية التي حفظتها الرواية الشفوية وهنا يعني

[104] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 5.
[105] Offenstadt, N., 2011, p. 24.
[106] Langlois, Ch-V., Seignobos, Ch., 1992, *Introduction aux études historiques*, Paris, p.13.
[107] Lefebvre, G., 1971, p. 36.
[108] Lefebvre, G., 1971, p. 16.

تلك الرواية التي تتحول إلى أساطير، ومن هذا المنطلق يعتبر الشعراء أول المؤرخين[109]. إذن ظهور علم التاريخ مرتبط بالأحوال المادية لكل حضارة من الحضارات وهذا ما يبدو على الوسائل المادية التي توظف في الكتابة التاريخية مثل جلود الحيوانات، ورق البردي والورق. إذا كان شارل أوليفي كاربونيل يسلم بدوره بوجود مجتمعات، حسب قوله، " *لم تنتج إسطوغرافيا* " فأنه يعترف بالمقابل يعترف بعدم وجود مجتمع لا " *يملك معرفة عن ماضيه* "[110]، والكثير من أولائك الذين دلوا بدلوهم في هذا الموضوع ألحوا كثيرا على ضرورة وجود وثائق للحديث عن التاريخ. أما السر من وراء هذا الإلحاح على الوثائق في نظر بينيديتو كروشي (Benedetto Croce)، أحد أشهر المختصين في الميدان، هو أن " *التاريخ غير المرتبط بالوثائق لا يمكن أن نتحقق منه* "[111]، والقاسم المشترك بين جورج لوففر و شارل أوليفي كاربونيل هو تسليمهما بدور الذاكرة في حفظ بعض الوقائع التاريخية و ليس كلها. إذن في هذه الحالة فقدان و ضياع الكثير من الوقائع التاريخية لا يفسر فقط بإنعدام تلك الوسائل التي أشار إليها جورج لوففر بل هناك عامل أخر ألا وهو الذاكرة، حيث يرى جورج لوففر أن الذاكرة انتقائية ولها حرية الإختيار، وفي هذا الصدد يستشهد بمحرري قاموس الأكاديمية الفرنسية الذين عرفوا التاريخ بأنه " *رواية الأشياء الجديرة بالذاكرة* "[112]، وميزة الذاكرة حسب كاربونيل شارل أوليفي هي أنها تهتم بأصول الجماعة وليس بتطورها التاريخي. وما يعيبه على الذاكرة هو هشاشتها، ويلخص ذلك بقوله " *إن تقلبات السياسة تؤثر على الإنسان الذي يميل إلى النسيان الحذر وهذه هي أول أشكال المراجعات التاريخية* "[113]. إنه هنا بصدد الحديث عن النسيان المتعمد، كما ينبغي علينا أن نميز مع جورج لوففر في هذا المستوى من التحليل بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية. إن ما يقصده جورج لوففر ب " الذاكرة الجماعية " هو أن " *الفرد يتعرف على الوقائع التاريخية من خلال الأفراد الآخرين* "[114]، ونستنتج من ذلك أن الذاكرة تعتمد على الأطر

---

[109] Lefebvre, G., 1971, p. 17.
[110] Carbonell, Ch-O., 1986, p.5.
[111] Croce, B., 1968, *Théorie et Histoire de l'Historiographie*, Genève, p. 15.
[112] Lefebvre, G., 1971, p. 18.
[113] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 6.
[114] Lefebvre, G., 1971, p. 19.

التي يوفرها لها المجتمع، ولهذا في الكثير من الأحيان يقع الفرد وحتى المؤرخون في فخ « *المغالطة التاريخية* " وهي ترجمتنا لمصطلح(Anachronisme). لهذا السبب بالتحديد يعتقد الكثير أن بشر اليوم هم نفسهم بشر الزمن الغابر ولا يأخذون بعين الاعتبار صيرورة وتطور التاريخ[115]، ولهذا يقول جورج لوففر بأن الذاكرة تحتفظ في كل عصر بالوقائع التاريخية المهيمنة مثل النبلاء والقساوسة في العصور الوسطى، ومصالح الدول الكبرى في العصور اللاحقة ثم الطبقات الشعبية بعد الثورة الفرنسية[116]. مهما تكن درجة الإطناب بالذاكرة إلا أننا لا يجب أن نتجاهل قاعدة أساسية و هي لا تاريخ دون وثائق على حد تعبير جورج لوففر.

ب- بلاد المغرب الكبير في إسطوغرافيا العصور القديمة

إذا ما إستثنينا كتب سالوست والمؤرخ الذي إنتحل شخصية قيصر فإن تاريخ بلاد المغرب الكبير في العصور القديمة لم يرد إلينا إلا في ثنايا كتب مؤرخين لاتين أمثال ديون كاسيوس (Dion Cassius) وتاكيتوس وبلين (Pline). نحن إزاء مصادر أدبية لا يراودنا أدنى شك في أنها من أمهات الكتب في الإسطوغرافيا الغربية. فما علاقة بلاد المغرب الكبير بتلك الإسطوغرافيا؟

من المسلم به أن تاريخ بلاد المغرب الكبير تناولته بالدراسة أقلام أجنبية لذا لجأنا إلى وضع تلك الإسطوغرافيا في سياقها التاريخي أي علينا أن نوضح كيف سلطت الأضواء على الوقائع التاريخية في بلاد المغرب الكبير كلما كانت البلاد محل أطماع الأجنبي ؟

سواء تناولنا بالدراسة بدايات الإسطوغرافيا في بلاد اليونان ثم تتبعنا خطواتها الأولى في روما، من خلال أطروحة شارل أوليفي كاربونيل[117]، أو تناولناهما بالدراسة معا، من خلال أطروحة بينيديتو كروشي[118]، فإن ما لا غبار عليه هو وجود إسطوغرافيا غربية واضحة المعالم في العصور القديمة، ومن البديهي أن لبلاد اليونان السبق في هذا

[115] Lefebvre, G., 1971, p. 19.
[116] Lefebvre, G., 1971, p. 19.
[117] Carbonell, Ch-O., 1986, pp. 8-28.
[118] Croce, B., 1968, p. 120-131.

المضمار، حيث أنجبت تلك البلاد مؤرخين عبقريين تعدت شهرتهما الأفاق و تركا بصمتها في الكتابة التاريخية. إنهما هيرودوت وثوسديد. رغم البون الشاسع بين هيرودوت و ثوسديد، من حيث المنهجية وأسلوب تناول المواضيع، إلا أنهما خرجا من رحم بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد[119]. كتب دي روميلي (Romilly) معلقا على هذا التباين في مقدمته التي وضعها في كتاب يحتوي مجمل أعمال هيرودوت و ثوسديد " *هيرودوت يحب التاريخ في حين أن ثوسديد يتبصر في التاريخ* "[120]. للأمانة العلمية هيرودوت ذكر المصادر التي إعتمد عليها في كتابه: ما سمعه و ما رآه.

يعتبر هيرودوت، بحق، الحد الفاصل بين عصور طغت عليها الرواية الشفوية والأسطورة وعصور الكتابة والتاريخ. في هذا الصدد ألم يفصح عن سبب كتابته للتاريخ؟ " *الحيلولة دون نسيان مجمل الإنجازات والأعمال الباهرة للتي أنجزها كل من الإغريق والبرابرة* " مثلما أشار إليه في مقدمته[121]. كان لهيرودوت طموح كتاب تاريخ الحروب الميدية بين الفرس والإغريق (490-479 ق.م)،ولا تخلوا أي دراسة من عبارات الثناء على كتاب هيرودوت فهو" تحفة أدبية لا تصنف"على حد تعبير شارل أوليفيي كاربونيل[122]، ومن أشهر عبارات الثناء التي كتبت عن هيرودوت نذكر ما كتبه الخطيب الروماني شيشرون (Ciceron) الذي نعته ب " *أب التاريخ* "[123].

على خلاف هيرودوت، كانت لمسة ثوسديد في الكتابة التاريخية واضحة للعيان " مع *ثوسديد نرى الملامح الأولى للمنهجية والفطنة في كتابة التاريخ: نقد المصادر، و البحث بطريقة عقلانية عن أسباب الوقائع التاريخية* "[124]. إبتكر ثوسديد منهجية للبحث التاريخي تتسم بالموضوعية وهي في نظره كفيلة بالتحقيق من صحة المعلومات حيث عرضه تلك

[119] De Romilly, J., 1964, « Préface », *Hérodote-Thucydide. Œuvres complètes*, Paris, p. IX.
[120] De Romilly, J., 1964, « Préface », p. X.
[121] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 8.
[122] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 8.
[123] Simon, P., 1969, *Histoire et Critique*, Bruxelles, p. 15.
[124] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 10.

المنهجية في كتابه " *إنني عندما أكتب أكون إما شاهد عيان وإما ناقد متأن وشامل للمعلومات التي جمعتها. تتجلى صعوبة هذه المنهجية في توفر عدة شهادات متناقضة عن الواقعة التاريخية و هذا حسب ميولات و ذاكرة الأفراد* "[125].

إنه من الإجحاف أن ننكر القيمة العلمية لمؤلفات مؤرخي العصور القديمة في عصر لم يظهر فيه لا الكتاب ولا الطباعة في حين كان هناك إعتماد مفرط على المخطوطات التي يدونها الناسخون. إن غلاء تلك المخطوطات وندرتها يعطي لنا فكرة عن الجهود التي بذلها أولائك المؤرخون لاقتنائها ومن ثم الاعتماد عليها، وتجد الإشارة إلى أن بعض المؤرخين قد تناولوا الموضوع من زاوية نقدية محضة. فمثلا، ما يعيبه جورج لوففر على كتابات مؤرخي الإغريق والرومان: هيرودوت وثوسديد، القرن الخامس قبل الميلاد، و بوليب، القرن الثاني قبل الميلاد، هو إبتكارهم لخطابات الشخصيات التي يكتبون عنها مما يوحي بتأثرهم بالآداب وفن الخطابة، ويمكن القول عموما بأن هؤولاء المؤرخون لم تتوفر لديهم القواميس، وثائق الأرشيف أو المكتبات لإنجاز أعمالهم[126]. أما المأخذ الثاني على كتابات هيرودوت وتيتوس ليفيوس (Tite-Live)هي كونها كتابات منحازة، تمجد الأمة وتدافع عن المبادئ الاجتماعية والسياسية[127]. لا نريد أن نطيل في هذه النقطة ولكن علينا أن نشير إلى أن نخبة من المؤرخين اللاتين : بوليب وتيتوس ليفيوس و أبيانوس، كان لهم السبق في تناول وتسليط الأضواء على تاريخ بلاد المغرب. مهم يكن من أمر فنحن نتفق مع جان ماري لاسير (Jean-Marie Lassère) حين يصف تلك الثلة من المؤرخين بأنهم كتبوا تاريخ العهد الجمهوري في روما[128].

رغم تلك العراقيل، ظهرت في تلك الحقبة إرهاصات التاريخ المتبحر، وهي ترجمتنا لمصطلح (Histoire érudite)، في مدينتي الإسكندرية وبيرقام (Pergame) في أسيا الصغرى، حيث " *بدأت تتشكل الملامح الأساسية للتاريخ المتبحر وللنقد التاريخي بمعناه*

[125] Simon, P., 1969, p. 16.
[126] Lefebvre, G., 1971, p. 37.
[127] Lefebvre, G., 1971, p. 21.
[128] Lassère, J-M., 2015, Africa, quasi Roma (256 av. J.-C. – 711 ap. J.-C.), Paris, p. 765.

المعاصر. هناك فتحت المكتبات أين يلتقي فريق من المدرسين متفرغين للبحث، أوكلت إليهم مهمة إلقاء الدروس و تكوين التلاميذ "[129]. في زمن لم تتوفر فيه المطبعة عانى هؤولاء " *لنشر نصوصهم و مناهجهم و دفعوا أموالا طائلة لإقتناء تلك المخطوطات، المعرضة لأخطاء الناسخين* "[130].

عرفت الكتابة التاريخية إنحطاطا بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد، وفي هذا السياق يمكن اعتبار أعمال كزينوفون (Xénophone) وبوليب بالشاذة عن القاعدة، بل تعتبر من الأعمال النادرة التي وصلت إلينا[131].أما النزعة السائدة في الدراسات التاريخية في هذه الحقبة فهي الجرأة التي أظهرها المؤرخين للإقتداء بسابقيهم في حين أن فريق منهم إستهوته الدراسات المونوغرافية حول منطقة من مناطق بلاد الإغريق[132]. لقد دافع المؤرخ البلجيكي بيار سيمون (Pierre Simon)، وهو متخصص في الفلسفة، عن الأطروحة نفسها حيث لخص موقفه في هذه الجملة " *بداية من القرن الرابع قبل الميلاد، يبدوا التاريخ تحت تأثير البلاغة متشبعا بالأدب والأخلاق* "[133].

رغم إنتمائها إلى الحضارة نفسها إلا أن الثقافة اللاتينية تأخرت في بلورة إسطوغرافيا خاصة بها حيث ظهرت هذه الأخيرة عشية الحرب البونيقية الثانية، وقد كانت الحوليات أول أشكال الإسطوغرافيا في روما، و إرتبط بها إسم كل من كانكيوس أليمانتوس (Cincus Alimentus) وفابيوس بيكتور (Fabius Pictor) اللذان كتبا مخطوطهما سنة 200 ق.م[134]. كان كاتون الكبير 234-149 ق.م(Caton l'Ancien) همزة وصل بين رواد الحوليات والمؤرخين اللاتينين الكبار: سالوست، قيصر، تيتوس ليفيوس، وتاكيتوس و سويتون، ويعتبر بوليب بالشاذ عن القاعدة من بين كل المؤرخين الذين تعاقبوا في الفترة الممتدة ما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد. لقد كتب عن الفترة الممتدة ما بين 264

[129] Lefebvre, G., 1971, p. 21.
[130] Lefebvre, G., 1971, p. 48.
[131] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 14.
[132] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 15-17.
[133] Salmon, P., 1969, p. 17.
[134] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 19.

و 146 ق.م في 40 كتاب فقد أغلبها فيما بعد، وبهذا لقد أماط بوليب اللثام عن منهجيته حيث يعتمد " *إما عن الوثائق و إما عن البحث والإستقصاء عند كل من عاصر الأحداث* "[135]. علينا أن نشير إلى أن بوليب كان محمي و مصون من طرف عائلة سبيون ولكن هذا لم يمنعه من تبني مبدأ السببية في تفسير الأحداث: لكل سبب نتيجة تعقبه.

لقد دخل التاريخ بعد بوليب في أزمة، ومن الإنصاف القول أن ديدور الصقلي (Diodore de Sicile) وقع في خطأ علمي جسيم كثيرا ما يوصف بالسرقة العلمية، حين وضع كتابه المسمى ب المكتبة التاريخية (Bibliothèque historique)، الذي يحتوي على أربعين كتاب، وخلال هذه الفترة التي عرفت فيها الكتابة التاريخية تراجعا كبيرا أصبح كتابة السير موضة العصر، ومثال ذلك بلوتارك (46-125) الذي وضع كتاب " السير الموازية "[136].

رغم التبجيل والهالة التي أحيطت بالمؤرخين اللاتين إلا أن هذا لم يمنع المؤرخون المعاصرون أمثال جورج لوففر من إظهار ازدرائهم لما كتبه مؤرخو روما الرسميين وهذا ما يظهر من قوله : " *عند الرومان، مادة التاريخ لم تحقق إنجاز يذكر. لقد كان قيصر كاتب مذكرات ونحن متضايقون أن نقول أن مؤلفه حرب غالة لم يقل لنا دائما الحقيقة. أما سالوستيوس فهو مؤرخ براغماتي على غرار ثوسديد وبوليب، لكن كتابيه كاتالينا ويوغرطة هما رواية جزئية ومقسمة* "[137]. لم يحظ أي مؤرخ من مؤرخي العصور القديمة بإعجاب المؤرخين اللاحقين مثلما حظي بذلك تيتوس ليفيوس، ويعبر عن هذا الموقف قول لوففر بقوله عن تيتوس ليفيوس: " *ليس فقط أكبر المؤرخين اللاتين، بل كل العصور القديمة* ". ميزته أنه كتب تاريخ الرومان من البدايات إلى عصره ويتحامل الأدباء الإنسانيون عليه عندما يكتبون أنه كان متأثرا " *بدروس الخطباء* "[138]. لقد أخذت الكتابة التاريخية منحى أخر عند بوليب (122-208) حيث أنه شاهد عيان على انحطاط مدن-الدولة أمام نمو

[135] Salmon, P., 1969, p. 18.
[136] Salmon, P., 1969, p. 19.
[137] Lefebvre, G., 1971, p. 38.
[138] Lefebvre, G., 1971, p. 38.

الممالك الهلينية والجمهورية الرومانية وهو الأمر الذي جعله يجدد الكتابة التاريخية، " *أمام هذا المشهد، يمكن أن نتصور كيف أن بوليب إبتكر التاريخ الجامع* (*Histoire universelle*) ، *تاريخ خاص بالمتحضرين يطابق تاريخ الإمبراطورية الرومانية* "[139]. سواء تعلق الأمر بسالوست،في الدفاع عن العامة، أو بقيصر، في تمجيد نفسه، وحتى تيتوس ليفيوس، في الذود عن الوطن، فإن الكتابة التاريخية كانت منحازة ولكن هذا لا يمنع من إعتبار هؤولاء من أشهر مؤرخي اللاتين[140]. بعد سقوط الجمهورية وقيام الإمبراطورية سطع نجم كل من تاكيتوس وسويتون، وإذا كان الأول أعطى الأولوية للجوانب البسيكولوجية في تحليل الوقائع التاريخية فإن الثاني كان متأثرا بالبيوغرافيا.

دافع شارل أوليفيي كاربونيل عن أطروحة أساسية مفادها أن التاريخ لم يحض بالمكانة نفسها التي حظيت بها العلوم الأخرى مثل الفلسفة والشعر والبلاغة[141]، لكن تمجيد المهتمين بالإسطوغرافيا لنماذج من المؤرخين لم يمنع أفول نجم تلك الإسطوغرافيا بداية من القرن الرابع قبل الميلاد. ونجد ثلاثة إغراءات على حسب تعبير كاربونيل قذفت بإسطوغرافيا العصور القديمة إلى الهاوية:

أ- إغراء البلاغة، هناك خلط بين التاريخ والبلاغة بحيث يعتبر الخطيب التاريخ مطية لإظهار بلاغته؛ **ب-** إغراء السياسة، هو عبارة عن تاريخ ملتزم يدافع عن أراء وأهواء سياسية؛ **ج-** إغراء الأخلاق، الهدف من التاريخ هو إستخلاص دروس وعبر أخلاقية يتعض بها القارئ والمستمع[142].

يتقاسم شارل أوليفيي كاربونيل وجهة النظر نفسها مع جورج لوففر فيما يخص بوليب الذي " *درس التوسع الروماني من 221 إلى 146 ق.م في إطار أوسع ذي أبعاد عالمية* "[143]، أما منهجيته فتهدف إلى إظهار تسلسل الأحداث، والأبعاد البراغماتية للتاريخ والتي

---

[139] Lefebvre, G., 1971, p. 43.
[140] Salmon, P., 1969, p. 19-20.
[141] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 14.
[142] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 16.
[143] Carbonell, Ch-O., 1986, p. 17.

تتمثل في إبراز القواعد والقوانين السياسية والعسكرية، ضف إلى ذلك إقتدائه بثوسديد حيث أخضع مصادره للنقد والتمحيص.

يمكن القول بأن إسطوغرافيا العصور القديمة عالجت عدة مواضيع علق عليها بينيديتو كروس قائلا " *تأملوا على سبيل المثال، مع عدها إذا أمكن، بعض الإشكاليات التي عرضها المؤرخون القدامى : كيف نشبت الحروب بين الإغريق والفرس وكيف توسعت؛ كيف جهز سيروس* (*Cyrus*) *حملة عسكرية لمطاردة ارطاكزيركسس* (*Artaxerxés*)، *كيف نشأت القوة الرومانية في اللاتيوم و كيف توسعت إلى كامل إيطاليا ثم إلى العالم، كيف صار لها الغلبة في البحر المتوسط على حساب قرطاجة؛ إعتمادا على أي مؤسسات سياسية نظمت نفسها كل من أثينا، إسبرطة و روما وماذا عن القلاقل الإجتماعية التي إبتليت بها هذه المدن؛ ماهي طموحات الشعب الأثيني و العامة الرومانية (...) ماهي فضائل و ذخيرة الشعوب التي دخلت غمار الحرب، الأثينيين، الفرس، المقدونيين، الرومان، الغاليين، و الجرمان؛ طبائع أولائك الذين يأخذون زمام الأمور و يقودون شعوبهم أمثال تيمستوكل* (*Thémistocle*)، *بيريكليس* (*Périclès*)، *الإسكندر* (*Alexandre*)، *حنبعل* (*Hannibal*) *و سبيون* (*Scipion*). *كل هذه المسائل أملتها الظروف و التقلبات السياسية على المؤرخين. هذه المسائل كانت وراء إنتاج مجموعة من المصادر الأدبية الكلاسيكية : هيرودوت، ثوسديد، كزينوفون، بوليب، تيت-ليف، وتاكيتوس و آخرون* "[144]. كل هؤولاء المؤرخين يغطون حقبة طويلة تبدأ من القرن الخامس قبل الميلاد وتنتهي مع نهاية العصور القديمة.

رغم أن للإسطوغرافيا اليونانية والرومانية السبق في تناول الأحداث التاريخية لبلاد المغرب الكبير إلا أنها تناولتها في فقرات مختلفة جاءت في طيات الكتب.

ليس الأمر سهلا أن نتتبع كل ما ورد عن بلاد المغرب الكبير في الإسطوغرافيا اللاتنية دون الإستعانة بدراسات متخصصة تناولت الموضوع بإسهاب. وفي هذا الصدد نذكر دراسة جان ماري لاسير (Jean-Marie Lassère) والتي صدرت تحت عنوان "

[144] Croce, B., 1968, p. 122.

إفريقيا، شبيهة روما "[145]، أين خصص دراسة في ملحق الكتاب لتلك المصادر " *مصادر تاريخ إفريقيا* ". ساهم كل مؤرخ في وضع لبنة من لبنات الإسطوغرافيا. فمثلا ديون كاسيوس يفيدنا في فقرة مقتضبة من كتابه بمعلومات حول إعادة تأسيس وبناء مدينة قرطاجة في حين أن المؤرخ وتاكيتوس يكتب بإسهاب عن حرب طاكفاريناس (Takfarinas) في إطار حديثه عن الإمبراطور تيبريوس[146]. من الصعب على أي باحث أن يجد مصدرا أخر لتاريخ بلاد المغرب الكبير بعد عصر بلين الصغير الذي تطرق إلى تاريخ موريتانيا في خضم حملة سيويتونيوس بولينوس (Suetonius Paulinos)[147]. لكن علينا أن نشير إلى أن المصادر الدينية تشكل الإستثناء ويمكن أن نذكر في هذا الإطار كتب تيرتوليانوس (Tertullien) و القديس أوغسطين.

من نافلة القول أن نؤكد أن الإسطوغرافيا الغربية تعترف بدينها لمؤرخي العصور القديمة وهذا رغم إهمال إسطوغرافيا العصور الوسطى لهم، ويكفيهم فخرا أنهم كانوا مرجعية لأخلافهم في عصر النهضة.

V- تصور الإسطوغرافيا الإسلامية للماضي الروماني في بلاد المغرب الكبير

إن القيام بالأبحاث حول الإسطوغرافيا الإسلامية، بمفهوم تاريخ التاريخ وتطور المنهاج والمقاربات، حديث العهد حيث يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشرة[148]، ورغم البون الشاسع بين الشرق والغرب في مجال الدراسات الإسطوغرافية ، إلا أنه لا يمكننا إلا الإقرار بأن للغرب السبق في هذا المضمار. إذا أخذنا معيار الجودة، الإلمام بالموضوع، التحكم في المناهج والنظريات العلمية كمعيار علمي فهناك ثلة من المختصين دلوا بدلوهم في هذا الموضوع المعقد و الشائك: عبد العزيز الدوري و عبد السلام شدادي و عبد الله العروي.

[145] Lassère, J-M., 2015, p. 756-772.
[146] Lassère, J-M., 2015, p. 765.
[147] Lassère, J-M., 2015,
[148] Cheddadi, A., 2004, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire. Émergence et premiers développements de l'historiographie musulmane jusqu'au II/VIII siècle*, Paris, p. 11.

للإحاطة بالموضوع علينا الإحالة إلى أعمالهم التي تعتبر وبحق مرجع معتمد في الموضوع. الكتاب الأول نشر باللغة العربية لمؤلفه الدكتور عبد العزيز الدوري تحت عنوان " *نشأة علم التاريخ عند العرب*" [149]. أما الكتاب الثاني فهو منشور باللغة الفرنسية لمؤلفه عبد السلام شدادي والمعنون ب " *العرب وتملك التاريخ* "،[150] . في حين أن الكتابين الآخرين من تأليف المفكر المغربي عبد الله العروي. غزارة إنتاج هذا الأخير أثرت موضوعنا بدراستين هامتين. نشرت الأولى تحت عنوان " *مفهوم التاريخ* "[151]، في حين أن الثانية تحت عنوان الإسلام و التاريخ [152].

يمكن لنا بلا شك أن نصول ونجول مع هؤولاء في أصول الإسطوغرافيا عند المسلمين ولكن ما يهمنا هو الإجابة عن سؤال بسيط: لماذا تجاهلت الإسطوغرافيا الإسلامية حقبة العصور القديمة المرادف لديها لمصطلح " الجاهلية " ؟

رغم إحتكاك المسلمون بالحضارات الأخرى العريقة، الفرس والرومان والبيزنطيين، إلا أنهم لم يعيروا أدنى إهتمام إلى حضارات من سبقوهم. كان الإعتقاد السائد عندهم ومنذ قرون أن تراث المسلمين المكتوب لا يحتوي في طياته على معارف مرتبطة بعصور غابرة إعتاد الأتقياء من المسلمين أن يطلقوا عليها نعت " *الجاهلية* ". لكن ظهور العلوم المساعدة للتاريخ وخاصة الحفريات دحض تلك المقولة.

إستعان المؤرخون على العموم و علماء الحفريات على الخصوص بالمصادر الأدبية الكلاسيكية، الإغريقية والرومانية، لتحديد مواقع المدن والأثار للتنقيب عليها. ونحن إذن إزاء تجربة أعطت ثمارها لأنها تتيح الفرصة أمام الباحثين لإستخلاص النتائج سواء من النصوص الأدبية أو من الحفريات التي تتيح لنا فرصة إعادة قراءة تلك النصوص من خلال الجديد الذي تقدمه الحفريات. لكن بداية من سبعينيات القرن الماضي ظهرت مقاربة

---

[149] الدوري، ع.ع.، 2000، نشأة علم التاريخ عند العرب، الإمارات العربية المتحدة.

[150] Cheddadi, A., 2004.

[151] العروي، ع، 2006 ، مفهوم التاريخ.

[152] Laroui, A., 1999, Islam et Histoire, paris, p. 163.

جديدة تدعو إلى الإعتماد على المصادر الإسلامية، التاريخ و الجغرافيا، لنستخرج منها معلومات ومادة علمية عن العصور القديمة.

من المهم هنا أن نشير إلى بعض الدراسات التي كان لها السبق في هذا المضمار: بول لويس كومبوزا (Paul-Louis Cambuzat) مؤلف كتاب " *تطور مدن تل إفريقية ما بين القرن السابع والحادي عشر الميلاديين* "[153]، والجزائرية بختى مقرنة عابد التي ناقشت أطروحة دكتوراه بعنوان " *صورة الجزائر القديمة من خلال المصادر العربية في القرون الوسطى* "[154]. للأمانة العلمية علينا أن نشير أن المؤرخة الجزائرية بختى مقرنة عابد إستلهمت أطروحتها من دراسة أخرى ناقشها في فرنسا مؤرخ مغربي ألا وهو أحمد سراج.

في نفس السياق علينا أن نشير إلى أن أطروحة سراج أحمد تخالف الرأي الغالب و الموقف الفكري السائد إلى غاية نهاية القرن العشرين تقريبا والذي مفاده أن الإسطوغرافيا الإسلامية الكلاسيكية تجاهلت حقبة العصور القديمة المرادفة لديها لمصطلح " الجاهلية"[155]. تبنى عالم الأثار سراج أحمد في مقدمة كتابه " صورة موريتانيا الطنجية. الإسطوغرافيا العربية القروسطية و الحقبة القديمة لشمال إفريقيا "، منهجا مغايرا للمنجية المتبعة في الدراسات التاريخية، والمتمثلة في الاعتماد على مصادر قريبة أو معاصرة للفترة التاريخية المدروسة. ما يثير إنتباه المطلع على الصفحات الأولى لمقدمة هذا الكتاب هو ذلك السؤال الجريء الذي يطرحه الكاتب " *هل من الإمكان كتابة تاريخ شمال إفريقيا القديم، لاسيما الخاص بالفترة الرومانية، إعتمادا على مصادر عربية تعود إلى العصور الوسطى* "[156]. يعترف سراج أحمد منذ الوهلة الأولى أن في المجال الدروس ليس للمصادر العربية نفس قيمة المصادر الغربية، ويعود السبب إلى كون بلاد المغرب الكبير قد إمتزجت

---

[153] Cambuzat, P-L., 1986, *L'évolution des cités du Tell en Ifriqîya du VII au Xi siècle*, T1 et T2, Alger.

[154] Mokraenta- Abed, B.,2013, *L'mage de l'Algérie antique au travers des sources arabes du Moyen âge*, 4 tomes, Alger.

[155] Siraj, A., 1995, *L'image de la Tingitane. L'historiographie arabe médiévale et l'antiquité nord-africaine*, Palais Farnèse, 732p.

[156] Siraj, A., 1995, p. 9.

مع حضارة الشرق بحيث " *كادت أن تمح أي أثر للحضارات السابقة* "[157] ، حيث تلتقي هذه الفكرة مع أطروحة " القطيعة " التي عرضها غوتيي. يدافع سراج أحمد عن فكرة و مقاربة جريئة مفادها أننا لا يجب أن نحكم على الإسطوغرافيا الإسلامية الكلاسيكية بأنها تدافع عن فكرة القطيعة بين الحقب التاريخية و يفسر ذلك في هذه الأسطر: " *كل حكم على الإسطوغرافيا العربية الإسلامية حيال الفترة المظلمة للتاريخ المغاربي تبقى تعسفية ما لم تعطى الإشارة لانطلاق الأبحاث الجادة في هذه المسألة* "[158]. يتمثل منهجه في تسليط الأنوار على كيفية الانتقال من حقبة العصور القديمة المتأخرة إلى العصور الوسطى في بلاد المغرب، أما حجته في الاعتماد على المصادر الإسلامية البعيدة زمنيا عن تلك الفترة - وهي وجهة نظر ضعيفة من الناحية المنهجية لمن يدافع عنها- هي وجود إمكانية كتابة " *تاريخ الماضي إنطلاقا من مصادر تاريخية تعطي لنا رواية متأخرة مقارنة بالرواية الموجودة في المصادر المعاصرة للفترة التاريخية المعنية بالأمر*"[159]. لقد أطلق سراج أحمد على هذا النوع من التاريخ تسمية التاريخ المرتد إلى الماضي (Histoire rétrospective)، وميزة هذا التاريخ أنه يتمثل العرب في كتاباتهم. لقد نبغت الإسطوغرافيا العربية الإسلامية في عرض مناطق " *تنتمي إلى الأمة* " و" *متأثرة كثيرا بالثقافة اللاتنية* "[160]. حري بنا القول بأن هذا المنهج يخول لنا العثور على أثار من الماضي خاصة تلك التي أتى ذكرها عند وصف مواقع الحفريات في المصادر خاصة الجزء الذي يتناول الجغرافيا بالدراسة مع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض هذه المواقع تعود إلى العصور القديمة.

لقد لقيت المقاربة التي تبناها أحمد سراج قبولا عند الباحثين ونخص بالذكر هنا المؤرخة الجزائرية بختى مقرنة عابد التي إعتمدت في دراستها للعمران في بلاد المغرب الكبير على تلك المقاربة وتتبعت نمو وتطور المدن من العصور القديمة إلى الحقبة الإسلامية. لسنا في حاجة إلى التذكير أن الباحثة بختى مقرنة عابد درست العمران في

[157] Siraj, A., 1995, p. 10.
[158] Siraj, A., 1995, p. 10.
[159] Siraj, A., 1995, p. 10.
[160] Siraj, A., 1995, p. 11.

مقاطعتي نوميديا وموريتانيا من خلال المصادر الإسلامية[161]. لقد ميزت بختى مقرنة عابد بين نوعين من المدن الإسلامية في بلاد المغرب. أ- المدن التي بنيت بالقرب من مواقع المدن القديمة على غرار مدينة أرزيو. ب- المدن التي شيدت على مواقع المدن القديمة على غرار بجاية والجزائر وسكيكدة.

لسنا بحاجة إلى ذكر أن لتحديد مواقع المدن والآثار القديمة يمكن للعلوم المساعدة للتاريخ وبالخصوص علم الحفريات أن يعتمد على المصادر الأدبية ولو كانت بعيدة عن الفترة المدروسة.

للإسطوغرافيا أو بالأحرى تاريخ التاريخ قصة وسيرة وتاريخ. لن نبالغ إن قلنا إن البدايات والإرهاصات الأولى كانت في الغرب وبالضبط في بلاد اليونان، والإقرار بهذا السبق لا يمنعنا من التأكيد أن لكل بلد وعصر إسطوغرافيته ومدرسته التاريخية.

يعيب القدماء، وحتى المعاصرين، على هيرودوت مزجه بين الأسطورة والتاريخ، لكن رغم أننا نعترف بصواب هذا الرأي إلا أننا لا نلوم " أب التاريخ " على ذلك لأن الكثيرون يمزجون عن قصد أو بدون قصد بين الذاكرة والتاريخ وشتان بين هذا وذاك. الكثيرون في الثقافة الإسلامية يكثرون من الإطراء على التاريخ حين يرددون المقولة المأثورة " التاريخ ذاكرة الشعوب " لكن من جادة الصواب القول أن التاريخ ليس ذاكرة.

لا ينكر أحد بأن التحولات الكبرى في مجال الاسطوغرافيا قد طفت إلى السطح بداية من عصر النهضة وذلك لظهور عدة عوامل مساعدة على ذلك، نذكر منها نقد النصوص، التحقيب الثلاثي ثم الرباعي، العصور القديمة والوسطى والحديثة ثم المعاصرة، الإهتمام بالأحداث على حساب البلاغة والأخلاق. لم تسلم النصوص من النقد والتمحيص الذي مس حتى النصوص الدينية، كما أسهمت الجمعيات العالمة والأبرشيات في الدفع بالتاريخ والإسطوغرافيا خطوات إلى الأمام. في تلك العصور تعددت وتنوعت المواضيع التي تدرسها الإسطوغرافيا ومنها الدولة والإقتصاد والعملة والثقافة. لقد أدى أيضا إنتشار التعليم

[161] Mokraenta-Abed, B., 2013, p. 2025.

و بناء الجامعات إلى إكتمال ملامح علم التاريخ والاسطوغرافيا وأصبح التاريخ يدرس للتلاميذ والطلبة.

يمكن القول في الأخير أن ميلاد علم التاريخ قد إرتبط بأسماء لامعة ومؤلفات ذائعة الصيت من أمثال فولتير وميشلي وجيبون الذين خلفوا مؤلفات تدرس إلى يومنا هذا. أما الحديث عن الإسطوغرافيا فيبقى، رغم كل التوضيحات التي يمكن تقديمها، مرتعا خصبا للتحاقن السياسي والايديولوجي وهو ما حاولنا تجاوزه ،إلى مقاربة أكادمية، في بحثنا هذا.

الفصل الثاني

الممارسة الإسطوغرافية في الجزائر خلال العهد الفرنسي (1837-1930)

على نقيض الحملة الفرنسية (1798) على مصر التي رافقها جيش من العلماء والمترجمين، والتي إصطحبت معها مطبعتين، بالحرفين اللاتيني والعربي، كانت الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 قفزة في المجهول، ويعبر عن ذلك جان كلود فاتان بقوله " *في البدء ساد المجهول، فالجزائر لا وجود لها إلا في مخيلة الغازي وعلى نحو أكثر إبتذالا لا توجد إلا بوصفها قطرا تركيا جديرا بأن يستولى عليه* "[1]. وحتى المغرب الأقصى الذي وضع تحت الوصاية الفرنسية سنة 1911 لم يكن أحسن حالا من الجزائر، فحاله مثل حال الجزائر فقد كتب الأنتروبولوجي المغربي حسن رشيك معلقا على وضع الدراسات الأنتروبولوجية الفرنسية في المغرب الأقصى " *عند نهاية القرن التاسع عشر، صور الأوروبيون المغرب الأقصى على أنه بلد مجهول، غامض و منغلق. وفي هذه المرحلة إمتزجت معرفة المغرب الأقصى مع إستكشافه* "[2].

نجد هذه الصورة النمطية حتى في الكتاب المدرسي. لقد كرر المعلمون على مسامع أجيال من التلاميذ سواء في الجزائر أو فرنسا أن الغزو الفرنسي للجزائر كان رد فعل على حادثة المروحة. لقد تبددت فلول المقاومين الجزائريين بعد معركة سطاوالي[3] والذي أعقبه مباشرة التوقيع على معاهدة الاستسلام في 5 جويلية 1830 وإجلاء القصبة من طرف الداي، وبعد يومين من ذلك فتح الباب أمام حملة غزو طويلة، شاقة ومتوحشة 1830-1870.

لم تنحصر مهمة الجيش الفرنسي في غزو البلاد وإخماد الثورات بل تعد الأمر ذلك إلى الإضطلاع بمهام علمية، إذ مع حلول عام 1837 قامت وزارة الحرب كما تسمى آنذاك بتأسيس ما يسمى بلجنة الاستكشاف العلمي للجزائر وهي فرصة إستغلها ضباط فرنسيون مغمورون لإبراز مواهبهم: بليسيي (Pélissier) وكاريت (Carette)[4]. لقد خلد هؤلاء الضباط أسمائهم في ميادين شتى مثل علم الاجتماع، والتاريخ واللسانيات.

---

[1] لوكا، ف.، فاتان، ج. ك.، 2002، *جزائر الأنتروبولوجيين. نقد السوسيولوجيا الكولونيالية*، الجزائر، ص. 7.

[2] Rachik, H., 2012, *Le proche et le lointain. Un siècle d'anthropologie au Maroc*, Marseille, p. 23.

[3] Stora, B., 1996, *Histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954*, Alger, p. 17.

[4] Stora, B., 1996, p. 18.

لا يخفى على أحد أن الوضع القانوني للجزائر التي صنفت في خانة مستعمرة إستيطان واستغلال ، صار أكثر تعقيدا بعدما ضمت إلى " الوطن الأم "، فرنسا، بعد دستور 1848. إن حروب الغزو وتسلل الاقتصاد الرأسمالي إلى الجزائر هي عوامل كفيلة بتحطيم المجتمع الجزائري التقليدي، كما لا يجب أن ننسى أن الغالبية الساحقة من الجزائريين كانت تعيش في الأرياف، وقد مس التغير التركيبة الإجتماعية للجزائر.

ترافق الغزو والاحتلال مع إرساء مشاريع إستيطانية في الجزائر، لكن رغم توافد المعمرين الفرنسيين على البلاد إلا أن الإحصائيات كانت تميل إلى العنصر المحلي. لهذا فقد دق ناقوس الخطر منذ نهاية القرن التاسع عشر حول " *الثقل الديموغرافي للأهالي* " الذي رجح للأهالي على حساب العنصر الأوربي، وفي هذه الظروف تشكل وعي عند أوربيي الجزائر على أنهم ينتمون إلى حضارة مسيحية-لاتينية في حين بحثوا في التاريخ عن جذور للأمة الجزائرية تتنافى مع الآخر، العربي والمسلم، حيث " *كان لا بد من مشروع يتولاه المثقفون، يشجع على إنصهار جميع الإسهامات apports من البحر المتوسط الغربي، الفرنسي والإيطالي والإسباني، وكان بعث الثقافة اللاتينية جاء في الوقت المناسب ليعيد ربط الصلة – بمعزل عن " قرون الإسلام المظلمة "- مع الفاتحين الرومان الذين يعدون مستعمرين نموذجيين، و في هذا الباب، كان ترميم الآثار القديمة و بعث الكتابات اللاتينية و فتح حملات الحفر بمثابة رد إفريقيا الشمالية إلى لاتينيتها الأصيلة، غير أن الدلالة الأساسية لهذا المسعى هو منح شجرة أنساب لهذه الفسيفساء الجزائرية، كما يعني إحلال سلف أسطوري مشترك جدير بالحلم الذي أمن به لويس برتران، محل الأسلاف الحقيقيين* "[5]، ويمكن القول بأن تسخير العلم لإحياء أسطورة الجزائر اللاتينية والمسيحية هي غاية أعمال مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.

I- الممارسة الإسطوغرافية الفرنسية بالجزائر: مساهمة الأفراد و المؤسسات

[5] لوكا، ف.، فاتان، ج. ك.، 2002، ص. 36.

قبل أن نتناول بالدراسة إرهاصات الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية بالجزائر من خلال التطرق إلى الممارسة الإسطوغرافية، علينا أن نشير إلى أن تلك الإسطوغرافيا ربطت إحتلال فرنسا للجزائر بالغزاة السابقين: فينيقيين و رومان ووندال و عرب و أتراك.

تاريخيا، تشكل القطر الجزائري في قلب بلاد المغرب الكبير أو بالأحرى ما كان يطلق عليه إسم " المغرب الأوسط "، وميزة تلك المنطقة على حد تعبير المؤرخ محمد حربي هو أنها " *قد غيرت عدة مرات معالمها إلى درجة أنها في كل مرة، تستبدل حكامها وتغير تسميتها.إن كل مملكة ترى النور في المغرب الأوسط هي عبارة عن ثمرة غزو* "[6]. أحدثت ظاهرتي التعريب والأسلمة قطيعة مع الحقبة الرومانية والبيزنطية، ولكن هذا لم يمنع المؤرخين المسلمين الذين تناولوا بلاد المغرب بالدراسة من إعتبارها " *مجال ومنطقة نفوذ البربر* "[7]

وفي البداية علينا أن نقوم بتحديد المصطلحات فالممارسة الإسطوغرافية تشمل المؤسسات العلمية و البحث وسياسات ومواضيع البحث والنشر والتعليم. لا يمكن بأي حال من الأحوال لدارس حقبة العصور القديمة في بلاد المغرب الكبير إلا أن يقف حائرا أمام ذلك الكم الهائل من الإنتاج المعرفي الذي كتب ونشر باللغة الفرنسية. لن نبالغ إذا قلنا مع عالم السياسة الفرنسي جان كلود فاتان أن هذه البديهية لا يمكن دحضها ولهذا أطلق صرخة مدوية " *إن تاريخ الجزائر كتب أولا وقبل كل شيء من طرف الفرنسيين* "[8]. إذا كانت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية تملك حصة الأسد من ذلك الإنتاج المعرفي فهذا يجعلنا نتساءل عن الظروف التاريخية التي نشأت فيها تلك الإسطوغرافيا وهل كانت هناك ممارسة إسطوغرافية قبل نشأة مدرسة الجزائر التاريخية التي إحتكرت الميدان فيما بعد؟

في البداية علينا أن نعترف أن هناك صراع كبير في الأوساط الأكاديمية في أوربا بين الألمان و الإيطاليين والفرنسيين حول من يحوز السبق في مضمار دراسات العصور القديمة وخاصة في ميدان علم النقوش اللاتنية. لقد كانت فرنسا متخلفة في مجال علم

[6] Harbi, M., 2009, 1954, *La guerre commence en Algérie*, Alger, p., 99.
[7] Harbi, M., 2009, p. 99.
[8] Vatin, J-Cl., 2010, *L'Algérie politique : histoire et société*, Alger, p. 17.

النقوش إذا ما قورنت بإيطاليا و ألمانيا[9]. لا يفوتنا أن نشير إلى أن إحتلال فرنسا للجزائر فتح أفاقا جديدة وكبيرة لدراسات العصور القديمة عموما ولعلم النقوش اللاتنية على الخصوص. ولقد إحتلت مدينة الجزائر سنة 1830 في أوج المنافسة العلمية بين علماء النقوش الألمان والفرنسيين. ما يهمنا في هذا الصدد هو أن إحتلال مدينة الجزائر فتح أعين علماء النقوش في كامل أرجاء أوربا حول ضرورة إنجاز " *مدونة عامة للنقوش اللاتنية* "[10]. لم يكن علماء النقوش والمؤرخين يجهلون أن بلاد المغرب الكبير كان تحت سيطرة روما فهي إذن تحتوي على نقوش سوف تثري المدونات الموجودة في إيطاليا وغالة وأوربا. يمكن القول بصفة عامة أن علماء النقوش اللاتنية في أوربا خلال القرن التاسع عشر كانت لديهم رغبة ملحة في تنسيق جهودهم للدفع بعجلة البحث العلمي الأكاديمي خطوات إلى الأمام وفي هذا الإطار أسسوا معهد المراسلات الأركيولوجية في روما سنة 1829.

تبلورت في أحضان معهد المراسلات الأركيولوجية فكرة إعداد ونشر مدونة للنقوش اللاتنية وقد أخذ زمام المبادرة العلماء الألمان والإيطاليين في حين أن العلماء الفرنسيين تجاهلهم المشروع. لقد إنقلبت الأمور رأس على عقب في خضم إحتلال الجزائر خاصة بعد تأسيس لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر في 14 أوت 1837 والتي كانت تضم في صفوفها عسكريين ومدنيين. كانت لجنة الإستكشاف العلمي تصب إلى تحقيق جملة من الأهداف لعل أهمها هو جمع " *كل الوثائق و النقوش و التحف الفنية و الأشياء القديمة* "[11]. أليس من الطبيعي أن توكل مهمة جمع النقوش إلى العسكريين و الجمعيات العالمة. كانت الظروف مهيأة في ظل إنعدام مؤسسات جامعية بالجزائر لبروز شخصيات مغمورة تركت بصمتها

[9] Gran-Aymerich, E, 2011, « Épigraphie française et allemande au Maghreb. Entre collaboration et rivalité (*1830-1914*) », *Bullettino Dell'istituto Archeologico Germanico Sezione Romana*, Volume 117, Schnell-Steiner, p.568.
[10] Gran-Aymerich, E, 2011, p. 567.
[11] Gran-Aymerich, E, 2011, p. 573.

في إختصاص الحفريات والنقوش ونخص بالذكر هنا الرائد دولامار والذي عين في تلك اللجنة بصفته رسام أوكلت إليه مهمة رسم النقوش و الآثار التي يتعذر نقلها إلى فرنسا[12].

على غرار حملة نابليون على مصر التي نشرت كتاب قيم " وصف مصر "، فإن الحملة الفرنسية على الجزائر حملت في طياتها مشروع علمي تجسد في لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر التي إستعانت بإختصاصات متعددة مثل علم النبات، الفيزياء، الجيولوجية و علم الحفريات. من المهم هنا أن نشير أن عمل اللجنة إستغرق ثلاث سنوات (1839-1842) في حين أن عملية نشر أعمال و نتائج بحوث تلك اللجنة إمتد من 1844 إلى 1867 أي لأكثر من عشرين سنة. ومجمل القول أن لجنة الإستكشاف العلمي كانت تضم عشرة عسكريين وإحدى عشر مدني الذين كان لهم شرف نشر 37 مجلدا[13]. لقد نالت مادتي التاريخ و علم الحفريات حصة الأسد مما نشر بحيث خصص 16 مجلدا للتاريخ و3 مجلدات للحفريات. ولكننا نعلم أن كل ما كتبه أعضاء اللجنة حول الحفريات لم ينشر كله إلا بعد أن تكفل ستيفان قزال بهذه المهمة عام 1912[14].

رغم أن فرنسا وعلماء الحفريات كانوا يملكون الأفضلية لإنجاز مدونة للنقوش اللاتنية وهذا بفضل النقوش الجديدة و الكثيرة التي عثر عليها في كامل بلاد المغرب الكبير إلا أن الفضل في إنجاز هذا العمل يعود إلى المؤرخ الألماني تيودور مومسن الذي نشر مدونة للنقوش اللاتنية وهذا حين إستعان بكل ما تزخر به أوربا من علماء حفريات. لقد شارك من الجانب الفرنسي وعن مضض أحد أشهر علماء الحفريات ألا وهو نويل دي فرجي (Noèl des Vergers) الذي ساهم في كل ما يخص بمدونات النقوش الخاصة بغالة وبلاد المغرب الكبير. ونعلم أن الفرنسيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الفشل الذريع الذي منيوا به أمام الألمان بل تظافرت جهودهم من أجل إعداد ونشر مدونة للنقوش اللاتنية

[12] Dondin-Paye, M., p. 14-15.
[13] Nordman, D., 2008, « Exploration scientifique de l'Algérie », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 367.
[14] Nordman, D., 2008, p. 338.

الخاصة بغالة. في هذا الإطار لمع نجم عالم الحفريات الفرنسي ليون رونيي* الذي جمع أكثر من 4000 نقيشة في الجزائر وإليه يعود الفضل في نشر أول مدونة فرنسية للنقوش اللاتنية[15].

لم يتبادر إلى ذهن مختصي العصور القديمة وعلماء النقوش الفرنسيين أن إحتلال الجزائر سيعطي دفعا كبيرا لعلم النقوش بحيث بادر الفرنسيون إلى تأسيس المدرسة الفرنسية لروما سنة 1871 والتي تهتم بكل ما يتعلق بالنقوش وبتاريخ العصور القديمة. إذا لمسنا خلال بحثنا إهتمام علماء النقوش بكل ما يرتبط من بعيد أو من قريب بالثقافة و الحضارة اللاتنية فهذا لم يمنع العلماء الفرنسيين بتجسيد مشروع طموح يتمثل في إعداد مدونة للنقوش السامية: النقوش الفينيقية و البونيقية[16].

إحتكرت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية ميدان البحث العلمي والإنتاج المعرفي وكان يجب إنتظار قرن من الزمن لكي ترى الإسطوغرافيا الوطنية الجزائرية النور مع مبارك الميلي وتوفيق المدني ومحمد شريف ساحلي.

كان عالم السياسة الفرنسي جان كلود فاتان على صواب حين ميز بين إتجاهين في الإسطوغرافيا الفرنسية إحتكرا دراسات التاريخ الغابر للجزائر: علماء القرون الوسطى وعلماء العصور القديمة. ليس من قبيل المبالغة أن يتصور دارس التاريخ القديم أن إهتمام التاريخ الجامعي بتلك الفترة منصفا بل يلاحظ هيمنة الدراسات حول الفترة الرومانية التي

* رونيي ليون (1809-1895): عالم نقوش فرنسي مختص بمنطقة شمال إفريقيا. كان رونيي ليون ملما بأعمال لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر وولعه بالحفريات والنقوش جعله يتحصل على دعم من وزارة الدفاع الفرنسي بحيث شكل بعثة حظيت بدعم الرائد دولامار. تمكن رونيي ليون من جمع عدد كبير من النقوش ما بين 1850 و 1853 مما جعله ينشر كتاب رائد في الموضوع النقوش الرومانية في الجزائر و توليفة من الحفريات. لن نبالغ إن قلنا أن هاذين العملين خولا له أن يتبوأ مكانة مرموقة بين نظراءه من علماء الحفريات الألمان والإيطاليين.

[15] Gran-Aymerich, E, 2011, p. 580.

[16] Gran-Aymerich, E, 2011, p. 587.

تكفل بها علماء ذائعي الصيت: كانيا وألبرتيني[17]. من الواضح جليا أن هؤولاء المؤرخين حرصوا على ربط جسور التواصل بين العهد الفرنسي والعهد الروماني.

ما يعاب على الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية هو إهتمامها الكبير بالعنصر والحضارة الرومانية وتجاهلها للعنصر والحضارة المحلية. إذا كان شارل أندري جوليان دحض مقولة " *العصور المظلمة لبلاد المغرب* " حين أعاد الإعتبار للفترة الإسلامية، فإن ستيفان قزال سلط الأضواء على مرحلة ما قبل مجيء الرومان[18]. من الممكن للقارىء أن يميز بين ما كتب قبل قزال و جوليان حيث لم يعتبر المغاربة فاعلين تاريخيين في حين أن هاذين الأخيرين أعادا الإعتبار للمغاربة حين سلطوا الأضواء على دورهم في مسرح التاريخ.

بعد هذه السطور يمكن أن نطرح تساؤل ذي مغزى عميق: ما علاقة تلك الإسطوغرافيا بالإستشراق؟

II- الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية والإستشراق الفرنسي

علينا أن نشير من الوهلة الأولى أننا لم نتناول الإستشراق الفرنسي بالدراسة لكي نميز بينه وبين الإستشراق الإنجليزي أو الروسي أو الأمريكي ولكن لكي نسلط الأضواء على العلاقة المتينة التي تربطه بالإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.

رغم إنبهار الفرنسيين بالشرق إلا أن بلاد المغرب الكبير قد حظيت عندهم بنصيب كبير من الإهتمام في أعمالهم. و إن أسماء جاك بيرك (Jacques Berque)، وإيدموند دوتي (Edmond Doutté)، وروبرت مونتاني (Robert Montagne) ولاوست إميل (Laoust Emile) قد بقيت مرتبطة بالإستشراق الفرنسي في بلاد المغرب الكبير. لقد كان

[17] Vatin, J-Cl., 2010, p. 26.
[18] Vatin, J-Cl., 2010, p.26-41.

عالم الإجتماع المغربي يونس لوكيلي على جادة الصواب حين أشار إلى أن سوسيولوجيا الإسلام التي ظهرت بعد الاستقلال ما هي إلا إمتدادا للإستشراق[19].

قبل إحتلال الجزائر كانت المعارف التي يمتلكها الفرنسيون عن الجزائر ضئيلة بحيث يمكن حصرها في أعمال جون ليون الإفريقي، في كتابه " *وصف إفريقيا* "، و التي يضاف إليها بعض روايات الأسفار التي كتبها الرحالة الإنجليز والفرنسيين*. و تجدر الإشارة إلى أن ابن خلدون كان مجهولا في تلك الفترة.

كان لتأسيس مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة 1796 ولمديرها الأول سيلفستر دي ساسي (Silvestre de Sacy) ومن ورائه علم فقه اللغة (La philologie) تأثيرا عظيما على الإستشراق و الدراسات الشرقية، حيث كان تأثيره جليا على قوافل من الأساتذة ورجال الدين و الإداريين و علماء اللغة. كان التبادل الثقافي بين الأبرشيات المسيحية ومسيحيي لبنان وسوريا عظيما[20]، وقد بقي معظم مؤرخي القرن التاسع عشر تحت تأثير النظريات العرقية، فهم يؤمنون بتفوق جنس على آخر. لقد إنصب إهتمام الباحثين على فهم طبائع الشعوب وهي فكرة راسخة في أذهانهم، و" *لقد عثر الأنتروبولوجيون والمستشرقون على ضالتهم في مفهوم الطبائع الذي يتيح لهم القيام بوصف الشعوب و بالتالي تعميم نتائج أبحاثهم* "[21]، حيث طبقوا نتائج أبحاثهم في أوربا على المغاربة والمسلمين، ووفقا لهذه النظرية فسكان جزيرة كريت كانوا كاذبين، أما الهولنديين فكانوا مهرة في حين أن الألمان كانوا مثابرين.

إن اهتمام فرنسا باستكشاف بلاد المغرب الكبير بات واضحا للعيان خاصة بعد تأسيس البعثة العلمية للمغرب الأقصى سنة 1903 والتي أسست مجلات خاصة بها على غرار *الأرشيف المغربي* و*مجلة العالم الإسلامي*. إهتم الإستشراق الفرنسي بعدة مواضيع مثل

---

[19] لوكيلي، ي.، 2013، *سوسيولوجيا الإسلام المغربي. نظرات في حصيلة الأرشيف الفرنسي 1900-1930*، الجزء الأول، الدار البيضاء، ص. 7.

* من أهم كتاب الرحلات نذكر على سبيل المثال لا الحصر: توماس شو (Thomas Shaw) و وليام شالر (William Shaler) و هابنسترايت (Hebenstreit).

[20] Vermeren, P., 2012, p. 25.

[21] Rachik, H., 2012, p. 7.

الدين الذي تخصص فيه إدموند دوتي ومقالاته الشهيرة " *ملاحظات حول الإسلام المغاربي : الأولياء* "، وكتاب " السحر والدين في إفريقيا الشمالية "[22]، وكذلك ألفريد بال ودراسته الغنية عن كل تعريف " *الجازية: أغنية عربية من خلال ملاحظات حول بعض الأساطير العربية وسلوكات بني هلال* "، الذي يضاف إليه " *الدين الإسلامي في بلاد البربر* "[23]، وهنري باسي في كتاب بعنوان مقال حول " الأدب البربري "[24].

تزامنت إرهاصات الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية في الجزائر مع العصر الذهبي للإستشراق الفرنسي. نعتقد أن المثقف والمفكر الأمريكي ذو الأصول الفلسطينية إدوارد سعيد* (E.W.Saïd) قد كان على حق حين إعتبر باريس عاصمة للإستشراق، وهو هنا يحيلنا إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر[25]. تعتبر بلاد " *دار الإسلام*" حالة شاذة في كامل بلاد الشرق وهنا نتفق مع إدوارد سعيد حين يلح على ملاحظة بديهية مفادها أن معظم بلاد الشرق، بإستثناء دار الإسلام، كانت خاضعة بصفة شبه دائمة للغرب[26]. من حقنا إذن أن نربط بين السيطرة الأجنبية وبزوغ الدراسات والإنتاج المعرفي عن الشرق؛ ألم تأثر قراءات نابليون بونابرت عن الشرق على قراره بالقيام بحملته على مصر[27]؟. الحقيقة تقال، إن ما حققته تلك الحملة على الصعيد العلمي والمعرفي لا يضاهيه أي إنجاز أخر سواء تعلق الأمر بالجانب السياسي أو بالجانب العسكري.

---

[22] لوكيلي، ي.، 2013، ص. 53-69.

[23] لوكيلي، ي.، 2013، ص ، 71-93.

[24] لوكيلي، ي,، 2013، ص ، 95-103.

* إدوارد سعيد مثقف أمريكي ذي أصول فلسطينية، ولد بالقدس سنة 1935 و توفي في نيويورك في سبتمبر عام 2003. يعتبر كتابه الإستشراق كتاب مؤسس لدراسات ما بعد الإستعمار. لقد هاجر عام 1951 إلى الولايات المتحدة الأمريكية أين واصل دراساته العليا قبل أن يلتحق بجامعة كولومبيا أين كان يدرس الأدب المقارن. رغم كونه مثقفا ملتزما إتجاه القضية الفلسطينية فهذا لم يمنع من الإنتاج و نشر أكثر من عشرين كتاب أشهرها الإستشراق و الثقافة و الإمبريالية. كتابه " الإستشراق " كان له الفضل في إماطة اللثام على " *إيديولوجية الإستشراق الأوربي*".

[25] Édouard, W. S., 2014, *L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident*, Paris, p. 107.

[26] Édouard, W. S., 2014, p. 142.

[27] Édouard, W. S, 2003, p. 152-153.

يعتبر " معهد مصر" (*Institut d'Égypte*) الذي أنشأه ملهما ومؤطرا لكل الدراسات حول كل الموضوعات المتعلقة بمصر ومن ورائها كل الشرق. في هذا الصدد كتب إدوارد سعيد معلقا على تلك الحملة مايلي: " *حملة نابليون على مصر، في 1798، وغارته على سوريا كان لهما انعكاسات كبيرة على تاريخ الإستشراق الحديث*"[28]. يعتبر كتاب " *وصف مصر*" *(La description de l'Égypte)*) (1809-1821) من أهم ما نشر في العصر الحديث عن الشرق الذي استخدمت عدة مصطلحات للإحالة إليه مثل شرقي المتوسط (Le Levant)، الأقاليم التوراتية (les pays bibliques) .

لا يمكن تجاهل " تأثيرات " حملة مصر على الإستشراق الفرنسي عند تطرقنا إلى مكانة الجزائر في التاريخ الفرنسي، حيث يرى بعض الدراسين أن" *الاستيلاء على الجزائر* " لم يكن سوى " *إمتداد لحملة مصر* "[29]، وعلى غرار ما كان عليه الحال في مصر، أقدم الجنرال الفرنسي برنارد على تأسيس لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر [30] في 14 أوت سنة 1837. السؤال الذي يطرح بإلحاح هو : ما هو مضمون ومحتوى هذه الدراسات؟. على غرار معهد مصر أصدرت تلك اللجنة خلاصة أعمالها التي عبر عنها جون كلود فاتان في كتاب مختص قائلا " *بعد مرور عقد من الزمن على نزول الجيوش (...) أقدمت الحكومة على تحقيق enquête واسع النطاق، وقد تم جمع معطيات في قرابة أربعين مجلدا بين 1844 و 1867، و قد إضطلع العسكريون بنصيبهم في هذا التحري، وكان على رأسهم كاريت وبوليسيي Carette et Pelissier ، وقد إستدعيت التخصصات والعلوم*

---

[28] Edouard W. S, 2003, p.146.

[29] Vermeren, P., 2012, Misère de l'historiographie du « Maghreb » post-colonial 1962-2012, Paris, p.21.

[30] لتفاصيل أكثر حول الموضوع نحيل القارئ إلى المرجع التالي: Dondin, M., 1994, La Commission d'Algérie : une héritière méconnue de la commission d'Égypte, Paris.

كالتاريخ و الجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمينة ما أمكن عن الأخر أي هذا العربي أو هذا البربري بما أنهم ينكرون عليه أي تسمية أخرى"[31].

إن تأسيس وتكوين كراسي لدراسة اللغات الشرقية إلى جانب الجمعيات العالمة هي إحدى السمات التي رافقت الدراسات الإستشراقية، فأطروحة مونيك دوندان ترى أن لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر ماهي إلا وريثة لمعهد مصر وكتاب " وصف مصر" اللذين كانا مصدر إلهام للساسة الفرنسيين في الجزائر. مهما يكن من أمر فإننا يجب أن ننتظر بدايات الإمبراطورية الثانية (Le second Empire) (1852-1870) لنشهد تأسيس جمعية علمية "*الجمعية التاريخية الجزائرية*" (*La société historique Algérienne*) التي أسست مجلة ذائعة الصيت وهي المجلة الإفريقية* ، سنة 1856. إن الحديث عن تلك الجمعيات العالمة لا يجب أن ينسينا أن للإستشراق الفرنسي أيضا مؤسساته العلمية المرموقة مثل " مدرسة اللغات الشرقية " التي يعتبر سيلفستر دو ساسي(1809-1821) من أشهر روادها، كونه متمكن من اللغة العربية ومكلف بكرسي اللغة العربية[32].

في صدد حديثه عن الإسطوغرافيا في ضفتي المتوسط إستعمل المؤرخ الفرنسي بيار فيرميران كلمة " الميراث "[33]، والمقصود بالميراث هو كل ذلك الإنتاج المعرفي المبتكر خلال عهد الهيمنة الإستعمارية الفرنسية في الجزائر، والسؤال الذي يتبادر إلى ذهننا بإلحاح هو: كيف نشأت تلك المعرفة؟. الحق يقال، لا يمكننا أن نتناول الإسطوغرافيا في الحوض الجنوبي للبحر المتوسط دون التطرق إلى ما يسمى بالإستشراق.

من بين كل من أسهم في دراسة الإستشراق، يحتل المفكر إدوارد سعيد[34] مكانة لا يرقى إليها أي دارس أخر، حيث تعتبر دراسته النقدية للإستشراق أحسن دراسة حول

---

[31] فاتان، ج. ك، و لوكا، ف.، 2002، *جزائر الأنثروبولوجيين. نقد السوسيولوجيا الكولونيالية*. ترجمة محمد يحياتن، بشير بولفراق و وردة لبنان، الجزائر ، ص.10.

* بدأت إصدارات المجلة الإفريقية سنة 1856 و إستمرت في الصدور إلى غاية سنة 1961.

[32] Vermeren, P., 1994, p. 24.

[33] Vermeren, P., 2011, *L'historiographie des deux côtés de la Méditerranée, Histoire et politique*, Paris, p. 3.

[34] Édouard, W. S., 2014.

الموضوع. يجب أن نميز منهجيا في تقدير إدوارد سعيد بين الشرق كنطاق جغرافي وبين شرق تخيلي أنتجه الإستشراق.

كان المؤرخ الجزائري محفوظ قداش [35] قاسيا عندما وصف نخبة من المؤرخين والجغرافيين الفرنسيين ب " الأنبياء المزيفين"، (Les faux prophètes) ، وقد كان هذا الإزدراء سائدا عند المثقفين المغاربة عموما وعند المناضلين الوطنيين المعادين للإستعمار خصوصا. لقد وضع على رأس قائمة هؤولاء غوتيي، ولكن ما يهمنا في هذا المقام هو الحديث عن ذلك الإنتاج المعرفي وموضوعه.

إحصائيا، أخذت حقبة العصور القديمة حصة الأسد من الدراسات التاريخية، حيث إستخلص بيار فيرميران أن من بين 64 أطروحة تاريخ نوقشت بجامعة الجزائر، 22 منها إهتمت بالعهد الروماني[36]، وقد إهتمت الجمعيات العالمة التي تأسست في الجزائر ب " *الثقافة الإسلامية* " بحيث قدمت للإستشراق الفرنسي أشهر أقلامه من أمثال شيربونو وفيرو بال (Féraud Bel)، والإخوة مارسي (Marçais).

قدم لنا المثقف اليساري إدوارد سعيد تعريفين للإستشراق، فالتعريف الأول الذي تبادر إلى ذهنه وإلى ذهن القارئ هو تعريف أكاديمي مرتبط بالمؤسسة الجامعية : *المستشرق كل شخص يعلم، يكتب أو يقوم بأبحاث حول الشرق*"[37]. بعد تقديمه لهذا التعريف أحصى إدوارد سعيد أربعة نماذج حسب الإختصاص لمستشرقين إحتكروا تقريبا الدراسات الخاصة بالإستشراق: الإثنولوجي، السوسيولوجي، المؤرخ والفيلولوجي.

ما يهمنا أكثر في هذا المقام هو التعريف الثاني الذي يركز على التمييز بين " *الشرق* " و" *الغرب*"، حيث تكمن أهمية هذا التمييز في أن أجيال من المفكرين، الإداريين ورجال السياسة بنوا نظريات متعلقة بالشرق، وشعوبه، وعاداته وروحه إنطلاقا من هذا التمييز[38].

---

[35] Kaddache, M., 1993, *Histoire du nationalisme Algérien*, t.1, Alger, p. 240.
[36] Vermeren, P., 2011, p. 4.
[37] Édouard, W. S., 2014, p, 41.
[38] Édouard, W. S., 2014, p. 32.

عموما ميز إدوارد سعيد في بحثه بين مرحلتين هامتين في تاريخ الإستشراق. تمتد الأولى من بداية القرن التاسع عشر إلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية وميزتها أن إمبراطوريتين إستعماريتان، بريطانيا وفرنسا، *" سيطرتا على الشرق والإستشراق "*[39]. بعد هذه الحقبة الطويلة سلمت بريطانيا وفرنسا المشعل إلى دولة مهيمنة جديدة وهي الولايات المتحدة الأمريكية.

لا يمكن تناول موضوع الإسطوغرافيا إذا تجاهلنا تأثير السياسة على الأدب وعلى مجمل الإنتاج العلمي، فأطروحة إدوارد سعيد، الذي لا يجب أن نتناسى أنه مختص في الأدب المقارن، تقول أن أي مفكر، سواء شعر بذلك أم لا، ينتمي إلى طبقة إجتماعية وبالتالي فهو يدافع عن مكانة إجتماعية ويتبنى مجموعة من القيم والمعايير والأفكار. من هذا المنطلق كتب يقول : " *كل هذا يواصل تأثيره على نشاطه المهني*"[40]، حسب هذه الأطروحة توجد علاقة بين السياسة والمؤسسة العلمية وبطبيعة الحال الكثيرون يتجاهلون هذا الجانب الذي يمكن إدراجه في المسكوت عنه واللامفكر فيه، وحسب هذه النظرية، فالسياسة حاضرة في كل مكان وعند أي شخص، وهذا ما يلخصه ادوارد سعيد بقوله : " *عندما يبدي إنجليزي من نهاية القرن التاسع عشر إهتماما بالهند أو بمصر فلا يمكن أن يغيب عن وعيه أنهما تشكلان مستعمرات بريطانية* "[41]. يتابع إدوارد سعيد عرض أطروحته مبرزا أن الأوروبي عندما يتناول بالدراسة الشرق فإنه على يقين أنه يقوم بذلك بصفته بريطاني أو فرنسي أولا، ثم كإنسان في المقام الثاني، وفي هذا السياق يفتح قوس ادوارد سعيد على أن التأثيرات السياسية، الإيديولوجية والمؤسساتية لا تمارس بنفس المفعول على الأفراد والأشخاص. يتعارض هذا الطرح مع الطرح السائد في المؤسسة العلمية الأمريكية « ذهبت *إلى حد القول أن المؤسسة الأدبية و العلمية في مجملها لا ترى بعين الرضا إلى أي دراسة جادة للإمبريالية و للثقافة*"[42]. في هذا المستوى من التحليل علينا أن نتساءل عن تشبع الكاتب، المثقف أو المؤرخ بأفكار مسبقة تحدث خلل في موضوعيته،

[39] Édouard, W. S., 2014, p. 33.
[40] Édouard, W. S., 2014, p. 42.
[41] Édouard, W. S., 2014, p. 44.
[42] Édouard, W. S., 2014, p. 48.

وعليه يتوجب علينا أن نشير مع إدوارد سيعد إلى العوامل الثلاث التي أنتجت صورة نمطية وسوداوية عن الشرق في الغرب :

- الإستشراق هو مرآة عاكسة لأفكار مسبقة ضد العرب والمسلمين في الغرب.

- التأثير السلبي للصراع العربي الإسرائيلي على اليهود الأمريكيين وعلى الدراسات الإستشراقية.

- صعوبة التعاطف مع العرب، الفلسطينيون والمسلمون في المؤسسات الأكاديمية الغربية خاصة الأمريكية.

ضف إلى كل هذا أن في المخيال الغربي، كان الشرق دائما يشكل تهديدا للغرب.

رغم تركيزنا الحديث عن الإستشراق المعاصر إلا أن جذوره التاريخية تعود إلى العصور الوسطى، وهناك شبه إجماع على أن مجمع فيينا سنة 1312 هو شهادة ميلاد هذا العلم حيث كانت من أهم مقررات هذا المجمع إنشاء كراسي اللغات : العربية، الإغريقية، العبرية، السريانية. من بين المدن التي حظيت بشرف إنشاء هذه الكراسي نذكر: باريس، أكسفورد، أفنيون وسالامونك. من الناحية المنهجية علينا أن نذكر أن تركيزنا بشكل مفرط على منطقة الشرق الأوسط، لا يمنعنا من القول أن الشرق يضم مناطق أخرى كالشرق الأدنى وشمال إفريقيا. هناك تنوع في الدراسات الإستشراقية في القرن التاسع عشر، المختصون في الإسلام، والمهتمون بدراسة الأقاليم التوراتية، والآباء اليسوعيون المتبحرون في اللغة الصينية، كما يضاف إليهم المختصين في اللغة السريانية[43].

مهما يكن من أمر فإن الدراسات الإستشراقية صاحبها جدل كبير سواء في الشرق أوالغرب، ولا يمثل كتاب إدوارد سعيد شذوذا عن القاعدة بل ضخ دماء جديدة في الدراسات الإستشراقية. وهكذا نجد أن الإستشراق يدرس منطقة جغرافية كبيرة تمتد من المغرب الأقصى إلى الصين. لقد أدرج المفكر الفرنسي فرانسوا بيون في خانة المستشرقين وهذا في القاموس الذي أشرف عليه " قاموس المستشرقين الفرنسيين " كل من: المترجمين و

[43] Édouard, W. S., 2014, p. 104.

الأهالي الذين قدموا يد المساعدة للعلماء الغربيين و المصورين والصحفيين والرحالة ورجال السينما[44].

بعدما قدمنا الخطوط العريضة للإسطوغرافيا الكولاونيالية الفرنسية وللإستشراق سوف ندخل في صلب الموضوع وسنتناول الممارسة الإسطوغرافية بالجزائر بالدراسة.

III- الممارسة الإسطوغرافية في الجزائر قبل تأسيس جامعة الجزائر

هناك عدة محطات تاريخية تمكننا من تتبع الخطوات الأولى للمارسة الإسطوغرافية بالجزائر ونذكر من بينها تأسيس لجنة الاستكشاف العلمي للجزائر عام 1837 وإنشاء الجمعيات العالمة في الجزائر خلال الإمبراطورية الثانية (1852-1870)، وفي هذه الفترة كان للحفريات نصيب الأسد من الأبحاث وهذا ما يفسر تأخر ظهور أول المؤرخين المعاصرين أمثال إرنست مرسيي وستيفان قزال. وسوف نسلط الأضواء على مجلة ذائعة الصيت وهي " *المجلة الإفريقية* " التي أسهمت في الترويج للأعمال الفكرية وللأبحاث الأكاديمية.

لننتقل إذن إلى الحديث عن أهم المؤسسات العلمية التي أخذت على عاتقها مهمة تأطير البحث ونشر الإنتاج المعرفي التاريخي بالجزائر وهذا قبل أن تظهر إلى الوجود جامعة الجزائر عام 1880. من المهم هنا الإشارة إلى دور الجمعيات العالمة في الممارسة الإسطوغرافية.

أ-الجمعيات العالمة بالجزائر وظهور أول أشكال الإسطوغرافيا

ظهرت الكثير من الجمعيات العالمة في بلاد المغرب الكبير ولعبت دورا هاما في ظهور الأشكال الأولى للممارسة الإسطوغرافية في كامل البلاد بواسطة المجلات التي تصدرها : المجلة الإفريقية في الجزائر ونظيرتها المجلة التونسية (Revue tunisienne) في تونس.

[44] Pouillon, F., 2011, « Avant-propos », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. X.

لقد أسهمت الجمعيات العالمة في تبلور وتشكل الإسطوغرافيا بالجزائر، وفي هذا السياق نتفق مع بول ألبير فيفري حين يعبر عن دهشته من قصر عمر الجمعيات العالمة قبل قيام الإمبراطورية الثانية ويدعم رأيه بسرعة إندثار الجمعية العالمة التي أسسها العسكر في بجاية ونظيرتها التي أسسها رجل الدين دوبوش (Dupuch)[45] في الجزائر العاصمة سنة 1841. في حين أنه لم تكن تلك الجمعية التي أسسها منفيو ثورة 1848- جمعية ذات طابع أركيولوجي- أكثر حضا من سابقاتها. لقد عرض جان بيار لابورت تقريبا وجهة نظر نفسها، حينما أشار بدوره إلى جمعيات أخرى مثل الجمعية العالمة للزراعة والطب (1847)[46].

بصفة عامة، أسهمت ثلاثة جمعيات عالمة في وضع لبنة الإسطوغرافيا المعاصرة بالجزائر وهي الجمعية التاريخية الجزائرية، والجمعية العالمة لقسنطينة وأكاديمية هيبون (عنابة). تاريخيا، كان لقسنطينة السبق في هذا المضمار حيث أنشأت جمعيتها العالمة سنة 1853، وأصدرت مجلتها الخاصة بها والتي أطلقت عليها تسمية (*annuaire*) أي كتاب سنوي قبل أن تستبدل هذا الاسم بآخر "مصنف" (*recueil*). تعد التركيبة الاجتماعية لأعضاء هذه الجمعية مهمة لدراستنا، لأن " *الأعضاء المؤسسين كانوا في الغالب رجال الإدارة، عسكريين ومدنيين، الذين يضاف إليهم راعي كنيسة قسنطينة* "[47]. ما يميز الإنتاج العلمي لمجلة هذه الجمعية العالمة هو أن الأركيولوجيا قد نالت حصة الأسد من دراساتها.

المفارقة العجيبة في مخاض تأسيس الجمعيات العالمة هو تأخر مدينة الجزائر بعض الشيء عن حاضرة الشرق الجزائري، قسنطينة، وهذا رغم تواجد أدريان بيربروجير

[45] Février, P-A., 1989, *Approche du Maghreb Romain. Pouvoirs, différences et conflits*, Paris, p. 40.

[46] Laporte, J-P., 2012, « Les sociétés savantes historiques et Géographiques d'Afrique du Nord avant les indépendance », *Les sociétés savantes et l'outre-mer. Leur rôle scientifique, culturel et social, aujourd'hui et demain,* Bulletin de liaison des sociétés savantes, août 2012, n° 15, p. 41.

[47] Laporte, J-P., 2012, p. 41.

(Adrian Berbrugger)* في مدينة الجزائر منذ 1834. ويعود تأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية إلى 1856 أين عقدت جلستها الأولى في الفاتح من مارس، حيث إنتخبت على رأسها شخصيتين ذائعتا الصيت وهما أدريان بيربروجير ونائبه بارون دو سلان (baron de Slane)، الذي إشتهر بترجمة كتاب عبد الرحمان بن خلدون. بخلاف الجمعية العالمة لقسنطينة التي أعطت الأولوية للحفريات، قد إهتمت نظيرتها في الجزائر أكثر بالتاريخ، ولم تمر إلا سنتين على تأسيسها حتى حظيت الجمعية التاريخية الجزائرية بدعم من الحكومة الفرنسية، وفي هذا الإطار تحصلت على مساعدة تقدر ب 300 فرنك قدمها وزير التربية بعد إقتراح من اللجنة الإمبراطورية للأعمال التاريخية[48]. وحسب ما جاء في مقال منشور بالمجلة الإفريقية تحت عنوان" جذور *الجمعية التاريخية الجزائرية* " (*Origines de la Société Historique Algérienne*)، فإن تأسيس الجمعيات العالمة في مقاطعات الجزائر ووهران ما هو إلا محاكاة واقتداء بالجمعية الأركيولوجية لقسنطينة[49].

ومنذ الوهلة الأولى لتأسيسها، أماطت الجمعية التاريخية الجزائرية اللثام عن مشروعها العلمي وهذا عبر مجلتها الذائعة الصيت " *المجلة الإفريقية* " حيث جاء في قانونها الداخلي ما يلي " *الجمعية التاريخية الجزائرية تفهم مصطلح التاريخ بمعناه الواسع الذي يشتمل على دراسة الشخصيات، الوقائع التاريخية و الأنصاب (...) وهي تهتم بالتاريخ على وجه التحديد و بالجغرافيا و اللغات و فنون و علوم شمال إفريقيا* "[50]. و من يلقي نظرة خاطفة على التركيبة الاجتماعية لمؤسسي ومشتركي المجلة الإفريقية سيستخلص الغلبة فيها لفئتين اجتماعيتين: الإداريين والعسكريين، حيث يشكل عناصرهما

---

* أدريان بيربروجير (1801-1869): عين كأول مفتش للمعالم التاريخية بالجزائر. ويعتبر من مؤسسي مكتبة ومتحف مدينة الجزائر سنة 1838 وهو أيضا عضوا مؤسسا للمجلة الإفريقية. إستقراره بالجزائر كان عاملا مساعدا لتعيينه كعضو كامل الحقوق في لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر كما أن إحتكاكه بالجزائريين ساهم في إتقانه للغة العربية. لقد خلد أدريان بيربروجير إسمه بأحرف من ذهب في المجلة الإفريقية أين نشر العديد من المقالات بإسمه.

[48] Vayssettes,1968, « *Société historique algérienne. Séance annuelle* (*8 juin 1860*), *Revue Africaine »*, Vo.3, 1858-1859, p. 475.

[49] Vayssettes, p.218.

[50] Seddiki, L., 2008, *La Revue Africaine de 1856 à 1961 : études bibliométrique*, Constantine, p. 24.

ثلث عينة تحتوي على 83 مساعدا[51]. يمكن تفسير التواجد الكبير لهذه الفئات بين الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية العالمة بالعودة إلى الشروط التي وضعوها لتقبل عضوية من يريد الانخراط فيها حيث " *لم يطلب من الذين يقدمون ترشيحهم أن ينشروا كتبا أو حتى أن يكونوا أصحاب أعمال لم تنشر، إن الشرط الوحيد الذي وضع هو الرفعة والسؤدد وكذا التعاطف مع المهمة المشتركة* "[52]. خلاصة القول؛ إن جزء من أعضاء هذه الجمعية ينتمون أيضا إلى المؤسسة العسكرية والإدارية ويظهر ضمنيا تأثير السياسة والإيديولوجية على أعمالهم وإنتاجهم المعرفي. كما أوضحه إدوارد سعيد في دراسته التي أشرنا إليها سابقا فإن المكانة الاجتماعية للكاتب لها تأثير واضح على إنتاجه العلمي وعلى هذا الأساس طرح فكرته أنه لا يوجد إنتاج علمي محض وحيادي. لتوضيح هذه الفكرة واعتمادا على الدراسة البيوميترية للمجلة الإفريقية التي أعدتها الطالبة صديقي لعمارية سنحاول تسليط الأضواء على هذه الرؤية.

الرقم	اسم مدير المجلة الإفريقية	الفترة التي ترأس فيها المجلة	الوظائف التي شغلها
1	أدريان بيربروجير	1856-1869	أمين مكتبة،محاضر،صحفي أركيولوجي،مستعرب،مؤرخ،مستكشف و مقدم مليشية مدينة الجزائر
2	شيربونو	1869-1873	مستعرب، عالم أثار ومدرس كرسي اللغة العربية الدارجة في

[51] Vayssettes, 1968, p. 429.
[52] Vayssettes, 1968, p.427.

			مدرسة اللغات الشرقية
3	لوترنو Letourneux	1876-1873	قاض و مستشار لدى محكمة الجزائر
4	شارل فيرو Feraud Charles	1878-1876	ضابط و دبلوماسي
5	دو قرامونت De Grammont	1892-1878	ضابط ثم جابي المالية
6	العقيد رين Colonel Rinn	1893-1892	رئيس المصلحة المركزية لشؤون الأهالي
7	ماسكراي	1894-1893	أستاذ و مدير مدرسة الأدب بالجزائر
8	أرنو Arnaud	1900-1894	مترجم

9	ويلي Waille	1904-1900	مترجم و أستاذ و مدير مدرسة الآداب بالجزائر
10	بيسونت Pysant	1908-1904	موظف سامي و أمين خزينة-دافع
11	إفير Yver	1926-1908	أستاذ

ويمثل هذا الجدول عينة تتكون من أحد عشر مديرا تداولوا على رئاسة المجلة الإفريقية من سنة 1856 إلى سنة 1926، وما يثير انتباهنا أنها تحتوي على أربعة عسكريين، ثلاث أساتذة مترجمين، قاضي وموظف سامي. لا يسعنا إلا تبني أطروحة ألان مسعودي (Alain Messaoudi) الذي اعتبر ودون أي مجاملة المجلة الإفريقية بأهم مجلة علمية في شمال إفريقيا[53]. لإثراء المجلة، نشرت المجلة الإفريقية مقالات قائمة طويلة من المؤرخين والمفكرين أمثال برنسيي (Bresnier) وشيربونو وماشويل (Machuel)؛ وأرشيفيون على غرار دوفلكس (Devoulx)؛ وكتاب على شاكلة فيرو ودو سلان وألفريد كليرك (Alfred Clerc) وإرنست مرسيي؛ وضباط في الجيش من أمثال دو نوفو (De Neveu) وتروملي (Trumelet) ورين وهانوتو؛ وقضاة أمثال لوترنو؛ وإداريين على

[53] Messaoudi, A., 2008,« Revue africaine (1856-1962) », *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, Paris, p. 822.

غرار لوسياني (Luciani) وبيسونت وأوغسطين بيرك الذين يضاف إليهم أساتذة جامعيين أمثال ماسكراي وفنيون (Fagnan) وبن شنب ودوتي[54].

عملت المجلة الإفريقية على ترويج وإذاعة كل ما ينشر من الأبحاث حول بلاد المغرب الكبير، وكانت غنية من حيث المحتوى ولا نبالغ حين نقول أنه بلغ عدد المواضيع التي عنيت بالدراسة عشرين موضوعا. ما يهمنا في هذا المقام أن مادة التاريخ أخذت و استأثرت بحصة الأسد من النشر حيث تمثل 30,07 % من جملة 2359 مقال نشر فيها[55]، في حين خصص للأركيولوجيا وحدها 378 مقال يمثلون 16,06 % من جملة ما نشر[56]. ما يثير الفضول في البدايات الأولى للمجلة الإفريقية هو الاهتمام المبالغ فيه الذي حظيت به الأركيولوجيا والنقوش، ففي سنة 1872 نشر بيان وقائمة (relevé) للنقوش يضم 1500 نقيشة رومانية تم العثور عليها من طرف 149 نفر من بينهم 70 عسكري[57]، وليس من المبالغة القول بأن اهتمامات المجلة الإفريقية في هذه الفترة كانت تتمثل في الحفريات والآثار[58]، لكن انقلب هذا الوضع رأسا على عقب فيما بعد إذ قل الإهتمام بالعصور القديمة مما جعل بول ألبير فيفري يعلق على هذه الوضعية قائلا :" *التاريخ الوسيط والحديث أعطيا لهذه المجلة محيى خاصا بها* "[59]. مهما قيل حول كتابات المساهمين في المجلة الإفريقية خلال قرن من الزمن(1856-1962)، فإن إسهام الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية لا يمكن أن نتجاهله أو نمر عليه مرور الكرام، وفي إعتقادنا لم يكن أدريان بيربروجير يبالغ حين قدم وجهة نظره الخاصة عن حال إسطوغرافيا بلاد المغرب الكبير قبل الإحتلال الفرنسي حيث قال " *قبل الغزو الفرنسي، لم تكن إفريقيا الشمالية معروفة: لا نملك أي شيء عن العصر الليبي، في حين أننا ليس لدينا أفكار واضحة وشاملة على كل أقسام العهد الروماني والغزو الوندالي ثم الإحياء البيزنطي، أما فيما يخص عهود الممالك العربية*

[54] Messaoudi, A., 2008, p. 822.
[55] Seddiki, L., 2008, p.39-40.
[56] Seddiki, L., 2008, p. 41.
[57] Seddiki, L., 2008, p .59.
[58] Seddiki, L., 2008, p. 60.
[59] Février, P-A., 1989, p.44.

والبربرية، وحتى السيطرة البيزنطية القريبة منا، فإن التاريخ يبرز أخطاء غريبة وفراغات وفجوات كبيرة "[60].

كان للمجلة الإفريقية، في ثلاثينيات القرن الماضي، مجلس علمي خاص بها يضم الشخصيات التالية: أوجين ألبيرتيني وإيفر وبروديل وغوستاف مارسي وديبوا (Despois) ولوتورنو[61]. و في سنة 1956 إنضم أول جزائري، حاج صادوق، إلى المجلة الإفريقية. ورغم الباع الطويل الذي كانت تملكه المجلة إلا أنها لم تستمر في النشر بعد إستقلال الجزائر بل توقفت سنة 1962.

لقد كانت المجلة الإفريقية فضاءا وإطارا للممارسة الإسطوغرافية خاصة قبل تأسيس جامعة الجزائر. لم تنحصر الممارسة الإسطوغرافية على هذه المؤسسة بل برزت مؤهلات علمية كان لها إسهام في هذا المضمار .

IV - نماذج للممارسة الإسطوغرافية بالجزائر

لقد أسالت الممارسة الإسطوغرافية في بلاد المغرب الكبير الكثير من الحبر في الدراسات المتخصصة. في هذا الصدد ألم يتباهى المؤرخون الفرنسيون في الجزائر بإنتمائهم إلى مدرسة الجزائر التاريخية التي سوف نتناول هنا بالدراسة بعض من أشهر أقطابها.

في دراسة بيوغرافية حول فرناند بروديل، نشرت في جريدة لوفيغارو الأدبية، سلط المؤرخ الفرنسي إيمانويل لوروا لادوري (Ladurie Emmanuel Le Roy) الأضواء على تأثير الجزائر الثقافي على أشهر رواد مدرسة الحوليات[62]. ما يهمنا في هذا المقام هو إعتراف الإسطوغرافيا الفرنسية بجميل قزال، إسكير (Esquer) وغوتيي عليها، لأن هذا الإعتراف بحد ذاته هو دليل على المكانة التي تحتلها مدرسة الجزائر التاريخية في العلوم

[60] Février, P-A., 1989, p .219-218 .
[61] Messaoudi, A., 2008, « Revue africaine (1856-1962) », Dictionnaire des orientalistes français, p. 823.
[62] Le Roi, L- E., 2001, *Fernand Braudel*, *Les marées de l'histoire,* Paris.

الإنسانية الفرنسية. من الناحية المنهجية كان لاختيارنا لهذه العينة ما يبرره. إذا كان مرسيي يمثل جيلا من المؤرخين له السبق في هذه الدراسات، فإن كل من الجغرافي غوتيي والمؤرخ شارل أندري جوليان ينتميان إلى الجيل اللاحق الذي بزغ نجمه في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي في أعقاب الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر أي في العصر الذهبي للفكر الاستعماري في فرنسا.

1- منهج إرنست مرسيي* لكتابة التاريخ المغاربي

لم يمثل أحد من المؤرخين الفرنسيين المنضوين تحت لواء " *المدرسة التاريخية الجزائرية* " التزاوج بين العلم والسياسة مثل إرنست مرسيي، الذي كان مؤرخا ورجل سياسة[63] على حد تعبير جاك زيلر (Jacques Zeiller). بلغت الإشادة بأعمال إرنست مرسيي إلى حد وضع إكليل الغار على رأسه وإعتباره أول مؤرخ معاصر لشمال إفريقيا[64]. و رغم أنه توفي مبكرا- بداية القرن العشرين- إلا أن هذا لم يمنع رواد المؤسسة العلمية

* لا شيء في حياة إرنست مرسيي كان ينبئ بأنه سيصبح مؤرخا ذائع الصيت، إذ عندما تحصل والده على إمتياز، منح له إثنا عشر هكتار من الأراضي، مما سهل إستقراره بناحية صور الغزلان (Aumale)، وفي تلك الظروف ترك مرسيي الدراسة في سن المراهقة، ولم يتجاوز عمره آنذاك أربعة عشرة سنة ليتعلم كل ما يلزم ليكون مثل أقرانه من المعمرين وفي خضم هذه التجربة تعلم اللغة العربية التي أتقنها وتكلمها بسلاسة. و بعد ذلك بقليل إلتحق إرنست مرسيي بالجيش وإنخرط فيه ليعمل كترجمان مما أهله ليلتحق بمناصب عمله في سبدو و تنس والحروش. إلى جانب سمة المستعرب التي لحقت به، فإن إرنست مرسيي كان ملما باللغة البربرية. و كانت له إسهامات علمية سواء في المجلة الإفريقية أو في مصنف الجمعية الحفرية لقسنطينة

ورغم احترام إرنست مرسيي للدين الإسلامي ودعوته لعدم احتقار الجزائريين إلا أن أفكاره السياسية تعارض إنعتاق الجزائريين بل تعارض حتى دمجهم في المدنية الفرنسية وهذا بمنحهم حق المواطنة. ما يكمن قوله عن الالتزام السياسي لإرنست مرسيي ينبع من قناعته بأن في العلم والسياسة هما وجهان لعملة واحدة. رغم أن تكوينه لا يسمح له بمقارعة كبار أساتذة الجامعة إلا أن قزال حي فيه المؤرخ الرائد للدراسات التاريخية لشمال إفريقيا. الحقيقة تقال إن حالة إرنست مرسيي بين مؤرخي الجزائر تعتبر بالشاذة عن القاعدة لأنه شبه عصامي. للمزيد من المعلومات حول شخصية مرسيي إرنست (1840-1908) أنظر الأعمال التالية: Carlier, O., 2008, p. 674 ; Zeiller, J., 1945, « *Un historien de l'Afrique du Nord, Ernest Mercier* », Journal des savants, Paris, p.166.

[63] Zeiller, J., 1945, p. 166.

[64] Carlier, O., 2008, « Mercier Ernest », p. 674.

الجزائرية من أن يقدموا له تكريما بعد وفاته، حيث نشروا كتابا تناول بالدراسة مجمل أعماله وإبداعاته تحت عنوان" *إفريقيا الفرنسية من خلال أبنائها. مؤرخ إفريقيا الشمالية ورئيس بلدية قسنطينة* "[65].

و دخل إرنست مرسيي إسطوغرافيا شمال إفريقيا من بابها الواسع عبر ثلاثة إسهامات : تاريخ استقرار العرب في شمال إفريقيا حسب وثائق الكتاب العرب خاصة التاريخ[66]؛ تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور إلى الغزو الفرنسي[67] وأخيرا " تاريخ قسنطينة " [68]. ما يثير الإهتمام في كتابه الأول حول إستقرار العرب في بلاد المغرب الكبير هو كثرة إعتماده على المصادر العربية، وفي هذا الإطار يعتبر إرنست مرسيي* أول من تجرأ على ذلك وهو بطبيعة الحال شيء يحسب له[69].

ظهرت كفاءة و قدرة إرنست مرسيي على قراءة و فك طلاسم اللغة اللاتينية في أجزاء كتابه التي تطرق فيها إلى العهد الروماني و الوندالي والبيزنطي، وقد مكنته مؤهلاته في قراءة النقوش من كتابة التاريخ الاجتماعي لسيرتا والكونفيدرالية السيرتية[70]. لقد خصص إرنست مرسيي ثلاثة أجزاء للفترة التي نهتم بها في هذه الدراسة، فالجزء الثامن المعنون: إفريقيا تحت السيطرة الرومانية (تتمة)، يبدأ من الصفحة 100 إلى 118 و يتبعه الجزء التاسع الذي وضع له عنوان : إفريقيا تحت السيطرة الرومانية (تتمة) والذي بدوره يبدأ من صفحة 120 إلى 138، ثم أخيرا الجزء العاشر المعنون : الحقبة الوندالية والذي

---

[65] Albertini, E., et Bernard, A., 1944, *L'Afrique française à travers ses fils. Ernest Mercier, historien de l'Afrique septentrionale, maire de Constantine*, Paris, 268p.

[66] *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'histoire*.

[67] *Histoire de l'Afrique septentrionale* (*Berbérie*) *depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française*.

[68] *Histoire de Constantine*.

* لقد كتب جاك زيلر معلقا على العلمية لكتاب إرنست مرسيي قائلا " كان لكتابه تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور إلى الغزو الفرنسي الذي صدر ما بين 1888 و 1891 مكانة مرموقة وقيمة علمية معترف بها وهذا حتى بعد صدور الكتاب القيم لقزال، الذي قدم له بدوره عرفانا مستحق".

[69] Carlier, O., 2008, p. 675.

[70] Zeiller, J., 1945, p.168 .

يبدأ من صفحة 140 إلى 158. لقد راود إرنست مرسيي منذ سن المراهقة حلم تحرير تاريخ شامل لشمال إفريقيا، وعلينا أن نشير إلى أن هذا المؤرخ قد إستغرق ستة عشرة سنة كاملة لتدوين كتابه وللعلم فإن هذا الكتاب يضم ألف وخمسمائة صفحة،والغريب في الأمر أن هذا العمل الكبير أنجز خرج الإطار الأكاديمي[71]، وقد كان إرنست مرسيي متأثرا بأفكار أوجست كونت والمدرسة الوضعية.

و رغم الإهتمام المتزايد للمؤرخين بالعصر الذهبي للتواجد الروماني في بلاد المغرب الكبير إلا أن ما يميز إرنست مرسيي هو تخصيصه لجزأين من كتابه لحقبة العصور الإسلامية ويمكن اعتبار هذه الجرأة بمثابة إعادة نظر في " *المكانة التاريخية و الإسطوغرافية للإرث الروماني* " على حد تعبير عمر كارليي[72]. لقد ميز إرنست مرسيي بين مصطلحي التعريب والأسلمة، حيث يمكن إعتباره من بين القلائل الذين دحضوا مقولة التعارض بين العرب والبربر كونه يرى أن قرون من المصاهرة والإمتزاج بين العنصرين جعلت من تلك النظرية لا قيمة لها. علينا أن نعترف بأن إرنست مرسيي كان من الذين عمموا استعمال مصطلح " *البربر*" على الجماعات البشرية التي ظهرت على الساحة في بلاد المغرب الكبير خلال حقبة العصور القديمة وحتى الحقب التاريخية اللاحقة.

سلط بول دولورم (Paul Delorme) الأضواء على فكرة جوهرية في كتاب إرنست مرسيي " تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور إلى الغزو الفرنسي " [73] - بمناسبة إنعقاد مؤتمر الجمعيات العالمة- والتي *تدور حول " إصرار وعناد الجنس البربري منذ أقدم العصور"*[74]، وفحوى هذه النظرية يتمثل في أن خضوع البربر الدائم للهيمنة الأجنبية لم يجعلهم يذوبوا وينصهروا في الجنس الغالب. إن إيمان إرنست مرسيي بهذه الفكرة جعله يدق ناقوس الخطر، حيث كتب يقول: *" هل بمقدور فرنسا أن تستوطن بصفة قطعية بلاد*

---

[71] Carlier, O., « Mercier Ernest », 2008, p. 675.

[72] Carlier, O., 2008, p. 675.

[73] *Histoire de l'Afrique Septentrionale* (*Berbérie*) *depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française*.

[74] Delorme Paul, 1905, « Congrès des Sociétés Savantes », *Revue Africaine*, p. 370.

البربر La Berbérie أين ثلة من المهيمنين مروا من هنا قبل أن يغمرهم العنصر المحلي "[75]. إن قدوم إرنست مرسيي إلى الجزائر سنة 1854 جعله يكتشف وينبهر بتعدد" *الأعراق* " في الجزائر: البربر، العرب و البربر المعربين[76]. خلال الأربعة والثلاثين سنة التي تفصل بين مجيئه إلى الجزائر وتاريخ نشر كتابه اكتسب مرسيي سمعة في الأوساط العلمية التي اعتبرته مختصا في موضوع " البربر " كما أشار إليه كاتب المقال حول مؤتمر الجمعيات العالمة المنشور في المجلة الإفريقية.

ما يهمنا في هذا المقام هو إماطة اللثام عن تأثير ابن خلدون وإصدارات الجمعيات العالمة على أعمال إرنست مرسيي . لم يتنكر هذا الأخير لدين السيد دو سلان De Slane عليه والذي أخرج ابن خلدون إلى النور حين شرع في نشر نصوصه التي تكفل مرسيي شخصيا بترجمتها. وتجدر الإشارة إلى أن في هذا الظرف التاريخي تأسست بعض الجمعيات العالمة مثل الجمعية الحفريات لقسنطينة والجمعية التاريخية للجزائر، اللتين «قدمتا خدمات جليلة للمجتهدين المحليين إضافة إلى حفظ و نشر إبداعاتهم»[77]. إن الإحالة إلى ابن خلدون في المقدمة التي وضعها إرنست مرسيي لكتابه لها مغزاها حيث ترجم عنوان الكتاب الثاني الذي يلي المقدمة " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" كما يلي (*Histoire des berbères*). ما يهمنا هنا هو طغيان مصطلح " البربر " على التسميات السائدة التي أطلقت على سكان بلاد المغرب الكبير القدامى.

لقد أسهم ابن خلدون من حيث لا يدري في الترويج لتسمية " البربر" وكذا لمقولة مناوأة البربر للعرب التي لقيت قبولا كبيرا لدى المفكرين والساسة الفرنسيين في كامل بلاد المغرب؛ فإذ كانت الدراسات حول "البربر" في المغرب الأقصى كما يؤكده الأنتروبولوجي المغربي حسن رشيق تهتم بوصف التقسيم الإثني والعرقي للبلاد فإن المهتمين بالدراسات

---

[75] Delorme Paul, 1905, p.371 .

[76] Mercier, E., 1888, *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française*, p.II.

[77] Mercier, E., 1888, p. II.

حول "البربر" في الجزائر روجوا لفكرة أن بلاد "البربر" تمتد من مصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن النيجر جنوبا إلى البحر المتوسط شمالا[78].

عرض إرنست مرسيي، في مقدمة الجزء الأول من كتابه، مسحا أوليا لإسطوغرافيا حقبة العصور القديمة وسلط الأضواء على الجيل الأول للمؤرخين والمهتمين بالحفريات عند نهاية القرن التاسع عشر، حيث صرح قائلا: " عدد *هائل من الأعمال الأصيلة أنتجتها مجموعة من المتبحرين الذين شكلوا نواة مدرسة تاريخية. من بين كل هؤلاء أذكر كل من بيربروجير، لاكروا* Lacroix، *الذي خطفته منا الموت قبل أن يكمل أعماله. بول Poule، عالم و رئيس جمعية الحفريات لقسنطينة، ريبو* Reboud، *شيربونو* Cherbonneau ، *الجنرال كرولي* général Creuly، *ماكارتي* Mac-Carthy، *القس قودار* l'abbé Godard، *بروسلار* Brasselard ، *القس بارج* l'abbé Barges ، *روسو*Rousseau، *فيرو* Féraud، *دو فولك* de voulx ، *قورقوس فاسيت* Gorguos Vayssettes ، *طوكسيي* Tauxier ، *أوكابيتان* Aucapitaine ، *قان*Guin ، *روبان* Robin ، *مول* Moll ، *فاقو* Fagot، *إيل دو لابريمودي* Elle de la Primaudaie ، *قرامون* Grammont، *رئيس جمعية الجزائر، كل هؤولاء إلى جانب وافدين جدد مثل بواسيير* Boissière ، *ماسكوري*Masqueray ، *دو لابلونشير* de la Blanchère، *باسي* Basset، *أوداس* Houdas ، *بالو دو لاسير* Pallu de Lessert ، *بوانسو* Poinssot *وكانيا* Cagnat ... *بفضل جهود كل هؤلاء المتبحرين الذين نحيل دائما إلى أعمالهم تمكنا من تسليط الأضواء على بعض النقاط المظلمة في تاريخ شمال إفريقيا* "[79].

إن ما يهمنا في هذا المقام هو إشارة مرسيي إلى تشكل ووجود مدرسة تاريخية جزائرية، ووعي إرنست مرسيي بوجود هذه المدرسة التاريخية يمكن قراءته على أنه في ذهنه يمكن للعلم عموما وللتاريخ خصوصا أن يكون هيئة لإضفاء الشرعية العلمية على الممارسة السياسة.

[78] Hassan, R., 2012, p. 107.
[79] Ernest Mercier, op, cit, p. II-III.

2- إميل فيليكس غوتيي (1864-1940): من الجغرافيا إلى التاريخ

لم يستهوي تاريخ العصور القديمة الهواة فقط بل إنتقلت العدوى إلى إختصصات أخرى. فمن بين أشهر من ترك بصمتهم في مضمار الإسطوغرافيا نذكر الجغرافي الفرنسي إميل فيليكس غوتيي.

صنف فليكس إميل غوتيي كجغرافي متخصص في الصحراء الجزائر[80]. ترك لنا غوتيي إرثا كبيرا يتضمن واحدا وعشرين كتابا ومئات المقالات في مجال الجغرافيا والتاريخ والإثنوغرافيا والنحو. لقيت أعمال إميل فيليكس غوتيي قبولا من أشهر المختصين الفرنسيين في الموضوع ألا وهو فيدال دو لاباش (Vidal de la Bache) الذي كتب توصية لكي يتولى تقديم محاضرات في الجغرافيا الإفريقية في المدرسة العليا للآداب بالجزائر في الدخول الجامعي لعام 1900 وهذا خلفا لأوغسطين برنارد[81].

بصدد حديثنا عن فيليكس إميل غوتيي علينا أن نشير إلى أنه ينتمي إلى مؤسسة عريقة وهي المدرسة العليا للآداب، التي تعاقبت عليها شخصيات ذائعة الصيت مثل أدولف هانوتو، إميل ماسكراي، روني باسي وستيفان قزال. تشكل تلك الشخصيات العلمية الفذة العمود الفقري للمدرسة التاريخية الجزائرية، وإذا إعتبرنا إميل فيليكس غوتيي أيقونة هذه المدرسة فهذا لا يمنع من تصنيفه في خانة الجغرافيين رغم ولعه الكبير بالتاريخ، وفي هذا المقام علينا أن نسلط الضوء على البون الشاسع بين جيله والجيل الأول الذي سبقه والذي حظي بشرف وضع اللبنات الأولى لإسطوغرافيا العصور القديمة وهذا لا يمنعنا من كتابة حقيقة بديهية أن كل أفراد تلك المدرسة التاريخية كانوا عسكريين. عند هذا المستوى من التحليل علينا أن نفتح قوس لنقول نحن هنا بصدد الحديث عن الفترة الممتدة ما بين 1840-1880.

[80] Deprent, F., 2008, « Gautier Émile-Félix », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 431.
[81] Deprent, F., 2008, p.431.

أثرت في السيرة الذاتية لإميل فيليكس غوتيي حادثتين أساسيتين، تتمثل الأولى في إخفاقه في امتحان شهادة التبريز في التاريخ ،(agrégation)، أما الثانية فتتلخص في مشاركته في مهمة إستكشافية قادته إلى جزيرة مدغشقر، وهو ما جعله يجنح إلى الإهتمام بالجغرافيا التي لا تنفصل في نظره عن التاريخ. كان لتعيينه كمدير للتعليم في مدغشقر فرصة ذهبية لا تكاد تعوض إغتنمها لتحرير أطروحته: الجغرافيا الفيزيائية لمدغشقر، (La géographie physique de Madagascar)، التي ناقشها عام 1920[82]، وقد أعطى مجيئه إلى الجزائر عام 1900 دفعا جديدا لمسيرته المهنية بحيث شغل لمدة خمسة وثلاثين سنة كرسي الجغرافيا في كلية الآداب[83] كما إستكشف الصحراء: الساورة، تيدكلت، الهقار، النيجر وتوات[84]. أثارت الدراسات التي أنجزها إميل فيليكس غوتيي عن الصحراء الجزائرية فضوله لدراسة صحاري أخرى في العالم، في كل من أمريكا وليبيا. تعتبر هذه المرحلة من تاريخه من أخصب مراحل حياته من حيث الإنتاج العلمي، ويعبر ميشال زيمرمان عن ذلك بقوله: " منذ هذه *اللحظة إنحصر نشاط غوتيي على الدراسات الجغرافية و التاريخية وحتى الإجتماعية عن تاريخ الجزائر. (...). دراسات حول الجغرافيا الفيزيائية: بنية الجزائر (1922) وصف جغرافي لأقاليم الجنوب (نفس السنة)؛ تاريخية، مثل القرون المظلمة للمغرب (1927)؛ جنسريق، ملك الوندال (؟193)؛ بيوغرافية و اجتماعية : الجزائر و باريس(1920)؛ ثلاثة أبطال؛ عادات وتقاليد المسلمون؛ أعمال تتعلق بالاستعمار مثل قرن من الاستعمار* "[85]. كل إنتاج معرفي مهما كانت مكانته المعرفية إلا

[82] Zimmerman, M., 1942, « Émile-Félix Gautier, 1864-1940 », Les études rhondaniennes, Vol. 17, n° 3-4, p. 181.

[83] Larnaude, M., 1940, « *E.-Gautier* (1864-1940) », Bulletin de l'Association de géographes français, n°132-133, 17ème année, novembre-décembre 1940, pp. 75-80.

[84] Zimmerman, M., 1942, p. 181.

[85] Zimmerman, M., 1942, p.181.-.182

أنه لا يكاد يخلوا من النقائص، فإميل فيليكس غوتيي ليس مستعربا وفهمه للغة العامية لم يكن ذي فائدة تذكر لدراسة المصادر العربية الكلاسيكية[86].

خلف إميل فيليكس غوتيي ثلاثة أطروحات، اثنتين منهما على الأقل يمكن إدراجهما في خانة الأنثروبولوجيا، أما الثالثة فتخص الإسطوغرافيا عامة والتحقيب على وجه الخصوص. بلور فيليكس إميل غوتيي الأطروحة الأولى انطلاقا من الجغرافيا لما حاول أن يفسر عدم قدرة المغاربة على تحقيق وحدة سياسية، ويلخص موقفه هذا في قوله: " عدم وجود مركز *يلم ويجمع الأقاليم المختلفة قبل أن تتكتل فيما بعد. (...) لقد نسب إلى المغرب عدم قدرته على أن يشكل دولة دائمة؛ إنها مغالطة. حقيقة لم تحقق بلاد المغرب الوحدة السياسية و لكن كل الممالك المغاربية الكبرى تكشف عن خصوصية عجيبة. ما أن تتشكل (الممالك) حتى تتوسع إلى حدود البلاد*"[87]. أما الأطروحة الثانية فهي تقوم على تفسير مفارقة في تاريخ بلاد المغرب الكبير، حيث إستغل إميل فيليكس غوتيي موهبته لدحض مقولة "عدم *قدرة المغرب على تحقيق الوحدة* "، بل دافع عن فكرة أخرى لا تقل جرأة مفادها أن " *في المغرب يتراء أن الوحدة سهلة التحقق حيث تنجز في سنوات قليلة. لكن هذه الوحدة لا تعمر طويلا. الدولة المغاربية مثل الفطر الذي ينموا خلال ليلة ويتعفن في الصباح* "[88]. أما الأطروحة الثالثة والأخيرة فلديها إرتباط وثيق بالإسطوغرافيا. كان إميل فيليكس غوتيي ممن روجوا لفكرة القطيعة ما بين حقبة العصور القديمة وحقبة العصور الإسلامية والتي تركت بصمتها على الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية. إن ما يسميه إميل فيليكس غوتيي " *القرون المظلمة لبلاد المغرب* " ما هي إلا الأربعة قرون التي تشكل على حد تعبيره " *العصر الذهبي* " لحضارة المنطقة والتي تمتد من القرن السابع الميلادي إلى القرن الحادي عشر " *هذه القرون المجيدة هي في نفس الوقت القرون المظلمة* "[89]. ما يعيبه إميل فيليكس غوتيي على هذه الحقبة هو تجاهل العرب الفاتحين لكتابة التاريخ "

[86] Voir la préface d'Abderrahmane Rebahi, Émile-Félix Gautier, E-F., 2011, *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb*. , Alger, p. 9.

[87] Gautier, E-F ., 2011, p.13.
[88] Gautier, E-F ., 2011, p .14.
[89] Gautier, E-F ., 2011, p. 50.

الإسلام التوسعي لم يحمل هم الحديث عن نفسه. الإنسان العربي كان همجي باله خال من التاريخ "[90]. ما يهم إميل فيليكس غوتيي هو الترويج لمقولته حول " القطيعة " بين حقبة العصور القديمة وحقبة العصور الإسلامية و تشكل تلك القرون الأربعة الحلقة المفقودة التي تفسر لنا الانتقال من الحضارة المسيحية إلى حضارة المرابطين " *لقد إبتلي المغرب بأن عاش تغييرا مس وجدانه العميق كما لا يمكن أن نتصوره و لقد غير لغته، ودينه وروحه وإن عمق هذا التغيير يكفي لتفسير هذا السكوت* "[91]. على العموم كان إميل فيليكس غوتيي مولعا بالتاريخ بحيث إستنجد بالعلوم الأخرى ليفسر الكثير من النقاط المظلمة في تاريخ بلاد المغرب الكبير.

كان من المستحيل تناول موضوع الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية دون التطرق إلى شخصية فاذة ومعروفة بمناهضها للإستعمار إنها شخصية شارل أندري جوليان. فما هي منهجيته يا ترى في كتابة التاريخ؟

3- شارل أندري جوليان*[92] و كتابة تاريخ شامل لبلاد المغرب الكبير

لقيت كتب شارل أندري جوليان رواجا كبيرا عند الآلاف من الطلبة سواء في بلاد المغرب أو في فرنسا. ما هو السر وراء هذا النجاح الكبير؟. جزء من الإجابة نجده في هذه الأسطر التي كتبها عمر كارليي " *مؤرخ شمال إفريقيا وأستاذ في جامعة السربون ومناضل*

[90] Gautier, E-F ., 2011, p.50.

[91] Gautier, E-F ., 2011, p. 51.

* فيما يخص التنشئة الاجتماعية لشارل أندري جوليان (1891-1991) فهو ينتمي إلى عائلة بروتستانتية وكان أبوه صديقا للمناضل الاشتراكي جوراس (Jaurès). بعد هجرة أبيه إلى الجزائر عام 1906 سجل نجله في ثانوية وهران وبعدها ما لبث أن استهوته السياسة فانخرط في الشباب الاشتراكي. لقد كان لفراق أبيه الحياة تأثيرا كبيرا على مساره بحيث مارس عدة وظائف: كاتب في الولاية وصحفي. بعدها انخرط في جمعية الجغرافيا والحفريات لوهران (La société de géographie et d'archéologie d'Oran) التي كانت تنشر مجلة ذائعة الصيت " النشرة " (Bulletin). حول مسار المؤرخ شارل أندري جوليان أنظر: Carlier, O., 2008, « Julien André dit Charles-André », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 527.

ناشط من أجل التحرر من الاستعمار "[93]. وعلى نقيض النماذج التي تطرقنا لها بالدراسة فإن شارل أندري جوليان كان أستاذا جامعيا و مناضلا مناهضا للإستعمار.

مما يجهله الكثيرون أن التاريخ القديم كان الحب الأول لشارل أندري جوليان، وعلينا أن نشير في هذا الصدد إلى أنه نذر سنوات من حياته لإنجاز أطروحة حول سيبتيموس سيفيريوس (Septime Sévère) فقد كان معجبا "*بإرتقاء هذه العائلة البربرية وصعودها إلى عرش روما* "[94]. ويعتبر شارل أندري جوليان الشخصية الثانية بعد إرنست مرسيي التي تمكنت من تجسيد رهان كتابة تاريخ شامل لشمال إفريقيا. ولقي كتاب شارل أندري جوليان تاريخ شمال إفريقيا إعجاب المؤرخين والنقاد إلى درجة أنه صنف في خانة " *التاريخ-المضاد* ".

ترك شارل أندري جوليان في ذهن معاصريه صورة مناضل سياسي – عضو مؤسس للحزب الشيوعي الفرنسي- و مؤرخ مميز يتباهى قراؤه بجودة كتابه الذائع الصيت *شمال إفريقيا تسير*[95].

حاول فرناند بروديل[96] في دراسة حول كتاب شارل أندري جوليان "*تاريخ شمال إفريقيا من البدء إلى الفتح الإسلامي* "، الإستعانة بالمجاز -قصة موسى ويوشع بن نون- لكي يعط لنا مفاتيح لقراءة الإنتاج المعرفي لكل من جوليان وقزال. الإشادة بأعمال هذا الأخير لا تضاهيه إلا حسرة فرناند بروديل على عدم إكماله لمشروعه العلمي الطموح المتمثل في تدوين تاريخ شمال إفريقيا في العصور القديمة، هذه الحسرة كبيرة لأن قزال توقف عند عتبة العهد الروماني أو على مشارف "*أرض الميعاد* " على حد تعبيره.

---

[93] Carlier, O., 2008, « Julien André dit Charles-André », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, p. 527.

[94] Carlier, O., 2008, p. 527.

[95] L'Afrique du Nord en marche.

[96] Aymard, M., 1996, *Les écrits de Fernand Braudel, Autour de la Méditerranée*, Paris, p. 113-123.

دون أي مجاملة يضع فرناند بروديل إكليل الغار على رأس شارل أندري جوليان الذي قادنا إلى أرض الميعاد، " *وهو ما قام به شارل أندري جوليان بامتياز ولحسابه الخاص في صفحات تعد بحق من أجود ما في كتابه* "[97]. و " *أرض الميعاد* "[98]، هي صيغة ابتكرها ستيفان قزال للإشارة إلى العهد الروماني في شمال إفريقيا، وهنا يجب أن نشير إلى أن هذه العبارة أخرجت من سياقها الديني لتوضع في سياق دنيوي محض.

هذا الإطراء والمدح يستحق الإشارة إليه كون صاحبه يعتبر أحد أكبر المؤرخين الفرنسيين إن لم نقل كبيرهم. كانت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية للعصور القديمة قبل شارل أندري جوليان مليئة بالصور السلبية والكليشيات والأفكار المسبقة على حد تعبير بن جامين سطورا (Benjamin Stora) الذي يرى أن " *تاريخ الجزائر الذي أنتجه المؤرخون في أوج بهاء وسطوع الإستعمار الفرنسي يهدف إلى شرح لماذا هذه البلاد يجب أن تبقى وإلى الأبد في حجر فرنسا. هذه الفكرة محورية لأنها تضفي الشرعية للرواية التاريخية. الوجود الفرنسي إذن إتخذ أصله من الإمبراطورية الرومانية. كان هنالك إلحاح على لاتينية الجزائر مع ربط ميثولوجية الأسلاف وأراضي شمال إفريقيا بجنوب أوربا. هذا الرابط كما يزعمون مزقه الإسلام، فالإستعمار إذن صور على أنه شكل من إعادة إمتلاك إمبراطورية عريقة، ضائعة، والتي كانت أحد أقطاب المسيحية.وهذه الرواية التاريخية تعطي مكانة للإمبراطورية الرومانية، للغة اللاتينية وذلك مع معاينة عميقة للقضية البربرية*"[99].

التاريخ إذن هي مؤسسة لإضفاء الشرعية للتاريخ عبر التأكيد على البعد المسيحي واللاتيني للجزائر وطمس الأبعاد الأخرى. عرجنا على هذه النقطة لكي نضع إسهام شارل أندري جوليان في سياقه التاريخي.

---

[97] Aymard, M., 1996, p. 116.
[98] Carlier, O., 2008, p. 528.
[99] Stora, B., 2004, *L'Histoire de l'Algérie, sources, problèmes, écritures*. Oran, p. 216-217.

لقد إستعنا بترجمة "للأموات" (Nécrologie) لتلميذه شارل روبير أجيرون (Charles Robert Ageron)، للإحاطة بأهم مراحل حياة هذا المؤرخ الذي ينتمي لليسار المعادي للاستعمار[100]. بدأت علاقة شارل أندري جوليان بالجزائر بعد تحويل أبيه الذي كان مدرسا إلى ثانوية وهران و سلسلة من الأحداث، الانتقال من كان Caen، مسقط رأسه، إلى وهران، وفاة والده، وتسجيله في جامعة الجزائر، هي محطات صقلت موهبته خاصة في جامعة الجزائر أين أثر فيه أستاذان لهما باع طويل في الدراسات عن تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا: جيروم كاركوبينو و فيليكس إميل غوتيي[101]. ونضال شارل أندري جوليان في رابطة حقوق الإنسان والفرع الفرنسي للأممية الاشتراكية SFIO جلبا له القلائل حيث حول رغما عنه إلى فرنسا ليدرس هناك[102]. كان طبعه لكتاب " *تاريخ شمال إفريقيا من البدء إلى الفتح الإسلامي*"، تتويجا لمسار مهني ثري " *بمعية الثمانمائة وستة وستين صفحة كانت هذه الحوصلة شيء آخر غير أطروحة الدكتوراه، بل أطروحة حول هذا المغرب المعقد و الغامض بعض الأحيان و هذا من ما قبل التاريخ إلى عام 1830* "[103]. لا يخلوا أي إصدار من الإطراء على كتاب شارل أندري جوليان فهذا فرناند بروديل يكتب معلقا " *الجزء الكبير لشارل أندري جوليان هي حوصلة رائعة (...) المؤلف قرأ كل شيء حول موضوعه الواسع* "[104]. لم يشد ستيفان قزال عن القاعدة حيث كتب له مقدمة مليئة بالإطراء.

وأول ما يتبادر إلى ذهننا عند قراءة تعليق فرناند بروديل هو مقارنته لكتاب جوليان بكتب من سبقه في المضمار وهنا نخص بالذكر إرنست مرسيي، إذ " *لقد حل مقام الكتاب الموقر لمرسيي والذي قدم أعمال جليلة ورغم هذا فمن الإجحاف أن يقارن بالصفحات*

[100] Ageron, Ch-R., 1992, « Charles André Julien (1891-1991) », *Revue française d'histoire d'Outre-mer*, tome 79.
[101] Ageron, Ch-R., 1992, p. 404.
[102] Ageron, Ch-R., 1992, p. 404.
[103] Ageron, Ch-R., 1992, p. 404.
[104] Aymard, M., 1996, p. 113.

الموثوقة والواسعة التي كتبها لجوليان "[105]. كان إسهام شارل أندري جوليان في إسطوغرافيا بلد المغرب الكبير فعالا " *بعد أن تبنى استنتاجات قزال للحقبة السالفة، أوضح شارل أندري جوليان بكثير من الثقة حياة شمال إفريقيا في إطار التاريخ الإمبراطوري. و إستعان لهذا الغرض بمراجع كلاسيكية مثل كونيا و مونسو* Monceaux *ومقالات كاركوبينو ثم الكراسة الرائعة لألبيرتيني حول إفريقيا الرومانية و التي هي بحق أحسن عرض عام خصص للمقاطعة الرومانية. كما استعان جوليان بالكتاب القدامى و البيبلوغرافيا الثرية لتاريخ الإمبراطورية* "[106].

يعتبر شارل أندري جوليان منعرجا في الدراسات التاريخية المتعلقة بالجزائر. لقد أحدث شارل أندري جوليان قطيعة مع الإسطوغرافيا الكولونيالية التقليدية عندما قدم مقاربة مختلفة لهذا التاريخ لخصها بن جامين سطورا في الأسطر التالية " *بداية من 1930 سوف يبني تصور للتاريخ لا يتناول تاريخ المغرب إنطلاقا من علاقته بالغرب، و لكن عبر علاقة داخلية أين تظهر البلاد في صراع مع تاريخها الخاص* "[107]. و تجدر الإشارة هنا إلى نقطة محورية وهي أن جرأة شارل أندري جوليان في تناول هذا التاريخ لا تضاهيه إلا نضاله الطويل في التيار المعادي للاستعمار في فرنسا. إنه من طينة فئة من المثقفين ساندوا بإخلاص القضية الجزائرية في عز القمع الفرنسي أثناء حرب الجزائر التحريرية.

لم يكن شارل أندري جوليان المؤرخ الوحيد الشاذ عن القاعدة بل يمكن إدراج المؤرخ الفرنسي بول ألبير فيفري في نفس الخانة لأنه ساند بصدق القضية الجزائرية. ما يهمنا هنا هو مساهمته في بناء صرح الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.

4- مسار بول ألبير فيفري(1931-1991) ونهجه

يعتبر بول ألبير فيفري نموذجا فريدا من نوعه لمؤرخ عاش نهاية العهد الفرنسي بالجزائر و السنوات الأولى للإستقلال. يعتبر بول ألبير فيفري رمزا للمثقف الملتزم الذي

[105] Ageron, Ch-R., 1992, p. 404.
[106] Ageron, Ch-R., 1992, p.116.
[107] Stora, B., 2004, p. 217.

ساند الثورة الجزائرية مما خول له البقاء في البلاد بعد الإستقلال وبالتالي تأطير الطلبة في الجامعة وضمان التعليم فيها بعد رحيل الأساتذة الفرنسيين.

يمكن إدراج بول ألبير فيفري في مسار بعض المثقفين الفرنسيين الذين تبنوا أفكار إعادة تفكيك الإسطوغرافيا الكلاسيكية وتقديم بدائل للمقاربات والمناهج الكلاسيكية التقليدية السائدة قبل إستقلال أقطار المغرب الثلاثة. لم يكن الحافز لدراسة هذا المؤرخ هو غزارة إنتاجه المعرفي بل هو تأثير الثورة الجزائرية في نفوس الكثير منهم. إذن لا يمكن إنكار أن مفهوم *إنعتاق التاريخ** وبالتالي تحريره من الإيديولوجية إستهوى الكثير من المثقفين أمثال بول ألبير فيفري كما سوف نبرهن عليه في هذه الفقرة.

ما يعاب ربما على بول ألبير فيفري هو سذاجته التي جعلته يؤمن بالعلم المحض أي علم لا يمتزج بالأفكار السياسية و الإيديولوجية. لا يمكن نسيان أن لبول ألبير فيفري مقام رفيع بين كل دارسي تاريخ العصور القديمة لأنه رغم أنه تكون في مدرسة الميثاقيون* (Chartistes) إلا أنه لم يخف إعجابه بمدرسة الحوليات. إذن يعتبر بول ألبير فيفري حولياتي* بإمتياز. كان هذا الأخير متخصصا في العصور القديمة المتأخرة و لم يخف إعجابه الكبير بالمؤرخ هنري إيريني مارو الذي يعتبره أستاذه الوحيد والذي ينتمي إلى مدرسة الحوليات[108]. لكي نستوعب ونفهم الإنتاج المعرفي لبول ألبير فيفري علينا أن نشير إلى تشبع المثقفين الفرنسيين بفكرة الإمبراطورية التي كانت مرتبطة في مخيالهم بالإمبراطورية الرومانية ووريثتها الإمبراطورية الإستعمارية الفرنسية. و لكي نضع إنتاجه المعرفي في سياقه التاريخي علينا أن نشير إلى فكرة جوهرية ألحت عليها كليمونتين غوترون " *سياق تاريخي طبعه الانتقال من زمن إلى زمن ومن وضعية كولونيالية إلى عهد*

---

* سنتناول في الفصل الثالث نظرية إنعتاق التاريخ بالدراسة والتي دافع عنها الفيلسوف الجزائري محمد شريف ساحلي و المفكر المغربي عبد الله العروي. و إنعتاق التاريخ هي ترجمتنا لمصطلح décoloniser l'histoire.

* هي مدرسة عليا في فرنسا أوكلت إليها مهمة تكوين أساتذة التاريخ و ينتسب أعضاءها إلى المدرسة الوضعية في التاريخ.

* الحولياتي هو من ينتمي إلى مدرسة الحوليات التي سوف نتناولها بالدراسة في الفصل الثالث.

[108] Gutron, Cl., 2008, « Février Paul-Albert », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, p. 385.

الدولة الوطنية "[109]. كان بول ألبير فيفري بحق رائدا لمقاربة إنعتاق الأركيولوجيا على حد تعبير كليمونتين غوترون.

كان بول ألبير فيفري في سنة 1955 منضويا تحت ما يسمى بمدرسة روما الفرنسية (EFR)، وفي تلك الفترة كانت لديه قناعة أن الإيديولوجية والمعرفة خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا، لكن لقاءه مع بول فين (Paul Veyne) وحروب التحرير الوطنية رسخت في ذهنه قناعة أخرى. وفي أوج حرب الجزائر التحريرية وجد بول ألبير فيفري نفسه في قلب الصراع داخل مدرسة روما الفرنسية حول أخلاقية المشاركة في التنقيب عن الآثار في مستعمرة قد دخل شعبها في ثورة عارمة[110]. أدرج اسم بول ألبير فيفري في خانة " مسيحيو اليسار الملتزمين " الذين ساندوا الثورة الجزائرية ومن بين المثقفين الذين يمكن إدراجهم في هذه الزمرة نجد : بيار فيدال ناكي (Pierre Vidal-Naquet) وأندري ماندوز وهنري إيريني مارو[111]. علينا التذكير بأن بول ألبير فيفري جند في حرب الجزائر ما بين 1957 و1960، كما لا يجب أن ننسى أن مساندة بول ألبير فيفري للثورة الجزائرية مكنه من مزاولة نشاطاته بالجزائر والعمل فيها بعد الإستقلال[112].

لقد شفع إلتزام بول ألبير فيفري مع الثورة الجزائرية له بحيث بقي أستاذا في جامعة الجزائر بعد الاستقلال موازاة مع بقائه تحت مضلة مركز الأبحاث حول إفريقيا المتوسطية. كانت بصمة بول ألبير فيفري واضحة في جزأرة (algérianisation) علم الحفريات أو الأركيولوجيا. في سنة 1967 وافق بول ألبير فيفري على تيغير وضعيته القانونية من أستاذ أجنبي إلى أستاذ جزائري في حين أنه استطاع أن يحظى بثقة السلطات الجزائرية التي منحت له منصب المستشار التقني في وزارة التربية الوطنية. في هذا السياق أوكلت إليه مهمة صياغة تشريع متعلق بالأركيولوجيا الوطنية[113]. من بين الوظائف التي شغلها بول ألبير فيفري نجد وظيفة مفتش الآثار القديمة (1965-1968) وهذا المنصب خول له

[109] Gutron, Cl., 2014, p. 163.
[110] Gutron, Cl., 2014, p. 163.
[111] Gutron, Cl., 2014, p. 165.
[112] Gutron, Cl., 2008, p. 385.
[113] Gutron, Cl., 2014, p. 166.

المشاركة في التنقيبات في مواقع سطيف وجميلة وتيبازة وتبسة. كان ما يهم بول ألبير فيفري وراء كل هذه التنقيبات هو إعطاء قراءة علمية لإنتقال بلاد المغرب الكبير من العصور القديمة المسيحية إلى العصور الوسطى الإسلامية[114]. ولا يضاهي شغف بول ألبير فيفري بدراسة وتنقيب أثار الجزائر إلا شغفه بدراسة منطقته الأصلية والتي كانت مصدر إلهام لأطروحته الجامعية الموسومة ب " النمو العمراني في منطقة بروفانس من البدايات إلى نهاية القرن السادس عشرة[115].

ترك بول ألبير فيفري بصمته في الأركيولوجيا الجزائرية خاصة حين أنشأ نشرة الأركيولوجيا الجزائرية (Bulletin d'archéologie algérienne) ووضع اللبنات الأولى للأركيولوجيا الوطنية الجزائرية. يعتبر كتابه الشهير *مقاربة لبلاد المغرب الرومانـي*[116] هاما ومؤسسا لإسطوغرافيا بلاد المغرب القديم، ويحلو لطلبته الجزائريين الذين حملوا المشعل من بعده أن ينادوه بشيخ الجزائر [117]. يعتبر بول ألبير فيفري مثال لمؤرخ فهم التحول العميق الذي أحدثته حرب الجزائر سواء في السياسة أو في العلوم الإنسانية، ويظهر ذلك جليا في تبنيه لمقاربة إنعتاق التاريخ.

بعد أن تفرغنا من الحديث عن إسهام بول ألبير فيفري سوف نطوي صفحة الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية لنتناول بالدراسة كيف ظهر تاريخ مضاد ألا وهو الإسطوغرافيا الوطنية الجزائريةٌ.

V- نشأة الإسطوغرافيا الجزائرية

عشية الذكرى المئوية لإحتلال الجزائر تبلورت إسطوغرافيا جزائرية معاصرة كان من بين أشهر روادها أحمد توفيق المدني وسي أعمر بوليفة ومبارك الميلي، الذين سوف ينيرون الدرب لغيرهم من أمثال محمد شريف ساحلي صاحب كتاب رسالة يوغرطة [118].

---

[114] Gutron, Cl., 2008, p. 385.

[115] *Le développement urbain en Provence des origines à la fin du XVIe siècle*.

[116] Approche du Maghreb romain.

[117] Gutron, Cl., 2014, p. 168.

[118] *Le message de Jugurtha*.

فكان وضع هذا العنوان الذي يحيل إلى يوغرطة بطل المقاومة النوميدية ضد الرومان والجزائر تحت وطأة الاحتلال له مغزى عميق و من بين هؤلاء المؤرخين إخترت نموذجين وهما : سي أعمر أوسعيد بوليفة ومبارك الميلي.

1- مقاربة سي أعمر بوليفة للتاريخ القديم لمنطقة القبائل

يمكن إعتبار عدم الإحالة في الإسطوغرافيا الجزائرية إلى كتاب سي أعمر بوليفة*[119] : جرجرة عبر التاريخ. (منذ العصور القديمة إلى 1830) [120]، الذي نشر عام 1925، من المسكوت عنه في التاريخ الجزائري، الرسمي والأكاديمي. لم يمنع تجاهل إسهام المخبرين و المساعدين الأهالي في الإنتاج المعرفي الذي أعده العسكريون والمترجمون سي أعمر بوليفة أن يكون أول مؤرخ جزائري بالمفهوم المعاصر للكلمة، ومن هذا المنطلق يعتبره ميشال سال لوفرون (Michèle Selles-Lefranc) همزة وصل بين ناقل المخبر والمؤلف[121]. و يبدو أن هذه ظاهرة جمع المعلومات عن المجتمع المحلي للضباط-الأنثروبولوجيين بالنسبة إلى بوليفة هي تقليد عائلي، حيث تقمص خاله، من عائلة أيت عامر العريقة بالأربعاء نايت إيراثن، هذا الدور بإتقان حين جمع المعلومات اللازمة

* يعتبر من بين المؤرخين الجزائريين الأوائلا. لقد مارس مهنة التدريس في المدرسة العليا للأساتذة. ولد هذا المؤرخ في قرية إرجن، التابعة للبلدية المختلطة الأربعاء نايت إيراثن، حوالي عام 1865، ويعود الفضل لأخواله في تسجيله في مدرسة قرية تمزيرت، التي كانت من بين المدارس الأولى التي فتحتها الإدارة الفرنسية في المنطقة سنة 1873[119]. نجابته وإتقانه لثلاثة لغات، الفرنسية، العربية والقبائلية، أهله ليرتقي في السلم الاجتماعي ويتبوأ مناصب كبيرة في التعليم: مدرس مساعد (moniteur adjoint)، ناظر دروس (répétiteur de kabyle) سواء في المدرسة العليا للأساتذة أو بجامعة الجزائر بالقرب من روني باسي (René Basset) وهذا منذ 1901.

[120] Boulifa, S. A., 1924, *Le Djurdjura à travers l'histoire. (Depuis l'Antiquité jusqu'en 1830). Organisation et indépendance des zouaouas.* (*Grande Kabylie*), Alger.

[121] Selles-Lefranc, M., 2006, *Le Djurdjura à travers l'histoire* (*1925*) : *histoire modèle d'une* « *fraction du monde berbère* » *ou exemple d'une construction autochtone de savoir à l'Ecole des Lettres d'Alger ?* In Outre-mer, tome 3, n° 352-353, savoirs autonomes XIX-XX siècles, p. 79.

للجنرال هانوتو والقاضي لوترنو، صاحبي الكتاب الذائع الصيت: أعراف منطقة القبائل[122].

لقد كان لكل من بوليفة وبن شنب شرف المشاركة في المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين الذي عقد في الجزائر سنة 1905. بعد ذلك نشر بوليفة مقالات في المجلة الإفريقية، عدد 1910، قبل أن يتول الإشراف على أربعة تنقيبات للحفريات في سيباو الأعلى (Haut Sébaou)، عزازقة، وتتميز هذه المنطقة بوجود نقوش للغة الليبية. وفي هذا المقام علينا أن نشير إلى تحكم سي أعمر بوليفة في العلوم المساعدة للتاريخ مثل الحفريات، والنقوش والإتيمولوجيا[123]. يظهر تأثير هذه البعثات الاستكشافية جليا على تأليف كتابه في المقدمة التي كتبها حيث يقول: " *توصلت أن أستكشف منطقة واسعة أين نجد مخلفات حضارات قديمة منتشرة في كل مكان* "[124]. و رغم العدد الهزيل من الصفحات،و المقدر بتسعة صفحات، الذي خصصه للعصور القديمة في منطقة القبائل الكبرى، وهي تسمية تطلق على المنطقة الإدارية (arrondissement) لتيزي وزو، إلا أن زيارة بوليفة لزاوية سيدي منصور كان مصدر إلهام له، ولقاؤه بشيخ الزاوية الذي إستضافه وقدم له ترجمة حول حياة الولي الصالح المؤسس لهذه الزاوية بدد لديه كل الشكوك مما ساعده على البدء في تحرير صفحات الكتاب. فإنطلق من فكرة كتابة مونوغرافية عن الزاوية قبل أن يوسعها إلى القبيلة التي أوت ضريح الشيخ، قبيلة بني جناد، وميزة موقع هذه القبيلة أنه يقع في منطقة مرت عليها الحضارات القديمة " *دلس، أزفون وجمعة سحاريج هي ثلاثة مراكز معروفة منذ العصور القديمة والتي تشكل أقصى حدود هذه القبيلة* "[125]. قلة وشح المعلومات عن المنطقة في العصور القديمة كان عائقا كبيرا إعترض مهمة سي أعمر بوليفة، حيث يقول في هذا الصدد: " *المعلومات التي نملكها حول الأزمنة الأولى و البدائية لمنطقة القبائل كانت غامضة* "[126]. إذا ما استثنينا الجزء الرابع

[122] Coutumes kabyles.
[123] Selles-Lefranc, M., 2006, p. 86.
[124] Boulifa, S. A., 1925, p. I.
[125] Selles-Lefranc, M., 2006, p. II .
[126] Selles-Lefranc, M., 2006, p. II.

من كتاب قزال، الصادر عام 1914، وكتاب تاريخ الجزائر في القديم للمؤلف نفسه ، فإن سي أعمر بوليفة إستعان بيبلوغرافية شحيحة تتكون أساسا من أقلام تكاد تكون مغمورةمغمورة أمثال : بواسيي وكتابه إفريقيا الرومانية؛ كلانسول (Clansolles) صاحب كتاب الجزائر الجذابة؛ قاليبر (Galibert) صاحب كتاب الجزائر في العصور القديمة والحديثة.

يظهر سي أعمر بوليفة في مقدمة الكتاب تأثره بمدرسة علم الاجتماع الفرنسية حيث أنه يقر فيها بالطابع السوسيولوجي لكتابه[127]. تعود بداية إستكشاف منطقة القبائل الكبرى إلى الفترة التي أعقبت إخضاع المنطقة سنة 1857.في تلك الظروف قام الرائد كريستيان فينيرال (Christian Vigneral) بعملية جرد للمخلفات الأركيولوجية الموجودة في المنطقة ليدلي بدلوهم عساكر آخرون قبل توكل المهمة إلى أول مدني كاميل فيري (Camille Viré) سنة 1898 الذي أخذ على عاتقه مواصلة أبحاث من سبقوه[128]. إبحار سي أعمر بوليفة في اللغة واللسانيات جعله يقر بوجود تأثير فينيقي على أسماء المدن في تلك المنطقة، مزيج بين الليبية و الفينيقية [129]. والمدن التي يحيل إليها هي: دلس (Rusuccuru) وتيغزيرت (Iomnium) ثم تقصبت (Rusippisir)، وهي مدن جاء ذكرها في القرن الثاني والثالث الميلاديين. ما يهمنا أن مدينة روسوكورو- دلس- كانت تخضع لها المدينتين الأخريين وهي بدورها تابعة لمملكة موريتانيا وقد لعبت دورا في الحرب الأهلية في روما ووقفت في صف قيصر[130]. و في نظر سي أعمر بوليفة هذه المنطقة لم يخضعها الرومان إلا بعد ثورة فيرموس (Firmus) وإخوانه في القرن الثالث الميلادي[131]، ويتساءل سي أعمر بوليفة بدوره عن سكوت المصادر حول المنطقة في عهد يوبا الثاني " *وهكذا نجهل*

[127] Selles-Lefranc, M., 2006, p .VI.
[128] Laporte, J-P., 2004, « Kabylie antique *», Ency. ber*, t.XXVI, Paris, p. 4000.
[129] Boulifa, S. A., 1925, p. 4-5.
[130] Laporte, J-P., 2013, « Notables de Rusuccuru (Dellys) et de ses pagi : Iomnium (Tigzirt) et Rusippisir (Taksebt) », Bulletin Archéologique, Paris, p. 73-102.
[131] Boulifa, S. A., 1925, p. 6.

كل شيء حول الإمكانيات السياسية والعسكرية التي استخدمها الرومان للدخول والاستقرار في منطقة القبائل "[132].

مهما يكن فقد كان لسي أعمر بوليفة السبق في الدراسات التاريخية أما عن إهمال المؤرخين اللاحقين له فالتأمل في مسيرة يمكن أن يقدم لنا تفسيرا منطقيا : إهتمامه بإحياء اللغة " الأمازيغية " من جهة وأخذ دعاة البربرية مناضلي" الأزمة البربرية لعام 1949 " كمرجعية لهم أسدل ضلال النسيان على مثقف جزائري شبه منبوذ.

إذا أدرجنا سي أعمر بوليفة في خانة أول مؤرخ جزائري كتب باللغة الفرنسي فما هو يا ترى حال التاريخ المكتوب باللغة العربية.

2- مبارك الميلي (1889-1945) و التاريخ القديم للجزائر

رغم دفاع الحركة الإصلاحية الجزائرية المستميت عن عروبة و إسلام الجزائر إلا أن مؤرخي هذه الحركة كان لهم السبق في تناول الماضي " الأمازيغي " و " البربري " لبلاد المغرب الكبير بالدراسة وبالتالي عدم تجاهل وإهمال هذا البعد الحضاري لهوية الشعب الجزائري. يمكن القول بصفة عامة أن مؤرخا الحركة الإصلاحية، أحمد توفيق المدني ومبارك الميلي*[133]، إمتلكا الجرأة وتناولا تاريخ الجزائر القديم بالدراسة، وما يهمنا في هذا المقام هو تسليط الأضواء على كيفية تناول " عالم " إصلاحي جزائري، مبارك الميلي، الذي إشتهر أساسا بمحاربته للشعوذة والطرقية، لتاريخ الجزائر قبل الفتح الإسلامي.

---

[132] Boulifa, S. A., 1925, p. 6.

* ولد مبارك الميلي بمدينة الميلية في نهاية القرن التاسع عشر(1889). تلقى في البداية تكوينا تقليديا حيث درس في مدرسة قرآنية قبل أن ينتقل إلى جامع الزيتونة بتونس ما بين 1919 و1922، إلى أن سطع نجمه في الصحافة وبالظبط في المنتقد والشهاب، قبل أن يكون عضوا فعالا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تأسيسها.

كان الشيخ مبارك الميلي وعلى نقيض مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية مؤرخا هامشيا لأنه كان بعيدا عن السلطة السياسية. فلا مكانته كرجل ديني ولا اللغة التي يكتب بها، اللغة العربية، تتيح له فرصة أن تسلط الأضواء عليه وعلى كتاباته. رغم كل هذه العوائق إلا أنه رفع تحد الكتابة عن تاريخ الجزائر القديم.

لم يكتمل مشروع مبارك الميلي، كتابة "*تاريخ الجزائر في القديم و الحديث* "، لأن "*الجزء الذي سوف يتطرق فيه إلى العصور الحديثة لم ينشر إطلاقا* "[134]. ما يهمنا هنا هو كيف لرجل دين يؤمن بمقولة أن "*أسلمة شمال إفريقيا أسست الأمة الجزائرية* "[135]، أن يدير ظهره لتقليد الإسطوغرافيا الإسلامية الكلاسيكية التي تتجاهل حقبة العصور القديمة ويرفع تحدي الكتابة عن تلك الحقبة رغم جهله للغة الفرنسية، اللغة التي كتبت بها معظم المراجع والمصادر، وقد عبر عن معاناته من عدم التمكن من اللغة الفرنسية و كيف إستطاع أن يتجاوز هذا العائق حين إستعان بمترجمين فكتب معلقا على ذلك :" *وكلما أجملت لهم اعتذاري أجمل شكري لمن أمدني منهم بإعارة كتاب أو دلني عليه. و أخص منهم بالذكر الشابين المخلصين صديقي أحمد توفيق المدني وعمرو دهينة حامل شهادتي التعليم بالمكاتب الفرنسية والترجمة بالمحاكم الشرعية. فقد عربا لي فصولا من الفرنسية و بذلا في إعانتي كل ما في إستطاعتهما الأدبية* "[136]. لقد أثار إيف موديران (Yves Modéran) النقاش و فتح باب الجدل حول المعارف المتوفرة في الإسطوغرافيا الإسلامية حول العصور القديمة المتأخرة ومقارنة ذلك بالمصادر الأخرى: التداول المفرط لكلمة " البربر "، أسماء القبائل مختلفة عن سابقاتها و نسيان كل ما له صلة بالبربر والرومان[137]. هناك العديد من الأساطير و التصورات نشأت في العصور الوسطى كتعريب وأسلمة سريعة لبلاد المغرب الكبير إلى جانب الإستعانة بعلم الأنساب لتفسير أصول البربر. قبل أن

---

[134] Merouche, L., 1999, p. 194.

[135] Hannouz, A., 2014, « Mémoire et patrimonialisation d'un passé antéislamique : Mubârek al-Mili et l'ethnogenèse du peuple algérien », *L'Année du Maghreb*, Paris, p. 117.

[136] الميلي، م. م.، دون تاريخ، *تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الأول*، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص. 13.

[137] Hannouz, A., 2014, p. 118.

تدرج أعمال أحمد توفيق المدني ومبارك الميلي ضمن كلاسيكيات الإسطوغرافيا الوطنية الجزائرية، علينا أن نشير إلى أن تلك الأعمال كانت موجهة في الأساس إلى المدارس الحرة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتكون وسيلة بيداغوجية بين أيدي المعلمين يستخدمونها في دروسهم[138].

و يرى عمر حنوز أن الشيخ مبارك الميلي كان متأثرا بالإنتاج المعرفي للجمعيات العالمة ويستدل بالمبحث الذي خصصه لأصول " البربر " وهي أهم تساؤلات الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية، فالفكرة القائلة أن أصول " البربر " من الشرق أي من أسيا هي من نتاج تلك الجمعيات العالمة[139]. أما فيما يخص المنهجية التي إعتمد عليها مبارك الميلي ومصادره فقد تأثر بالمنهج الغربي خاصة الفرنسي فهو يحيل إلى مراجعه في أسفل الصفحة*.

قراءة متأنية لمحتوى الكتاب الأول في تاريخ الجزائر قبل " الإستيلاء العربي" على حد قوله تعطي لنا فكرة عن تصور الشيخ للتحقيب. من وجهة نظر مبارك الميلي هناك حد فاصل بين الفتح الإسلامي و ما سبقه. إذن هناك تاريخ لما قبل الفتح الإسلامي و تاريخ لما بعده و علينا أن نشير في هذا المقام على أن مبارك الميلي فضل أن يستعمل عبارة الفتح التي فضلها على كلمة الإستيلاء المترجمة. في صدد حديثه عن أصول البربر، هو هنا يسير في نهج المؤرخين الفرنسيين، الشيخ مبارك الميلي يؤمن بفكرة دينية أن بلاد ما بين النهرين هي مهد البشرية، متأثرا هنا بقصة الطوفان الواردة في القرآن الكريم. و في هذا الإطار وجد الشيخ نفسه أمام نظريتين تحاولان فك رموز أصول " البربر"، تلك المستقاة من علم الآثار و المصادر الكلاسيكية من جهة وما جاء به علماء الأنساب المسلمين من جهة أخرى. لقد ربط مبارك الميلي بين مخلفات إنسان فجر المتوسط والنظرية الدينية القائلة بأن شعوب

---

[138] Hannouz, A., 2014,.121

[139] Hannouz, A., 2014, p. 123.

* إعتمد الشيخ مبارك الميلي على بيبلوغرافيا ثرية: ستيفان قزال، إميل فيليكس غوتيي، جورج مارسي (Georges Marçais)، إرنست مرسيي، لويس رين وألبير مالي (Albert Mallet)، ويجب هنا علينا أن نضع في ذهننا العمل الجبار الذي قام به الشيخ والمتمثل في قراءة المراجع والاعتماد المفرط على المترجمين.

جنوب أوربا هم أبناء قطوبال بن يافث بن نوح. ما يؤاخذه مبارك الميلي على هذه النظرية هو أن المقاييس التي تعتمد عليه لتحديد معالم " جنس "، اللغة، الصفات الجسمانية، اللباس، الأدوات والفخار، ليست كافية. في هذا الصدد لقد ألح الشيخ على وجوب الإعتماد على علم الأنساب لفك هذه المعضلة[140]، وهنا يبدوا تأثير إبن خلدون واضحا عليه. ومن المتعارف عليه أن علم الأنساب كان تركة ورثتها الإسطوغرافيا الإسلامية عن مصدرين وهما القرأن الكريم والحديث النبوي الشريف من جهة وعلم الأنساب الذي إهتم به المجتمع العربي القبلي في الجاهلية من جهة أخرى[141].

يبدوا جليا أن الشيخ مبارك الميلي إعتمد بشكل مفرط على المصادر الفرنسية في تاريخه ولكن هذا لم يمنعه من أن يتبنى تحقيبا خاصا به. في هذا الصدد أخذ الشيخ مبارك الميلي واقعة تاريخية وهي الفتح الإسلامي لبلاد المغرب كمعيار للتحقيب وعلينا أن نشير هنا إلى فكرة جوهرية ألا وهي أن المؤرخون الغربيون يعتبرون سنة 476 م وهو تاريخ سقوط روما كحد فاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى. يظهر ضمنيا من خلال التحقيب الذي إعتمد عليه الشيخ مبارك الميلي أنه لم يكن يرى بعين الرضا لهذا الطرح لهذا نجده قد تبنى أطروحة جديدة ألا وهي أن نهاية العصور القديمة في بلاد المغرب الكبير تؤرخ بداية من القرن السابع للميلاد.

خصص مبارك الميلي الباب السادس من كتابه الرومان وحكومتهم في الجزائر للعهد الروماني في الجزائر وهو يشمل ثمانية وستين صفحة، من صفحة 242 إلى صفحة 320. من بين الأخطاء التي وقع فيها الكاتب نجد الإسقاط حيث تحدث عن وجود وطن جزائري في تلك الفترة[142]. كما إستعان بشكل مفرط بإرنست مرسيي. كان الحكم الذي أصدره مبارك الميلي على التواجد الروماني جد قاسيا ويبدوا من الوهلة الأولى أنه دحض مقولة إزدهار بلاد المغرب الكبير، وعبر عن ذلك بقوله: " *لم يبق من مدنية روما غير*

---

[140] Hannouz, A., 2014, p.126 .

[141] Sebti, A., 2007, « *Tradition culturelle et genres historiographiques* », écritures de l'histoire du Maghreb,Identité, mémoire et historiographie, Casablanca, p. 25.

[142] الميلي، م. م.، دون تاريخ، ، ص. 255.

الخرابات و الأحجار المنقوشة، و لو أثرت روما في البربر حقيقة لبقي من حضارتها أشياء أخرى غير الخرابات "[143]. يندرج " تاريخ " مبارك الميلي ضمن التاريخ المضاد و الجدالي الذي كتب للرد على كتابات الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية للعصور القديمة التي مدت جسور التواصل مع إفريقيا الرومانية، رمز فرنسا اللاتينية و المسيحية.

لقد أصدرت مطبعة المعارف الجديدة بالرباط في 2007 ترجمة لكتاب ستيفان قزال " *تاريخ شمال إفريقيا القديم* " الذي ترجمه محمد التازي سعود لفائدة أكاديمية المملكة المغربية[144]، وبعد ذلك بستة سنوات حذت وزارة الثقافة الجزائرية حذو الأشقاء المغاربة وطبعت الأجزاء الثمانية لكتاب قزال في نسختها الأصلية[145]، ويدل هذا بشكل ملفت للإنتباه على تأثير الإسطوغرافيا الكولونيالية على الباحثين وعلى المؤسسات العلمية المغاربية حتى بعد عشريات من الإنعتاق والاستقلال. حسب وجهة نظري هذا المثال البسيط يعتبر سببا كاف لتناول موضوع الإسطوغرافيا بالدراسة.

لقد نشأت تقريبا تلك الإسطوغرافيا من العدم، فلولا بعض المؤسسات مثل لجنة الاستكشاف العلمي للجزائر وبعض الجمعيات العالمة والمجلات المتخصصة لما رأت تلك الإسطوغرافيا النور. خلال السنوات الطويلة التي تسبق ظهور المؤرخين الأوائل أمثال إرنست مرسيي وستيفان قزال شكلت الحفريات والعلوم المساعدة للتاريخ أرضية مهدت الطريق أمام المؤرخين لنشر أعمالهم. في هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن جامعة الجزائر تأسست في بدايات النظام المدني عام 1880، وفي رحم هذه المؤسسة تشكلت ما يعرف ب " *المدرسة التاريخية الجزائرية* " والتي نذكر من أهم روادها ألبرتيني وقزال. يعود الفضل إلى هذين الأخيرين في نشر الحصيلة الأولى للإسطوغرافيا، وكان للتوظيف الإيديولوجي والسياسي للتاريخ عواقب لم تكن في بال أي أحد من السياسيين والمؤرخين الفرنسيين وهي ظهور " *تاريخ مضاد*" أو بمعنى آخر نحن هنا أمام الإرهاصات الأولى للإسطوغرافيا الجزائرية المعاصرة.

---

[143] الميلي، م. م.، دون تاريخ، ص. 317.

[144] اصطيفان اكصيل، 2007، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة سعود، م. ت.

[145] Gsell, S., 2013, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, 8 tomes, Alger.

خلاصة القول أن الإسطوغرافيا هي تاريخ التاريخ فكما نكتب تاريخ الأحداث يمكننا أن نكتب تاريخ التاريخ في أرض الجزائر.

الفصل الثالث

تطبيق مقاربة التاريخ الجديد على تاريخ الجزائر القديم

من بين كل من نادى بتطبيق مقاربة " التاريخ الجديد " على تاريخ بلاد المغرب الكبير عموما وعلى تاريخ الجزائر خصوصا وقع إختيارنا على كل من فرناند بروديل وعبد الله العروي، ونصب في هذا المقام إلى معرفة أسباب إزدرائهما لإسطوغرافيا العهد الروماني سواء كانت كلاسيكية أو فرنسية كولونيالية، لنصل إلى التساؤل عن نمط التاريخ الجديد الذي يدعوان إليه. ينتمي كلا المؤرخين إلى مدرستين فكريتن تقوم أسسهما النظرية على الإقتصاد: النظرية الماركسية بالنسبة إلى العروي ومدرسة الحوليات بالنسبة إلى بروديل. فرضت هاتين المدرستين نفسيهما على الساحة الفكرية خلال فترة ما بين الحربين 1918-1939 ليزداد نفوذهما تعاظما مع الحرب الباردة وحركات التحرر، وقد كانت الجزائر مرة أخرى مصدر إلهام لكل من فرناند بروديل وعبد الله العروي.

إن إعتمادنا على مقاربة تفكيك الإسطوغرافيا الكلاسيكية له مغزى و ما يبرره من الناحية المنهجية. لقد نزف إستقلال بلدان المغرب الكبير بالمقاربات التقليدية في تناول تاريخ المنطقة خاصة مع نشر أعمال تتبنى طرح إخضاع الإنتاج المعرفي التاريخي للنقد و التمحيص. كان الفيلسوف الجزائري محمد شريف ساحلي أول من أطلق هذه الدعوة وما يثير الانتباه هنا هو إحالته في أبحاثه إلى أعمال فرناند بروديل ولوسيان فيفر، ولم يبق محمد شريف ساحلي مجهولا بل لقي المصطلح الذي إبتكره إنعتاق التاريخ رواجا واسعا إلى درجة أن مفكرين مغاربة ذائعي الصيت تبنوه ونخص بالذكر كل من المفكر المغربي عبد الله العروي والمثقف الجزائري مصطفى لشرف. المهم أن المقاربة نفسها تقريبا تبناها بول ألبير فيفري فيما يخص العصور القديمة، وقد كان علينا في المقام الأول أن نبين لماذا تطرقنا إلى فرناند بروديل ومدرسة الحوليات في هذا الفصل.

ا –مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد

تعتبر الفترة الممتدة بين 1900-1929 بمثابة سنوان المخاض التي تشكل خلالها فكر وروح ومنهجية ما يسمى بمدرسة الحوليات. إن الجدل الكبير والنقاشات الصاخبة بين علماء الاجتماع الذين كانوا يطمحون إلى " *تحقيق توليفة بين العلوم الإجتماعية* " كان له

عواقب حيث تبنت نفس الخطاب مدرسة فيدال* الجغرافية ومدرسة الحوليات، بيد أن المختصين قد ميزوا بين ثلاثة أجيال من رواد هذه المدرسة، ونتطلع إلى تسليط الضوء على جيل المؤسسين من أمثال لوسيان فيفر ومارك بلوخ، وكذا الجيل الذي تلاه مباشرة، وهو جيل فرناند بروديل وشارل موزاري (Charles Mozaré) وجورج فريدمان (Georges Friedmann). ماذا يمكن أن نقوله عن جيل الآباء المؤسسين؟.

1-الجيل الأول لمدرسة الحوليات: الأصول والمشروع

تتحكم اليوم مدرسة الحوليات في دواليب المؤسسات العلمية والأكاديمية بفرنسا سواء تعلق الأمر بالمجلات والإعلام والتجارة وحتى المؤسسات الثقافية، ويتفاخر معظم المنضوين تحت لواء مدرسة الحوليات بالهالة التي تحيط بإسطوغرافيتهم التي يحلوا لهم أن يسموها بالتاريخ الجديد.

رافق بزوغ نجم مدرسة الحوليات جدل واسع بين المؤرخين والباحثين لأن المؤرخين الحولياتيين لم يخفوا إزدرائهم للمدارس التاريخية الأخرى وإحتكروا مصطلحات ومناهج وحتى" *لغة العلوم السياسية الأخرى*" على حد تعبير فرانسوا دوس (François Dosse)[1]، ويعتبر هذا الأخير مؤرخ مدرسة الحوليات بإمتياز حيث كرس لهذه المدرسة كتاب يتطرق إلى تاريخ هذه المدرسة تحت عنوان التاريخ المفتت.

تزامن تأسيس مجلة الحوليات أو بتعبير أدق حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (Annales d'histoire économique et sociale)، مع بداية الأزمة الإقتصادية

---

* بعتبر فيدال دو لاباش (1845-1919) من أشهر الجغرافيين الفرنسيين وهو مؤسس الجغرافيا الإنسانية. لقد تخرج سنة 1866 من المدرسة العليا للأساتذة بباريس في تخصص التاريخ و الجغرافيا. وبعد ذلك أوكلت إليه مهمة التدريس في جامعة نانسي بداية من عام 1872. وأحدث ثورة في الجغرافيا حين أدخل إليها مفاهيم إستقاها من الجيولوجيا و العلوم الطبيعة. للمزيد من المعلومات حول هذه الشخصية أنظر Siegfried, A., *Tableau politique de la France de l'Ouest sous la Troisième République*, Bruxelles, p. XI ; Gallois, L., 1918, « Paul Vidal de la Bache », Annales de Géographies, t 27, n 147,Paris, p. 11-173.

[1] دوس، ف.، 2009، *التاريخ المفتت. من الحوليات إلى التاريخ ألجديد*، ترجمة المنصوري، م. ط.، بيروت، ص. 28.

العالمية سنة 1929، وقد كانت هذه المصادفة ماثلة للعيان إلى درجة أن هناك من إعتبر تأسيس هذه المجلة بمثابة رد فعل مباشر على تلك الأزمة، ويعبر عن ذلك فرنسوا دوس قائلا: " *لا يمكن إختزال مشروع مارك بلوخ ولوسيان فيفر إلى رد فعل منظم لمجموعة من المؤرخين أمام أزمة إندلعت بصورة واضحة بعد إنهيار بورصة وول ستريت* (Wall Street) *في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1929 في حين أن المجلة صدرت في كانون الثاني/ يناير من العام نفسه، وتعود كمشروع إلى فترة ما بعد الحرب مباشرة* "[2]. فسر فرانسوا دوس إزدراء الحولياتيون للتاريخ السياسي وتحويل نظرهم إلى الإقتصاد بالحضور القوي للإقتصاد في الحياة السياسية والعلاقات الدولية لفترة ما بين الحربين التي تميزت بإنتصار الشيوعية في روسيا، وتعويضات ما بعد الحرب، والسياسة النقدية في فرنسا والبرنامج الانتخابي لروزفلت. ما يهمنا هنا هو أن الإقتصاد كان " *المقياس الذي يفكر من خلاله مجتمع سنوات العشرينيات والثلاثينيات* "[3].

قدم فرانسوا دوس عدة براهين وحجج ليشرح لنا لماذا أدار المفكرون ظهورهم للتاريخ التقليدي وتبنوا التاريخ الإقتصادي، حيث يرى بأن الحرب العالمية الأولى 1914-1918 التي خلفت الملايين من القتلى قد أثرت بشكل مباشر على هذا التحول لأنها دقت ناقوس الخطر وألقت بالمسؤولية المعنوية على عاتق التاريخ التقليدي الذي يسمى ب: التاريخ-المعركة، والتاريخ-القومي. يضاف إلى هذا العامل الأول، بروز القوى العالمية الجديدة خاصة اليابان وأمريكا، وهو ما عجل في تخلي المثقفين الأوربيين عن المركزية الثقافية الأوربية (Ethnocentrisme).

تشكلت مدرسة الحوليات كرد فعل مباشر على الجيل السابق من المؤرخين على غرار لافيس (Lavisse) وسينيوبوس ولانغلوا[4]، لكن ما نود معرفته هو خلفية إقتران إسم مدرسة الحوليات بنعت التاريخ الجديد؟

---

[2] دوس، ف.، 1997، ص. 36.
[3] دوس، ف.، 1997، ص. 37.
[4] دوس، ف.، 1997، ص. 38.

يطرح مفهوم التاريخ الجديد إشكالا عويصا لأن كل تاريخ، مبدئيا، هو تاريخ جديد، وخير دليل على ذلك هو ما فعله جيرارد نواربيل عندما سار على خطى الإسطوغرافي الإيطالي بنديتو كروشي حين أطلق صرخته الشهيرة " *كل تاريخ هو تاريخ معاصر* "[5]. يتأسس هذا الإعتبار على مفهوم التعاصرية (Contemporanéité) التي إستخلصها جيرارد نواربيل من المقاربة التي جاء بها مارك بلوخ " *في سرمدية الزمن الطويل يكون الحاضر دائما جزء من الماضي* "[6]. من هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج أن الميادين والمجالات التي يدرسها التاريخ قد إتسعت لدراسة الحاضر في حين أن في نظر الكثيرين تعتبر دراسة الحاضر من إختصاص الصحفيين. خلاصة القول أن إهتمام الآباء المؤسسون لمدرسة الحوليات بالحاضر أرغمهم على ضم إختصاصي العلوم الإنسانية الأخرى إلى هيئة تحرير مجلة الحوليات وأخص بالذكر هنا كل من موريس هالبواش (Maurice Halbwachs) والجغرافي والمحلل السياسي أندري سيغفريد (André Siegfried).

يعتبر ثنائي مدرسة ستراسبورغ (Strasbourg) مارك بلوخ ولوسيان فيفر بمثابة المؤسسين التاريخيين لمدرسة الحوليات، والقاسم المشترك بينهما هو إنتمائهما إلى مجلة التوليف التاريخي (La Revue de synthèse historique) التي أسسها هنري بر (Henri Berr). لقد أشرنا إلى إرتباط كل من مارك بلوخ ولوسيان لوففر بهذه المجلة لنبرز تأثيرها العلمي عليهما، وفي هذا الصدد دعا هنري بر إلى تبني تاريخ جديد يدرس الواقع " *بجميع أبعاده من الإقتصادي إلى الذهني* "[7]. لكن السؤال المطروح هو لماذا حدثت قطيعة بين ثنائي جامعة ستراسبورغ وهنري بر؟ يفسر فرانسوا دوس صدور مجلة الحوليات كرد فعل مباشر على تهرب هنري بر من " *أن يؤسس حول شخصه مدرسة على عكس ما فعله علماء الاجتماع حول دوركايم* "[8]. ما يهمنا هو أن تحقيق توليف أو بمعنى أدق تحصيل ودمج العلوم الاجتماعية كان هدف الدوركايميون والمدرسة الجغرافية ومجلة التوليف التاريخي. وقد تبنا كل من مارك بلوخ ولوسيان فيفر بدورهما هذه الإستراتيجية.

---

[5] دوس، ف.، 1997، ص. 35.

[6] Noiriel, G., 1998, p. 22.

[7] دوس، ف.، 1997، ص. 71.

[8] دوس، ف.، 1997، ص. 73.

حدثت مع الجيل الأول لمدرسة الحوليات قطيعة ما بين مقاربة ومنهجية رواد التاريخ الجديد والمدرسة التاريخية التقليدية بحيث لم يعد هدف علم التاريخ من وجهة نظر مدرسة الحوليات " *القيام بعملية جرد للأحداث الكبرى المرتبطة بسلالة الأمراء* "[9] بل يتعداه إلى التأسيس لمقاربة جديدة أطلق عليها تسمية التاريخ الإشكالية (Histoire-problème). لكي نضع هذه المدرسة في سياقها التاريخي علينا أن نتطرق إلى شخصية مؤسسيها عبر تقديم ترجمة خاصة بكل من: لوسيان فيفر* و مارك بلوخ*[10].

بينما كان الجيل الأول للحوليات يخوض معاركه من أجل تكريس هيمنة تاريخ جديد بدأ يلوح في الأفق طيف جيل جديد كان على رأسه فرناند بروديل، ومن عجائب الصدف أن للجزائر تأثير مباشر على هذه الشخصية.

---

[9] Couteau-Bégaire, H., 1983, *Le phénomène* « *nouvelle histoire* ». *Stratégie et idéologie des nouveaux historiens*, Paris, p.7.

* إشتهر لوسيان فيفر بأطروحته حول " *فليب الثاني والفرانش كونتيه* " (Philippe II et la Franche-Comté) الذي صدر عام 1911 في حين نشر كتابا آخر حول " مارتن لوثر " (Martin Luther) سنة 1928. يعتبر تأسيس لوسيان فيفر لمجلة الحوليات ودخوله إلى مؤسسة عريقة مثل الكوليج دو فرانس تتويجا لمسار طويل وحافل. يحسب لوسيان فيفر على التيار الإشتراكي الذي ناضل في صفوفه لكن الحقيقية تقال أن عند تأسيسه لمجلة الحوليات لم يعد مناضلا ملتزما.

* ترك لنا المؤسس الثاني لمدرسة الحوليات، مارك بلوخ، وصية عبر كتابه الذائع الصيت الإشادة بالتاريخ أو مهنة المؤرخ (*Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*) ، وقد أشرنا إلى كلمة وصية لأن الكتاب لم تكتب كامل فصوله إلا بعد إعدام مارك بلوخ الذي التحق بصفوف المقاومة الفرنسية في مدينة ليون عام 1943 قبل أن تلقي عليه القبض السلطات النازية سنة 1944. يعتبر مارك بلوخ إبنا لأحد ألمع المختصين في التاريخ الروماني ألا وهو غوستاف بلوخ (Bloch Gustave). إضافة إلى الأطروحة التي ناقشها بعنوان ملوك وأقنان (*Rois et serfs*) نشر مارك بلوخ كتاب قيم حظي بإشادة واسعة ألا وهو الملوك صناع المعجزات (*Les Rois thaumaturges*)، الذي صدر عام 1924. تتبع مارك بلوخ خطوات رفيق دربه لوسيان فيفر فترك ستراسبورغ وحط الرحال بباريس أين عين أستاذا للتاريخ الاقتصادي بجامعة السربون سنة 1938. كانت بصمة مارك بلوخ ماثلة للعيان في مجلة الحوليات لأنه بكل بساطة كان وراء التوجه الاجتماعي لهذه المجلة.

2- فرناند بروديل و مدرسة الحوليات

رغم إنتماء فرناند بروديل إلى الجيل الثاني لمدرسة الحوليات إلا أنه كان زميلا للوسيان فيفر في هيئة تحرير مجلة الحوليات قبل أن يكون خليفة له. من بين كل ممثلي الجيل الثاني لرواد مدرسة الحوليات أمثال شارل موزاري وجورج فريدمان يحتل فرناند بروديل مكانة خاصة، ويمكن تصنيفه، دون مبالغة، في خانة المؤرخين الكبار الذين شكلوا مدرسة في حد ذاتها على غرار ثوسديد وبوليب وإبن خلدون وإدوارد جيبون وميشلي وغيرهم.

لا يمكننا أن نضيف قيد أنملة إلى تعليق هيرفي كوتو-بيقاري حول الهالة التي تحيط بشخصية فرناند بروديل حيث يقول في هذا الصدد: " *هناك إجماع واعتراف على أن بروديل هو أكبر المؤرخين على الإطلاق وله تأثير كبير على الإنتاج التاريخي الفرنسي* "[11]، حيث تحقق معه حلم الآباء المؤسسين في بسط نفوذ المدرسة على المؤسسات الجامعية وتجلى ذلك عبر تأسيس القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا عام 1947.

قبل التطرق بإسهاب إلى نظرية بروديل حول الزمن أو بالأحرى ما يسميه بتعدد الأزمنة وكذا منهجه والخطوط العريضة لمدرسته الفكرية علينا أن نشير إلى تأثير الجزائر عليه.

أ- علاقة فرناند بروديل بالجزائر

كان لفرناند بروديل علاقة حميمة مع الجزائر أو بالأحرى ما يسمى حينذاك ب " الجزائر الفرنسية " وهي عبارة لا يخلو منها تقريبا أي عنوان كتاب أو إصدار. السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو ما علاقة فرناند بروديل بالجزائر وهل له إرتباط بالمؤسسة العلمية السائدة في الجزائر وما هو تأثيره ومن ورائه تأثير مدرسة الحوليات التي يتزعمها على تلك الفئة من المؤرخين؟

[11] Couteau-Bégaire, H., 1983, p. 8.

حسب مقدم كتاب " حول البحر المتوسط " (Autour de la Méditerranée) والذي نشر من طرف المؤرخ موريس أيمار (Maurice Aymard)[12] ، فإن المؤرخ فرناند بروديل إستلهم أطروحته عن البحر المتوسط من إكتشافه لثلاث دول متوسطية زارها تباعا: الجزائر (1923)، إسبانيا (1927) و أخيرا إيطاليا[13] سنة1932 . ومن بين تلك الدول الثلاثة يعترف المؤرخ الفرنسي الكبير أن للجزائر مكانة خاصة لديه وعبرها رأى البحر المتوسط من الجهة المعاكسة للضفة الشمالية على حد تعبير الكاتب نفسه. مهما يكن من أمر فإن بروديل قد إستلهم نظريته من الجزائر والتي قدمها في كتابه القيم البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني.

قبل الدخول في صلب الموضوع، يجب أن نذكر بأننا أثناء جمعنا لبيبلوغرافيا عن الموضوع عثرنا على مقال له نشر في المجلة الإفريقية عام 1928 [14]. تبنينا مقاربة للموضوع ترتكز على تقصي إرهاصات نظريته و أفكاره حول تعدد الأزمنة و الزمن الطويل من خلال إسهام فرناند بروديل و مقلاته في تلك السلسة الممجدة للذكرى المئوية لإحتلال الجزائر. ما يهمنا هنا هو إظهار علاقته بالمؤسسة العلمية في الجزائر.

مما لا شك فيه أن فرناند بروديل قد إحتك أثناء تواجده بالجزائر بالمؤسسة العلمية السائدة أنذاك، ومن هذا المنطلق يمكننا أن نسلم بما كتبه كلود ليوزو [15] (Claude Liauzu) عن تأثير قراءة بروديل فرناند لكتابات أدباء ومؤرخي الجزائر الفرنسية عليه، وفي هذا المقام يجب الإشارة إلى المنصب الذي كان يشغله، سكرتير عام مساعد للمجلة الإفريقية، جعله مطلعا بشكل واسع على كتاباتهم.

من الإجحاف الحديث عن أشهر منظري مدرسة الحوليات، فرناند بروديل، دون التطرق إلى تأثيرات مكوثه في الجزائر ما بين 1923 و 1932 على نظريته.

---

[12] Braudel, F., 1996, *Autour de la Méditerranée*, Paris.

[13] Braudel, F., 1996, p.V.

[14] Braudel, F., 1928, « Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 », *Revue Africaine*, Paris, p*. 184-233.*

[15] Liauzu, Cl., 1999, p. 179-187.

لا شيء يوحي في بيوغرافية فرناند بروديل أن الجزائر سوف تستهويه إلى درجة أن تكون مصدر إلهام لموضوع أطروحته في الدكتوراة التي عرضها فيما بعد في كتابه القيم " البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني " والتي يمكن تبسيطها في مفهوم تعدد الأزمنة و الزمن الطويل. كانت بحق أطروحته ثورة حقيقية في الإسطوغرافيا، والتاريخ والمقاربات.

ساعد مكوث فرناند بروديل في الجزائر على الإنغماس في الحياة الفكرية و الثقافية السائدة في الجزائر أنذاك. لم يخف فرناند بروديل التأثيرات الفكرية و الثقافية للجزائر في المقدمة التي وضعها لكتابه حول البحر المتوسط، الطبعة الثانية عام 1966، وعلينا الإشارة إلى أن الفصول الأولى للكتاب حررها في الجزائر[16].

ساعدت إقامة ومكوث فرناند بروديل* بالجزائر على إكتشاف مقاربة جديدة للتاريخ تأخذ بعين الإعتبار خصائص عدة بلدان متوسطية مثل إسبانيا، وإيطاليا وفرنسا، وربط تاريخ تلك البلدان بالثقافات والحضارات التي تنتمي أو تتواصل معها مثل الحضارة الإسلامية والمسيحية[17]. وفي الجزائر نضجت لديه فكرة دراسة فليب الثاني وسياسته المتوسطية أي إسبانيا في القرن السادس عشر بعدما ووقع إختياره في بادئ الأمر على موضوع متعلق بتاريخ ألمانيا.

بدأ إسم فرناند بروديل يظهر تدريجيا في المجلات المتخصصة مثل المجلة الإفريقية الذائعة الصيت أين نشر مقال مرتبط بأطروحته الإسبان وشمال إفريقيا وهذا في سنة

---

[16] Braudel, 1966, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque Philippe II*, Seconde édition revue et augmentée, T 1, Paris, p. 15.

* ولد فرناند بروديل (1902-1985) في مقاطعة اللورين عام 1902. رغم ميولاته العلمية، الطب والرياضيات، إلا أنه اختار أستاذية التاريخ عن مضض، وهذا التوجه لم يمليه عليه تاريخ المنطقة التي ولد فيها حيث نجد أن ذكرى كل من جان دارك (Jeanne d'Arc) وحرب 1870 مازلت حاضرة في المخيال الاجتماعي للمنطقة. ميول فرناند بروديل إلى الجغرافية و انبهاره بالتحصيل العلمي الذي تلقاه من بعض الأساتذة، هنري هاوزر (Henri Hauser) وإميل بورجوا (Émile-Bourgeois)، أسهم في حصوله على ديبلوم أهله لتقديم أطروحة الدكتوراة. بعد ذلك تحصل فرناند بروديل على منصب عمل في الجزائر.

[17] Carlier, O., 2003, « Braudel avant Braudel *?* Les années algériennes (*1923-1932*) », Insaniyat, n° 19-20, Oran, p. 145.

1928، كما أعاد فرناند بروديل الكرة ثانية وكتب في الموضوع نفسه بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر(1830-1930)، حيث نشر مقالا بعنوان الإسبان في الجزائر (1492-1792). في هذا المقام تجدر بنا الإشارة إلى أن فرناند بروديل شارك كمحاضر وسكرتير مساعد في مؤتمر العلوم التاريخية بمناسبة الذكرى المئوية لإحتلال الجزائر، وخلال هذا المؤتمر تعرف على أساتذة مختصين وربط علاقات مميزة بهم ونخص بالذكر كل من: هنري هوزير وهنري بر وكذا عالم القرون الوسطى ذي الأصل البلجيكي هنري بيران (Henri Pirenne). لم يطل المقام كثيرا لفرناند بروديل بالجزائر إذ ما لبث أن إستدعي للعمل بباريس مما عجل بغلق قوس " *السنوات الجزائرية* " على حد تعبير عمر كارليي. رغم إستقرار فرناند بروديل بباريس إلا أن حنين الهجرة راوده من جديد فشد الرحال إلى البرازيل ليدرس في جامعة ساو باولو أين سيتعرف على الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس.

بعد الحرب العالمية الثانية بدأ نجم فرناند بروديل يسطع و هنا علينا أن نتساءل عن إرثه و فكره.

كان لتفحص فرناند بروديل لأرشيف دولة البندقية (Venise) تأثيرا بالغا عليه لأن إطلاعه على نشاطات ميناء راغوز (Raguse) مكنه من تسليط الأضواء على نشاط الناس العاديين غير الملوك والأمراء فإكتشف أن " *هذا البحر ليس فقط بحر بل عالم يعتبره الموضوع المحوري لأطروحته* "[18]. يعتبر فرناند بروديل شاذا عن القاعدة لأن قبله " *لم يجرأ أي مؤرخ على تناول كيان جغرافي كموضوع دراسة* "[19].

رغم محنة السجن إلا أن فرناند بروديل حرر نسخة من أطروحته إعتمادا على الذاكرة، وللتذكير لقد كان هذا المؤرخ مسجونا في مدينة ماينس (Mayence) أين قضى خمسة سنوات في السجن[20]. عاد فرناند بروديل إلى باريس أين ناقش أطروحته ونشرها على نفقته سنة 1949. ما يهمنا هو سعي فرناند بروديل الحثيث إلى تبوأ المناصب في المؤسسات

[18] Brunhes, Al., 2001, p. 47.
[19] Brunhes, Al., 2001, p. 47.
[20] Brunhes, Al., 2001, p. 50.

الأكاديمية، حيث ترأس القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا وقد خلف لوسيان فيفر على كرسي التاريخ في جامعة السربون. و يمكن لنا الأن أن نتساءل عن إسهام فرناند بروديل في الإسطوغرافيا.

ب- فرناند بروديل و نظرية تعدد الأزمنة

لم نجد أحسن من مقولة نيكولا أوفنستاد كتوطئة لهذه الفقرة، حيث يقول هذا الأخير " *إحدى خصوصيات حرفة المؤرخ مقارنة بالعلوم الإنسانية الأخرى هي دراسة المجتمعات في الزمن* "[21]. من المعلوم أن لكل حضارة وثقافة تصورها الخاص للوقت والزمن، ومنذ عصر النهضة أعطى المؤرخون ورواد النزعة الإنسانية عناية فائقة للكرونولوجيا والتحقيب، لكن تصورنا للوقت والزمن أخذ أبعادا أخرى منذ نظرية إنشتاين ومقاربة فرناند بروديل التي تهمنا في هذا المقام.

لقد نسف بروديل فرناند، الذي جاء مباشرة بعد ثورة أينشتاين، الأفكار المتعلقة بالزمن والمكان، ويجب هنا أن نشير إلى فكرة الأزمنة الثلاثة التي وضعها فرناند بروديل: أ)- الزمن الجغرافي " *هو تاريخ شبه ثابت، مرتبط بالإنسان والوسط الذي يحيط به*"[22]. ب)- الزمن الإجتماعي:وهو التاريخ " *المتحرك ببطء*" وهو تاريخ مرتبط بالجماعات وبالمجموعات الإنسانية وهنا نحن بصدد الحديث عن التاريخ الإجتماعي[23].

ج)- التاريخ الحدثي (L'Histoire *événementielle*) ويعني بها التاريخ التقليدي الحدثي " *المتحرك على السطح*"[24]. أو بمعنى أدق التاريخ السياسي. لم يعر فرناند بروديل الاهتمام نفسه لكل هذه الأزمنة بل أعطى الأفضلية ل" *الزمن الطويل* " (La longue

[21] Offenstadt, N., 2011, p. 9.
[22] Braudel, F., 1966, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Seconde édition revue et augmentée, t.1, Paris, p. 16.
[23] Braudel, F., 1966, p.16.
[24] Braudel, F., 1966, p. 16.

durée)، ويمكن تلخيص مفهوم فرناند بروديل للتاريخ في هذه المقولة " *يمكن أن نميز داخل الزمن التاريخي زمنا جغرافيا وزمنا اجتماعيا وزمنا فرديا* "[25].

تبنى فرناند بروديل منذ البداية فكرة التناهج (Interdisciplinarité) وهي ترجمة أخذناها عن عبد الله العروي[26]، وهذا لا يمنع أننا نفضل ترجمة أخرى تفي بالغرض ألا وهي تبني مقاربة الربط بين مختلف العلوم. لقد شرح فرناند بروديل هذه المقاربة بإسهاب في كتاب الموسوم " كتابات في التاريخ " إذ كتب في هذا الصدد " *أنا دائما منشغل بفكرة تدعيم التاريخ أو بالأحرى حرفة التاريخ بعلوم الإنسان الأخرى* "[27]. تدخل هذه الإستراتيجية في إطار توحيد كل العلوم الإنسانية و هذا عن طريق إيجاد أرضية تفاهم بين كل تلك العلوم " *يجب أن يحصل إتفاق حول فكرة الزمن الطويل* (...) *هذا المسلك يطرح على التاريخ الإشكاليات الكبرى للبنى الإجتماعية، الحاضرة و الماضية، وهو الخطاب الوحيد الذي يربط التاريخ بالحاضر* "[28]. السؤال المطروح هو لماذا تبنى فرناند بروديل هذه المقاربة ؟

في مقال مشهور لفرناند بروديل، نشر عام 1958، أطلق هذا الأخير صفارات الإنذار حين أثار ضجة كبيرة بعدما حرر المقولة التالية " *توجد أزمة شاملة في علوم الإنسان* "[29]. كان العملي الجماعي داخل أفواج وفرق عمل بين كل المنتسبين إلى تلك العلوم هو الشغل الشاغل لفرناند بروديل ومن وراءه معظم الحولياتيين. لقد كانت لهذه الصرخة التي أطلقها بروديل فرناند هي صدى للجدل الواسع الذي رافق تساؤلات المختصين حول الحدود بين التخصصات أو بالأحرى بين العلوم، وكان شعار فرناند بروديل" *نفي الآخر هي أول خطوة للتعرف عليه* "[30].

---

[25] دوس، ف.، 1997، ص. 176.

[26] العروي، ع.، 2005، *مفهوم التاريخ*، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء، ص. 420.

[27] Braudel, F., 1969, *Écrits sur l'histoire*, Paris, p. 6.

[28] Braudel, F., 1969, p. 6.

[29] Braudel, F., 1969, p. 41.

[30] Braudel, F., 1969, p. 42.

لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نسلط الضوء من جديد على تصور فرناند بروديل للزمن وبالتالي التحقيب. لقد عرض فرناند بروديل مقاربتين للزمن، حيث تحدث من جهة عن الزمن المختصر أو الموجز أو القصير (Le temps court)، وقد ربطه بالتاريخ التقليدي ، ويقول في هذا الصدد موضحا موقفه : " *ينتبه التاريخ التقليدي إلى الزمن المختصر والفرد والحدث ولقد عودنا على رواية دراماتيكية ذات نفس قصير*"[31]. ومن جهة أخرى أكثر من الإطناب على زمن آخر " *يعطي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الجديد المكانة الأولى في أبحاثه للتذبذب الدوري ويراهن على الزمن الطويل ونقدم كمثال على ذلك الارتفاع و الانخفاض الدوري للأسعار*"[32]. قصارى القول أن فرناند بروديل تحامل على الزمن القصير: من عشرة إلى خمسين سنة وفي هذا الزمن يدرج الحدث و" الخبر الطنان ". إذن يعتبر هذا الزمن القصير مقياسا للفرد والحياة اليومية وهو الزمن المفضل للصحفي و مدون الأخبار. والحقيقة تقال إن فرناند بروديل يمقت الزمن القصير.

لا يضاهي إزدراء فرناند بروديل للزمن القصير إلا إنبهاره بالزمن الطويل. في هذا المقام يؤكد حقيقة جوهرية ألا وهي أن إذا كان الزمن القصير يليق برجل السياسة فإن هذا المقياس لا يتلاءم مع من يريد دراسة " منحنى (courbe) *الأسعار وتقدم الديموغرافيا وحركة الأجور و تبدل نسب الفائدة* (...) *لهذا يطالب بمقاييس أخرى للزمن* "[33]. لحل هذه المعضلة يقترح فرناند بروديل دراسة دورة (cycle) أو نصف دورة (intercycle) تاريخية. الإشكال المطروح عند فرناند بروديل و من حذ حذوه من الحولياتيين هو إذا كان من الممكن قياس الظرف الاقتصادي والاجتماعي فإن ذلك ليس بالممكن بالنسبة إلى العلوم التقنية والمؤسسات السياسية وحتى الحضارات. لا يخفي فرناند بروديل إنبهاره بمفهوم البنى، ويعبر عن ذلك بوضوح من خلال قوله: " *هناك بعض البنى تعمر طويلا بحيث تبقى راسخة في مخيال الأجيال المتعاقبة* "[34]. ما يقصده فرناند بروديل هنا هي الأطر الذهنية

[31] Braudel, F., 1969, p. 44.
[32] Braudel, F., 1969, p. 44.
[33] Braudel, F., 1969, p. 48.
[34] Braudel, F., 1969, p. 50.

(Les cadres mentaux) والتي تعني عنده الأطر الجغرافية والوقائع البيولوجية والتأثيرات الروحية على الإنسان عبر الأجيال.

يمكن أن نلخص مفهوم التاريخ وبالتالي الإسطوغرافيا عند فرناند بروديل في هذه الفقرة " *هناك فرق كبير بين لانغلوا و شارل سينيوبوس ومارك بلوخ. لكن منذ مارك بلوخ لم تتوقف عجلة الزمن عن الدوران. من وجهة نظري التاريخ هي جملة كل التواريخ الممكنة – تشكيلة من الحرف و وجهات النظر ما الأمس و من اليوم و الغد* "[35].

نستخلص من هذه الفقرة أن لفرناند بروديل تصور خاص للزمن. ما يهمنا هنا هو مساهمة مقاربته في تجديد التاريخ المغاربي.

ت- تطبيق مقاربة مدرسة الحوليات على تاريخ الجزائر القديم

كان من البديهي أن نتساءل عن مساهمة فرنان بروديل ومن وراءه مدرسة الحوليات في تجديد الدراسات حول التاريخ القديم بصفة عامة وتاريخ بلاد المغرب الكبير والجزائر بصفة خاصة.

دعت مدرسة الحوليات منذ بداياتها إلى ضرورة إنفتاح علم التاريخ على العلوم الأخرى وخاصة علم الحفريات. ما يعيبه رواد مدرسة الحوليات على المؤرخين التقليديين هو إكتفائهم بإستغلال النصوص التاريخية في حين أنهم أهملوا البقايا الأركيولوجية. وفي هذا السياق ألم يعطوا مكانة كبيرة في أبحاثهم للتاريخ السياسي و العسكري و الديبلوماسي على حساب التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والثقافي الذي لم يخفوا إزدرائهم له[36]. لقد طرح إستقلال بلاد المغرب الكبير وإستقلال بلدان القارة الإفريقية إشكالا للعلوم الإنسانية: كيف ندرس تاريخ هذه المجتمعات ذات الثقافة الشفوية ؟

إستعان الكثير من المؤرخين بمقاربة مدرسة الحوليات لتفكيك ونقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية. وفي هذا الصدد دحض سرج لانسيل (Serge Lancel) بإسم التاريخ

[35] Braudel, F., 1969, p. 55.

[36] Bernard, G., 2004, *Les apports de l'archéologie à l'enseignement de l'histoire*, Thèse, Université Lumière Lyon 2, p. 28.

الجديد و مقاربة تحرير التاريخ من الإيديولوجيا النظرية القائلة أن كل مدن الجزائر في العصور القديمة كانت عبارة عن مستوطنات رومانية. دافع سرج لانسيل دفاعا مستميتا عن فكرة جديدة مفادها أن روما بدورها كانت وريثة للحضارة الليبية وأن تلك المدن بنيت على أنقاض المدن الليبية [37]. لقد تحرر سرج لانسيل من قيود الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية التي تدرس تاريخ بلاد المغرب الكبير في العصور القديمة عبر منظور الإحتلال الروماني.

تبنى جلبير شارل بيكار (Gilbert-Charles Picard) أطروحة و مقاربة مدرسة الحوليات في كتابه حضارة إفريقيا الرومانية[38]. رغم تكوينه في مجال الحفريات إلا أن جلبير شارل بيكار لم يخف في مقدمة كتابه إعجابه بمنهجية مدرسة الحوليات التي تدعوا إلى الإستعانة بالعلوم الأخرى لدراسة تاريخ بلاد المغرب الكبير في العصر القديم " *إن العالم المتبحر الذي يكتفي بالإستعانة بإحدى العلوم المساعدة للتاريخ وفقط يمكن أن تتشكل لديه فكرة محدودة وغامضة عن الحضارة القديمة التي يدرسها. إن التقنيات المرتبطة بالصناعة و الفنون و الديانات و المؤسسات ماهي إلا مظهر من مظاهر الواقع الذي لا يمكن أن نجزئه. ولقد ألحت مدرسة لوسيان فيفر على المؤرخ في السنوات الأخيرة أن يأخذ بعين الإعتبار كل الإختصاصات و يتعالى عن كل الحواجز التي تفصل بين مجالات البحث* "[39]. ويسلم جلبير شارل بيكار أن مقاربة الإستعانة بالعلوم الأخرى هي مفتاح دراسة حضارة لا ترق إلى مستوى إنجازات الحضارات الأخرى. مصر و بلاد ما بين النهرين و بلاد الإغريق. رغم هذا التفاوت أشاد جلبير شارل بيكار بإسهام سكان بلاد المغرب الكبير في رقي الحضارة الإنسانية.

نذر المؤرخون جهودهم لإعادة قراءة وكتابة تاريخ العصور القديمة. فهذا هنري إريني مانرو لا يتقبل مصطلح العصور الإنحطاط (Décadence) الذي إستعمله مؤرخي

[37] Lancel, S., 2003, *L'Algérie antique. De Massinissa à Saint Augustin*, Paris, p. 8.
[38] Picard, G.-Ch., 1990, *La civilisation de l'Afrique romaine*, Paris, 325 p.
[39] Picard, G.-Ch., 1990, p. 11-12.

القرن التاسع عشر، إدوارد جيبون، لوصف نهاية العالم الروماني[40]. يعتبر هنري إريني مانرو أن مصطلح الإنحطاط مرتبط بعصر الأنوار وفلسفته التي تعتبر إنتصار المسيحية كمرادف للإستبداد والخرافات. إذن تعتبر إنتصار المسيحية تدهورا لأنها تعقد مقارنة مع الثقافة الراقية للعصور القديمة. يدحض هنري إريني مانرو هذا التصور ويدافع عن رأي مفاده " *إذا أخذنا مثال الحضارة المتوسطية في أواخر العصر القديم علينا الإعتراف بوجود إنحطاط خاصة في مجال التقنية ولكن في الجهة المقابلة علينا أن نقر بالإنجازات التي تحققت ويمكن إعطاء مثال عن ذلك في ميدان التعدين* "[41]. أذكر هنا أن هنري إريني مانرو يعتبر من أشد المعجبين بفكر القديس أوغسطين بحيث يتساءل بنزاهة هل يمكن أن ندرج هذا الإنتاج المعرفي الضخم في خانة الإنحطاط التي ما فتأ المؤرخون يتحدثون عنها؟ لكن الأمانة العلمية تدعونا إلى التسليم مع المؤرخ سيزك (Cizek) أن في هذه المرحلة تبنى المؤرخون نظرية التاريخ الذي تتدخل فيه العناية الإلهية[42]. لم يتوان المختصين على غرار جان كلود إسلن (Jean-Claude Elsin) في مقدمته لكتاب القديس أوغسطين مدينة الله في إعطاء تصور جديد للتاريخ أي محاولة تقديم تفسير منطقي و لاهوتي للزمن وللتاريخ[43]. وسوف نحيل القارئ إلى الأعمال الأكاديمية التي تناولت القديس أوغسطين بالدراسة في عدد خاص من مجلة البيبلوغرافيا التحليلية التي أعدها كل من جان ماري لاسير و يان لوبويك (Yann Le Bohec)[44].

لا شك أن فرناند بروديل أثرى الممارسة الإسطوغرافية عندما تبنى مصطلح الحضارة وكما هو معروف فهذا المصطلح كان متداولا بشكل واسع في مجال علم

---

[40] Marrou, H. I., 1957, « La décadence de l'antiquité classique », *De Classicisme et Déclin Culturel dans l'histoire de l'Islam*, Bordeaux, p.109.

[41] Marrou, H. I., 1957, p. 112.

[42] Cizek, E., 1983, « Quelques remarques sur l'historiographie romaine du Bas-Empire », *Actes du VII congrès de la F.I.E. C*, Vol. II, Budapest, p. 193.

[43] Saint Augustin, 1994, *La cité de Dieu*, Livre I à X. Traduction du latin de Louis Moreau (1846), revue par Jean-Claude Elsin. Introduction, présentation et notes par Jean Claude Elsin, Paris, p. 19.

[44] Lassère, J.-M., Le Bohec, Y., 1991, *Bibliographie analytique de l'Afrique antique XX* (1986),Paris, p. 9-15.

الحفريات. غير أن فرناند بروديل ميز عدة عناصر تحدد مصطلح الحضارة. نذكر في المقام الأول المجال الجغرافي الذي تحدده المعطيات الفيزيائية والثقافية. وهنالك عناصر أخرى تحدد مصطلح الحضارة مثل النظم الإجتماعية والإقتصادية بحيث كل حضارة لها مبادلات تجارية وهي عرضة للصدمات الإقتصادية. وبتعبير بسيط تعني الحضارة في تصور فرناند بروديل العلوم والتقنية والتي يضاف إليها القيم الثقافية والدينية والذهنيات والحياة اليومية[45]. ولم يكتف فرناند بروديل بعرض نظريته في كتابه القيم " البحر المتوسط و العالم المتوسطي في عهد فليب الثاني" بل له محاولات جادة في التنظير للحضارات. وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب تطرق بإسهاب إلى الحضارات وقدم مفهومه لهذا المصطلح في باب تحت عنوان " *الحضارات* " (Les civilisations). ما يثير الإهتمام هو أن فرناند بروديل لم يتوان في تناول الإشكال الذي تطرحه بلاد المغرب الكبير أمام الدارسين لموضوع الحضارات فهل بلاد المغرب تنتمي يا ترى إلى الحضارة الغربية المسيحية أم إلى الحضارة الشرقية الإسلامية؟ يحاول فرناند بروديل الإجابة عن هذا التساؤل حين يكتب الأسطر التالية " *فيما يتعلق بالأهم، فإن الرهانات تحسم دائما مسبقا. لم يخن شمال إفريقيا الغرب في مارس 1962، بل حدث ذلك منذ منتصف القرن السابع، ومن الأرجح قبل ميلاد المسيح،أي عند قيام قرطاجة، بنت الشرق*"[46].

لقد كتب بروديل فرناند هذه الفقرة تعقيبا على جملة وردت في كتاب شارل أندري جوليان " *تاريخ شمال إفريقيا*"[47]. مهما يكن من أمر فإن بروديل فرديناند إعترف صراحة بأن بلاد المغرب الكبير مرتبطة بالحضارة الشرقية. إن الحديث عن الحضارات يجرنا إلى الإحالة إلى كتاب كامل تطرق فيه إلى هذا الموضوع " *تاريخ و قواعد الحضارات* "[48].

---

[45] Bernard, G., 2004, p. 31.

[46] النص الأصلي باللغة الفرنسية هي التالي: « *Pour l'essentiel, les jeux sont toujours fait d'avance. L'Afrique du Nord n'a pas « trahi » l'Occident en mars 1962, mais dés le milieu du VII siècle, peut-être même avant la naissance du Christ, dés l'installation de Carthage, fille de l'Orient* », Braudel, F., 1996, p. 95.

[47] Julien, Ch.A., 1931, *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, p.20.

[48] بروديل، ف، 1999، *تاريخ و قواعد الحضارات*، ترجمة و تعليق سفير د. حسين، ش.، القاهرة.

ما يهمنا في الأخير هو أن مقاربة مدرسة الحوليات لدراسة التاريخ تهتم بعدة مواضيع: المناخ و الذهنيات والتغذية والتقاليد والعائلة والأفراح.

لقد أطلق غالم محمد من جامعة وهران صرخة مدوية أثناء ندوة " الجامعة اليوم ". و تساءل عن إعتماد المؤرخون الجزائريون على الوثيقة (نقد لغوي وفكري) في حين غضوا البصر عن " *ضرورة تحقيق اللقاء بين التاريخ والعلوم الإجتماعية الأخرى* "[49].

لم يتجاهل مؤرخوا العصور القديمة لبلاد المغرب الكبير مقاربة مدرسة الحوليات فنجد أن كل من بول لويس كومبوزا[50]، بختى مقرنة عابد [51] و سراج أحمد [52] إستعانوا بمنهجية مدرسة الحوليات لدراسة بلاد المغرب الكبير في العهد الروماني عن طرق إستغلال المصادر الإسلامية التي كانت تحتوي في طياتها على معلومات حول الآثار والمخلفات الرومانية كما دونها مؤرخي المسلمين في العصور الوسطى. ولا يجب أن نغض البصر على أهمية هذه المقاربة في علم الحفريات.

ماذا يمكن أن نقول عن التاريخ الجديد الذي دعت إلى كتابته مدرسة الحوليات؟ إن هذه الدعوة لقيت صدى عن المفكرين المغاربة الذين ناضلوا من أجل كتابة تاريخ جديد تحت شعار إنعتاق التاريخ أو تحرير التاريخ من الإيديولوجية. في هذا الصدد لا يمكن تجاهل إسم كل من محمد شريف ساحلي وعبد الله العروي. ولكن قبل تناولهما بالدراسة علينا أن نتطرق إلى حال الجامعة الجزائرية بعد الإستقلال ومكانة العلوم الإنسانية فيها وبالتالي مكانة التاريخ في العلوم الإنسانية؟

---

[49] غالم،م.، 1998، " التاريخ في جامعة وهران: الأساتذة وإنتاجهم "، *الجامعة اليوم* (أعمال ندوة)، منشورات CRASC، وهران، ص. 35.

[50] Cambuzat, P-L., 1986, *L'évolution des cités du Tell en Ifriqîya du VII au Xi siècle*, T1 et T2, Alger.

[51] Moukraenta-Abed, B., 2013, *L'mage de l'Algérie antique au travers des sources arabes du Moyen âge*, 4 tomes, Alger.

[52] Siraj, A., 1995, *L'image de la Tingitane. L'historiographie arabe médiévale et l'antiquité nord-africaine*, Rome, 732p.

II- إنعتاق التاريخ أو تفكيك الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية

كان هاجس تقديم حصيلة للعلوم الإنسانية عامة وللإسطوغرافيا الجزائرية خاصة الشغل الشاغل للعاملين في حقل علوم الإنسان بالجزائر، وما يهمنا في هذا المقام هو تسليط الأضواء على مكانة التاريخ عموما و إسطوغرافيا الجزائر للعصور القديمة خصوصا في المؤسسات الجامعية وفي الخطاب المعرفي والأكاديمي بالجزائر.

1. أول رواية للتاريخ الرسمي سلطت الأضواء على العصور القديمة عموما و على العهد الروماني خصوصا نجدها عند محرري ميثاق الجزائر (La charte d'Alger) الذين خصصوا لها فقرة تحت عنوان " *الجزائر عشية 1830* ". نجد في الجزء الأول من الميثاق ما يلي: " *كان يجب علينا أن نغوص بعيدا في الزمن لكي نرى التجليات الأولى لمساهمة المغرب الأوسط في الحضارة. و هذه المساهمة عريقة -أكثر من ثلاثة قرون – ظهرت ملامحها و إزدهرت في ظل الممالك النوميدية ما بين القرن الثالث و الثاني قبل ميلاد المسيح و كانت تدور في فلك الملك ماسنيسا* "[53]. و ما يثير إنتباهنا هو أنه بعد هذا الإطناب لم يتوان محررو ميثاق الجزائر في إنتاج خطاب مضاد لمقولات الإستعمار الكلاسيكية " *من إستعمار إلى أخر* " و ميزة هذا الخطاب أنه مبني على فكرة مقاومة الأجنبي " *الفترة الممتدة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثامن ميلادي هي فترة نضال ضد السيطرة الأجنبية سواء كانت رومانية أو وندالية أو بيزنطية. و إرتبط بهذه المقاومة الشعبية الباسلة أسماء أبطال حقيقيين أمثال يوغرطة* "[54].

2. لم تحظ إسطوغرافيا الجزائر في العصور القديمة بنفس الإهتمام عند دارسي موضوع الإسطوغرافيا بالجزائر. كان لمركز البحث في الأنتروبولوجيا الإجتماعية والثقافية السبق في مضمار التطرق إلى موضوع الإسطوغرافيا، إذ عقد ندوة حول الموضوع سنة 1992 تحت عنوان " كيف *يدرس التاريخ في الجزائر* " ولقد نشرت أعمال

[53] F. L . N., 1964, *La charte d'Alger*, éditée par la commission d'orientation politique du F.L.N, ensemble des textes adoptés par le premier congrès du parti du front de libération national (du 16 au 21 avril 1964), première partie, pour une révoltion socialiste, chapitre 1, Alger, p. 9.

[54] F. L . N., 1964, p. 10.

تلك الندوة في منشورات المركز باللغتين الفرنسية والعربية[55]. تناول الباحثون المشاركون في أعمال ندوة تدريس التاريخ: مكانة تاريخ الجزائر في الكتاب المدرسي. في هذا الصدد دق كل من حسن رمعون[56] و رضوان عناد ثابت[57] ناقوس الخطر حول إهمال التاريخ القديم في المناهج الدراسية. لم تحض دراسة تاريخ الجزائر في العصور القديمة بالإهتمام الكافي في الأطوار التعليمية في المدرسة الجزائرية وهذا ما إستخلصته دراسة للأستاذ الجامعي رمعون حسن الذي توصل إلى نتيجة مفادها أن الماضي الجزائري والمغاربي بشكل عام قد همش، في حين أخذ المشرق العربي حصة الأسد من تلك الدراسة في البرامج التعليمية عند بداية تسعينيات القرن الماضي[58].

ولقد إنتقلت عدوى تجاهل التاريخ الرسمي للماضي المغاربي في العصور القديمة من المدرسة إلى الجامعة. وفي هذا الإطار، يحاول غالم محمد في دراسة نشرها في مجلة إنسانيات، عدد سنة 1998، تفسير سبب قلة إهتمام جامعة وهران بالتاريخ القديم للجزائر فيكتب قائلا " *فنسبة التاريخ القديم ضئيلة جدا لأسباب إيديولوجية واضحة. فالتاريخ الرسمي يعتبر العهود القديمة جاهلية لا تهمه في شيء* "[59].

---

[55] غانم، م.، و رمعون، ح.، (تنسيق)، مركز البحث في الأنتروبولوجيا الإجتماعية و الثقافية، 1995، *كيف يدرس التاريخ في الجزائر.*

[56] Remaoun, H., 1995, « Sur l'enseignement de l'Histoire en Algérie ou la crise identitaire à travers – et par- *l'école* », *Comment on enseigne l'histoire en Algérie, Actes du colloque « l'enseignement de l'Histoire* , *CRASC*, Oran, p. 47-68.

[57] Ainad Tabet, R., 1995, « Manuel d'Histoire et discours idéologique véhiculé », *Comment on enseigne l'histoire en Algérie, Actes du colloque « l'enseignement de l'Histoire* , *CRASC*, Oran, p. 35-45.

[58] Remaoun, H., 1995, *Sur l'enseignement de l'Histoire en Algérie ou la crise identitaire à travers* (*et par*) *l'école*. *Approche à travers une étude comparée des manuels utilisés dans les classes Secondes Cycle des lycées algériens et marocains, Comment on enseigne l'histoire en Algérie*, CRASC, Oran, pp ; 47-67.

[59] غالم،م.، 1998، " التاريخ في جامعة وهران: الأساتذة وإنتاجهم "، *الجامعة اليوم* (أعمال ندوة)، منشورات CRASC، وهران، ص. 31.

لم يتوقف إهتمام المجلات المتخصصة بالإسطوغرافيا. فبعد مرور عشرية من الزمن على ندوة 1992 أعاد مركز البحث في الأنتروبولوجية الإجتماعية و الثقافية الكرة فأصدر عدد من مجلة إنسانيات يتناول بالدراسة الممارسة الإسطوغرافية في مجمل بلدان المغرب الكبير. وفي هذا السياق فقد أصدر المركز بالتنسيق مع مخبر دراسات مغاربية عدد تحت عنوان " *المعارف التاريخية في المغرب. البناء والممارسات* "[60]. و رغم أن موضوع الإسطوغرافيا لقي رواجا واسعا عندي محرري مجلة إنسانيات إلا أن التاريخ القديم لم يحظ بنفس الإهتمام. رغم قلة المقالات التي تناولت إسطوغرافيا بلاد المغرب الكبير في العصور القديمة إلا أننا أحصينا بعض الدراسات التي تطرقت للموضوع وكانت ترتكز على ميدان الحفريات. ومن بين تلك المقالات نذكر مداخلة بن قادة صادق[61] التي تناولت موضوع دور الجيش الفرنسي في الحفريات في بدايات الإحتلال في حين أن مداخلة جايدي حسين تطرقت إلى رهانات الحفريات في تونس أثناء الفترة الكولونيالية. لم يقتصر الإهتمام بالإسطوغرافيا على الجزائر فقط بل إمتد الإهتمام إلى مجمل بلاد المغرب الكبير بحيث حرصت مراكز البحث على التنسيق فيما بينها من خلال عقد ندوات و أعمال مشتركة بين المجلات و مراكز البحث حول الإسطوغرافيا. من بين الملتقيات التي نشرت أعمالها نذكر أعمال ندوة " *الكتابات التاريخية في المغارب. الهوية، الذاكر و الإسطوغرافيا* "[62] و التي نشرت أعمال ومداخلات مؤرخين تونسيين ومغاربة وأجانب، في موضوع الإسطوغرافيا. رغم العدد الكبير من المداخلات باللغتين العربية والفرنسية إلا أن مداخلة واحدة تناولت إسطوغرافيا العصور القديمة بالدراسة لصاحبها طاهر محمد تحت عنوان " أطماع أثينا في قرطاجة: الإحتلال، المعرفة والممارسات" [63].

---

[60] Bargaoui, S., Remaoun, H. (dir.), 2006, *Savoirs historiques au Maghreb*. *Construction et usages*, CRASC et Diraset, Oran.

[61] Benkada, S., 2006, « Archéologie et entreprise coloniale : l'armée et les premiers travaux de topographie historique en Algérie », *CRASC* et *Diraset*, Oran, p. 225-233.

[62] المودن، ع.، هنية، ع. ح.، بنخادة، ع. ر.، 2007، *الكتابات التاريخية في المغارب. الهوية، الذاكرة والإسطوغرافيا* ، الرباط، 165 ص.

[63] Tahar, M., 2007, « *Les visées d'Athènes sur Carthage : Conquête, savoir et usages* », Écritures de l'histoire au Maghreb, Rabat, pp. 11-20.

لم تتوقف جهود مركز البحوث في الأنثروبولوجية الإجتماعية والثقافية في إثراء النقاش حول الإسطوغرافيا عند هذا الحد بل خصص لها حيزا في ندوة تحت عنوان " *الجزائر بعد 50 سنة. حوصلة المعارف العلوم الإجتماعية والإنسانية في 1954-2004* " إذ خصصت ورشة للموضوع وهذا تحت عنوان " *التاريخ، الذاكرة و التراث* "[64]. رغم ثراء النقاش إلا أن إسطوغرافيا العصور القديمة لم تحظ بالإهتمام البالغ في هذه الندوة إلا إذا ما إستثنينا مداخلة نصيرة بن صديق في الموضوع: " *الأركيولوجيا القديمة في الجزائر، الأمس و اليوم* " [65].

ولم تكن موضة الكتابة عن الإسطوغرافيا حكرا على هيئة تحرير مجلة " *إنسانيات* " بل مست تلك العدوى محرري مجلة " نقد "* الذين نشروا عددا عام 2014 يتطرق إلى الإسطوغرافيا في مجمل البلاد العربية " كتابات تاريخية عن المشرق والمغرب. مقاربات نقدية "[66]. لقد مست حمى تقديم حوصلة عن العلوم الإجتماعية حتى علماء الإجتماع الذين نشروا أعمال ملتقى حول موضوع " *علم الإجتماع و المجتمع في الجزائر* "[67].

3. ليست الكتابة عن الإسطوغرافيا المغاربية عموما وعن الإسطوغرافيا الجزائرية خصوصا حكرا على المثقفين الجزائريين والمغاربة بل أثارت إهتمام مؤرخين غربيين وخاصة الفرنسيين الذين دلو بدلوهم في الموضوع، وفي هذا السياق أصدر المؤرخ الفرنسي بيار فيرميران كتابا في موضوع إسطوغرافيا ما بعد إستقلال بلاد المغرب تحت

---

[64] بن غبريط-رمعون، ن.، و حداب، م.، 2008، الجزائر بعد 50 سنة. حوصلة المعارف في العلوم الإجتماعية و الإنسانية 1954-2004، وهران، ص ص. 149-244.

[65] Benseddik, F., 2008, « *L'archéologie antique en Algérie, hier et aujourd'hui* », L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en sciences sociales et humaines 1954-2004. Actes de symposium, Oran, pp. 193-201.

* هذه المجلة لم تتناول إسطوغرافيا العصور القديمة بالدراسة.

[66] Amara, N., Candice, R., et Sfeir, J., 2014, *Ecritures historiennes du Maghreb et du Machrek*. *Approches critiques*, NAQD, Alger.

[67] Lakjaa, A. (dir.), *2004, Sociologie et société en Algérie*, Actes du Colloque national de Sociologie des 4, 5 et 6 mai 2002, Oran.

عنوان " *بؤس إسطوغرافيا بلاد المغرب ما بعد الإستعمار* 1962-2012 "[68]. ويضاف هذا إلى تلك المحاولات الفردية التي بذلت لإثراء إسطوغرافيا الجزائر على غرار محاولة مونيك دوندان (Monique Dondin)[69]، و كليمونتين غوترون[70].

تنوع وتعدد هذه المساهمات أثرت الدراسات حول موضوع الإسطوغرافيا، ولقد حدث تحول كبير في الإسطوغرافيا الخاصة ببلاد المغرب الكبير عموما والجزائر خصوصا حيث ظهرت مؤسسات علمية وأكاديمية أخذت على عاتقها مهمة تأطير الأبحاث والدراسات التاريخية حول المنطقة.

1- دور المؤسسات الأكاديمية في تجديد الدراسات الإسطوغرافية

من البديهي أن نتساءل كيف تعامل المغاربة عموما والجزائريون خصوصا مع إرث الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية بعد إستقلال أقطار بلاد المغرب الكبير؟ ماهي ظروف تأسيس جامعات جديدة وما هي مكانة التاريخ بين العلوم الإنسانية و الإجتماعية؟

لم يكن إجلاء القوات الفرنسية من الجزائر سنة 1962 إيذانا بإستقلال الجزائر فقط بل كانت تبعاته كثيرة، حيث لم يكن بإمكان العلوم الإنسانية على وجه العموم والعلوم التاريخية على وجه الخصوص أن تتجاهل القطيعة التي أنتجها هذا الحدث إذ لم يعد ممكنا أن تتناول الماضي المغاربي بنفس المناهج والمقاربات التي كانت سائدة في وقت مضى. في هذا السياق التاريخي ظهر مصطلح " إنعتاق التاريخ " أو كما يحلوا لمترجمي مجلة نقد أن يترجموه " *تحرير التاريخ من الإستعمار* " وهو مصطلح إبتكره المثقف والفيلسوف

[68] Vermeren, P., 2012, *Misère de l'historiographie du* « *Maghreb* » *post-colonial*, Paris.

[69] Dondin-Payre, M., 2011, « Empire Antique, Empire contemporaine : l'Afrique du Nord In Figures d'empire, fragments de mémoire, Pouvoirs et identités dans le monde romain impérial (2e s. av. n.è.-VI s. de n. è.) »,Paris.

[70] Gutron, Cl., 2014, « Archéologie maghrébine et relecture de l'histoire, Autour de la patrimonialisation de Paul-Albert Février », Année du Maghreb, p. 163-180.

الجزائري محمد-شريف ساحلي* صاحب كتاب " إنعتاق التاريخ "[71]. كان لهذا المصطلح رواجا كبيرا سواء في الجزائر مع مصطفي لشرف*، أو في المغرب الأقصى مع عبد الله العروي*، قبل أن يعمم على الدراسات حول العلوم الإنسانية والاجتماعية في فرنسا.

لم تكن هناك قطيعة مطلقة بين المؤسسة الجامعية التي ورثتها الجزائر عن فرنسا وجامعة ما بعد الإستقلال. علينا أن نشير إلى أن إتفاقيات إيفيان كرست التسيير المشترك للمعاهد الجامعية بين الجزائر وفرنسا مما أتاح الفرصة لشخصيات مثل غابريال كامبس من تسيير وتأطير معهد الأبحاث في الأنتروبولوجيا وما قبل التاريخ والإثنوغرافيا (CRAPE)[72].

حين نتناول بدايات الجامعة الجزارية في فترة ما بعد الإستقلال علينا أن نشير إلى أن هناك حد فاصل بين عام 1971 وما بعده لأن قبل سنة 1971 يلاحظ غلبة الأساتذة الفرنسيين في التأطير بالجامعات لكن الأمور إنقلبت رأس على عقب بعد ذلك حين قررت السلطات الجزائرية تطبيق مشروع جزأرة وتعريب الجامعة[73].

لكي نتعرف على المكانة التي يتبوأها التاريخ القديم في الدراسات التاريخية في الجزائر قمنا بإعداد إحصائيات عن الرسائل الجامعية التي نوقشت في كل التخصصات إذ كان هدفنا هو معرفة ما هي نسبة الرسائل التي نوقشت في تخصص التاريخ القديم مقارنة بالتخصصات الأخرى. كان الهدف من إعداد هذه الإحصائيات هو معرفة ما هي

---

* محمد شريف ساحلي هو مناضل وطني جزائري نادى إلى ضرورة إنعتاق التاريخ وتناول تاريخ العصور القديمة بالدراسة خاصة في كتابه رسالة يوغرطة (*Le message de Jugurtha*).

[71] Sahli, M-Ch, 2007, *Décoloniser l'Histoire*, Alger, 137 p.

* مناضل وطني جزائري له مساهمات فكرية ولقد تبنى مصطلح إنعتاق التاريخ في كتاباته خاصة " الجزائر: الأمة والمجتمع ".

* مثقف مغربي تبنى بدوره مصطلح إنعتاق التاريخ وسوف نتناول مقاربته للإسطوغرافيا بالدراسة في هذا الفصل.

[72] Gast, M., Bernus, Ed., Desanges, J., Chaker, S., 2015, « Gabriel Camps (*1927-2002*) », *Ency. ber*, Aix en provence, p. 3.

[73] Aberkane, Abd., 1998, « L'Université Algérienne : de l'éthique au marché et de la conviction à la certitude », *L'Université aujourd'hui*, Edition CRASC, Oran, p. 39.

التخصصات التي لقيت عناية المؤسسات الجامعية. لقد إعتمدنا على عينة من 58 رسالة جامعية نوقشت في معهد التاريخ بين 1963 و 1987[74]. علينا أن نشير إلى أن في الفترة الممتدة من 1963 إلى عام 1987 كان الطلبة يحظرون لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في قسم التاريخ (DEA). لقد نوقشت 58 رسالة جامعية في معهد التاريخ بجامعة الجزائر والتي وزعت على التخصصات التالية: 25 رسالة في التاريخ المعاصر أي نسبة 43.10 %، و19 رسالة في تاريخ العصور الوسطى أي نسبة 32.70 % ، و9 رسائل في التاريخ القديم أي نسبة 15.51 % و 5 رسائل في التاريخ الحديث أي نسبة 8.62 %[75]. ويظهر جليا من هذه الإحصائيات أن التاريخ القديم يحتل المرتبة الثالثة في نسب إحصائيات الرسائل التي نوقشت. أما الملاحظة الثانية فتتمثل في أن كل الرسائل التي نوقشت في تخصص التاريخ القديم كان موضوعها يتناول حضارة بلاد المغرب الكبير في العصر القديم. أما فيما يخص لغة البحث فقد حررت خمسة رسائل جامعية باللغة الفرنسية* مقابل أربعة رسائل حررت باللغة العربية*. ويعتبر بوشناقي منير أول جزائري ناقش رسالته سنة 1967 والتي تحمل عنوان قضاة الكونفيدرالية المسيحية[76]. ومن الواضح أن أول رسالة جامعية نوقشت باللغة العربية كانت لصاحبها محمد صغير غانم سنة 1974 و هذا تحت عنوان " التوسع الفينيقي في غرب المتوسط ". و إذا كنا نتفق أن الجامعة الجزائرية

---

[74] دليل الرسائل الجامعية من 1963 إلى 2013، 2013، جامعة الجزائر، الجزائر، ص. 15-20.

[75] دليل الرسائل الجامعية من 1963 إلى 2013، 2013، ص ص, 15-20.

* حسب دليل الرسائل الجمعية، نوقشت خمسة رسائل ماجستير وهي: Darbelet, Ph., 1967, Les magistrats de l'Afrique au IV ; Bouchenaki, M., 1967, Les magistrats de la confédération chrétienne ; Grangaud, M., 1968, Les grands domaines de l'Afrique romaine ; Mahbouba, M., 1968, la société à Timgad d'après les documents géographiques ; Filali née El Machrafi, Inventaire des huileries romaines de Volubilis.

* نقدم القائمة التالية للرسائل التي نوقشت باللغة العربية: غانم، م. ص.، 1974، التوسع الفينيقي في غرب المتوسط؛ شنيتي، م.ب.، 1975، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (140 ق.م / 40 م)؛ أورفلي، م. خ.، 1977، خصائص العمارة الفينيقية في المغرب القديم؛ بن درسي، ع.، 1982، الصراع القرطاجي الإغريقي في غرب البحر المتوسط ما بين القرنين السادس و الرابع قبل الميلاد.

[76] Bouchenaki, M., 1967, Les magistrats de la confédération chrétienne.

قد أنتجت أعمال و أبحاث أكاديمية في التاريخ القديم فهذا لا يمنعنا من التذكير أن مجموعة من المؤرخين الذين ينتمون إلى الحركة الوطنية الجزائرية أثرت الإسطوغرافيا الجزائرية بكتب تناولت التاريخ القديم ونخص بالذكر: قايد مولود * و محفوظ قداش الذي نشر كتاب عن الجزائر في العصور القديمة[77].

أخذت كتابة التاريخ في ضفتي البحر الأبيض المتوسط، الجزائر و فرنسا، منحنيان متوازيين، وإذا كان من البديهي أن توجد في سنة 1962 مؤسستين جامعيتين تحتكران حقل الإسطوغرافيا المغاربية ألا وهما جامعتي السربون والجزائر فإن الوضع إنقلب رأس على عقب بعد إستقلال الجزائر، حيث ظهر قطبان في فرنسا لهما حصة الأسد من الإنتاج المعرفي في التاريخ والإسطوغرافيا المغاربية. سار القطب الأول على خطى أبيه الروحي شارل أندري جوليان الذي فتح الأبواب على مصراعيها أمام إسطوغرافيا صوبت نظرها نحو ما يسمى ب " الأهالي " أو " الجزائريين-المسلمين " الذين تناولتهم بالدراسة. ويمكن أن نذكر في زمرتهم كل من كزافيي يانوكو (Xavier Yacono) وأندري نوشي (André Nouschi)[78]. أما القطب الثاني للدراسات الفرنسية حول بلاد المغرب الكبير فظهر في منطقة إكس أونبرفونس (Aix-en-Provence) أين أقيم مركز الدراسات لشمال إفريقيا (CENA) سنة 1958 والذي غير تسميته بداية من عام 1962 ليطلق عليه اسم مركز الدراسات حول إفريقيا المتوسطية (CRAM). وما لبث بعد ذلك أن غير هذا المركز تسميته و يظهر بحلة جديدة بمسمى مركز البحوث والدراسات حول المجتمعات المتوسطية (CRESM). وفي هذه الظروف التاريخية أسست دورية متخصصة ألا وهي الدليل السنوي لشمال إفريقيا (Annuaire de l'Afrique du Nord) وهذا تحت إشراف المركز الوطني للدراسات العلمية (CNRS)[79]. لقد ضم في صفوفه مركز البحوث

---

* Les مولود قايد من مواليد 1916 بمنطقة القبائل وله عدة إسهامات في التاريخ و التاريخ القديم منها: Berbères dans l'histoire ; Aguellids et romains en Berbérie.

[77] Remaoun, H., 2004, « Les historiens algériens issus du Mouvement national», *Insaniyat* 25-26, Oran, p. 230.

[78] Vermeren, P., 2012, p. 79.

[79] Vermeren, P., 2012, p. 80.

والدراسات حول المجتمعات المتوسطية مجموعة من الأساتذة المتخصصين و نذكر من بينهم عالم الإناسة الفرنسي وعالم الحقبتين قبل التاريخية (préhistoire) وقبيل تاريخية (protohistoire) ألا وهو غابريال كامبس. لقد شغل هذا الأخير عدة مناصب إذ كان إما عضوا في بعض مراكز البحث العلمي و إما مؤسسا لها ونخص بالذكر: المركز الجزائري للبحوث الأنتروبولوجية وما قبل التاريخ و الإثنوغرافية و مختبر البحوث الأنتروبولوجية وما قبل التاريخ لبلدان غرب الأبيض المتوسط (LAPMO).

إن إهتمام غابريال كامبس بكل ما يتعلق ب " البربر " شجعه على تأسيس الموسوعة البربرية* (Encyclopédie berbère) عام 1969. لقد أخذ " البربر " حصة الأسد من دراسات غابريال كامبس الذي طبق بدوره مقاربة التاريخ الجديد على هذه الجماعات البشرية لأن " البربر " كغيرهم من الشعوب الإفريقية يعتبرون من المجتمعات ذات الثقافة الشفوية التي تجاهلتهم الإسطوغرافيا الغربية.

علينا أن نشير أن غابريال كامبس لم يغادر الجزائر بعد إستقلالها بل تكفل بتدريس أركيولوجيا ما قبل التاريخ وفجر التاريخ في جامعة الجزائر في حين أنه عين مديرا لمجلة ليبيكا (Libyca)[80]. ما يهمنا هو أن هاجس غابريال كامبس هو كتابة تاريخ الشعوب و الجماعات التي لا تملك تقاليد في الكتابة مثل البربر.

وفيما يخص الممارسة الإسطوغرافية فإن الدولة الجزائرية أقامت مؤسسات تتكفل بالدراسات التاريخية ونذكر على سبيل المثال المركز الوطني للدراسات التاريخية

* لقد طبعت الموسوعة البربرية عن طريق الإستنساخ في السبعينات قبل أن صدور أول عدد سنة 1984 و قد لقي المجهود الذي بذله غابريال كامبس ثناء اليونسكو. و لقد إعتنت الموسوعة البربرية بكل ما يتعلق بهذه المجموعة البشرية سواء أطلق عليهم إسم الليبيون في العصور القديمة أو البربر في العصور الوسطى أو الأمازيغ في الفترة المعاصرة. ما تجدر الإشارة إليه هو أن غابريال كامبس كان أكثر إسهاما في هذه الموسوعة بحيث حرر نصف ما كتب فيها.

[80] Gast, M., Bernus, Ed., Desanges, J., Chaker, S., 2015, p. 4.

(CNEH) الذي أسس سنة 1971 و المركز الوطني لدراسات ما قبل التاريخ و الأنتروبولوجيا و التاريخ (CNRPAH) الذي فتح أبوابه عام 1993[81].

تزامن تأسيس المراكز الجامعية و مراكز الدراسات والبحث بالجزائر مع إطلاق السلطات الرسمية لمشروع كتابة التاريخ. وتحت شعار " كتابة و إعادة كتابة التاريخ ". أطلق النظام السياسي الجزائري العنان لحملة كتابة التاريخ وهو ما يسمى ب " التاريخ الرسمي "[82]. وحسب حسن رمعون فإن التاريخ هو هيئة لإعطاء الشرعية للنظام السياسي وهذا ما إستغلته كل الأنظمة السياسية في أوربا ولهذا لا يمكن إعتبار النظام الجزائري بالشاذ عن القاعدة. أما التساؤل المطروح فهو : كيف يكتب التاريخ حسب وجهة نظر محرري مشروع " كتابة وإعادة كتابة التاريخ " ؟ نجد جزء من الإجابة عند الباحث حسن رمعون الذي يرى أن " *الهدف هو كتابة تاريخ حرب التحرير الوطنية وإعادة كتابة كل ما يمس الحقب التاريخية السابقة والتي يعاب عليها تحريف الوقائع من طرف مؤرخي الإستعمار*"[83]. إذن حسب التاريخ الرسمي فإن الحقائق التاريخية مزيفة لذا يجب على المؤرخين أن يبذلوا جهدهم من أجل: تحرير التاريخ من الإيديولوجيا و تصحيح الوقائع المزيفة.

لقد إشتدت المنافسة بين المؤسسات الجامعية، معهد التاريخ، و الجمعيات العالمة، لإصدار مجلات علمية تولي إهتماما لنشر مقالات و دراسات تاريخية ونخص بالذكر هنا مجلة تاريخ وحضارة المغرب * و مجلة التاريخ[84]. ولقد خصص الأستاذ الجامعي حسن رمعون دراسة لهاتين المجلتين بحيث قدم لنا إحصائيات عن المقالات التي كتبت في

---

[81] Remaoun, H., 2003, « L'intervention institutionnelle et son impact sur la pratique historiographique en Algérie : la politique d'Ecriture et de Réécriture de l'histoire, tendances et contre-tendances *», Historiographie maghrébine : champs et pratiques* , Insaniyat 19-20, Oran, p. 10.

[82] Remaoun, H., 2008, « L'Etat nationale et sa mémoire : le paradigme histoire, *L'Algérie 50 ans après. Etat des Savoirs en Sciences Sociales et Humaines 1954-2004*, Oran, p. 149.

[83] Remaoun, H., 2008, pp. 152-153.

* كانت هذه المجلة تصدر من 1966 إلى غاية 1975 بحيث أصدرت 13 عددا من مجلتها.

[84] Remaoun, H., 2003, p. 13.

الإختصاصات التاريخية. إستنتج حسن رمعون في دراسته أن نسبة المقالات التي نشرت في التاريخ القديم في مجلة تاريخ وحضارة المغرب تمثل 8,92 % من المقالات المنشورة فيها: 9 مقالات حررت باللغة الفرنسية و مقال واحد حرر باللغة العربية[85]. إذا عقدنا* مقارنة بين هذه النسبة ونسبة المقالات المنشورة في أعداد مجلة التاريخ[86] نلاحظ أن هذه الأخيرة تقدر ب 6,03 %. أما الملاحظة الثانية التي يمكن إستخلاصها هو أن عدد المقالات المنشورة باللغتين كان متقاربا: 8 باللغة العربية و 6 باللغة الفرنسية.

يمكن تفسير تواجد اللغة الفرنسية بكثرة إلى العوامل التاريخية التي رافقت تأسيس الجامعة الجزائرية في سنوات بعد الإستقلال. إذ تعتبر السنوات الأولى للاستقلال سنوات مخاض للإسطوغرافيا الجزائرية الفتية، وما يميز فترة 1962-1971، التي سبقت مرحلة تعريب العلوم الإنسانية في الجزائر، هو طغيان اللغة الفرنسية في الكتابات التاريخية إلى جانب قدوم متعاونين أجانب الذين لعبوا دورا كبيرا في تكوين الجامعيين الجزائريين في كل إختصاصات العلوم الإجتماعية والإنسانية ونخص بالذكر هنا أولائك الذين يعرفون بالأقدام الحمراء (Les pieds-rouges) وهم في الغالب جامعيون فرنسيون ذوي توجه يساري[87].

رافق رحيل المعمرين الفرنسيين سنة 1962 قدوم شباب جامعيين فرنسيين متشبعين بالأفكار المعادية للإمبريالية، وميزتهم أنهم جاءوا من آفاق مختلفة وكانوا متشبعين بأفكار و إيديولوجيات مختلفة " *رومانسيون ثوريون وحالمون بمدينة فاضلة في العالم الثالث ومناضلون كاثوليكيين من أجل الأخوة العالمية* (...) *والقاسم المشترك بين كل هؤولاء هو النقمة والجريرة التي يكنونها للماضي الإستعماري ل*" *فرنسا العظيمة* " *وللماضي*

[85]Remaoun, H., 2008, p. 14.

* إعتمدنا على دراسة حسن رمعون لعقد هذه المقارنة و للأمانة العلمية علينا أن نشير إلى أن هذا البحث إعتمد على عينة من 24 عددا أي إلى غاية 1996.

[86] Remaoun, H., 2008, p. 15.

[87] Vermeren, P., 2012, p. 95.

التبشيري للكنيسة بالنسبة للمسيحيين "[88]. لقد كرس إستقلال الجزائر أفول "مدرسة الجزائر" التاريخية و ظهر في الجزائر تيار جديد يتبنى مقاربة التاريخ الجديد.

ما يهمنا في هذا الصدد هو تشكل نواة لجامعيين جزائريين تناولوا إسطوغرافيا العصور القديمة سواء بالدراسة أو النقد. ويعتبر الأستاذ محفوظ قداش، عضو في الكشافة الإسلامية الجزائرية ومناضل سابق في حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية ثم في جبهة التحرير الوطني، أول من خاض في غمار الدراسات التاريخية، ويعترف له ذلك فيرمرن بقوله: " *تحت رعية محفوظ قداش أصبح معهد التاريخ التابع لكلية الآداب ركن الدراسات في العلوم الإجتماعية والإنسانية* "[89].

لقد ترك رحيل المختصين الفرنسيين فراغا رهيبا يصعب تعويضه بحيث أن إذا أخذنا ميدان الحفريات وحدها فلم يكن يوجد في سنة 1970 إلا ثلاث مختصين جزائريين في الحفريات[90]. لقد أظهرت دراسات متخصصة مثل تلك التي قام بها منير بوشناقي أن الجزائر عانت في فجر الإستقلال من إنعدام مختصين جزائريين في ميادين الحفريات و المختصين في المتاحف وفي ترميم الأثار والمواقع التاريخية. في تلك الظروف الصعبة تخرجت الدفعة الأولى للمؤرخين وعلماء الحفريات الجزائريون ونذكر منهم : قادرية فاطمة قادرة و رشيد بورويبة و محفوظ قداش و سيرج لانسيل وجان دوزونج[91].

كانت السنوات الأولى للسبعينات المنعرج في الدراسات في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية بحيث عجلت سياسة التعريب في هجرة الكثير من هؤلاء المتعاونين. ما يهمنا هنا هو إعطاء نموذج لكيفية توظيف مصطلح " إنعتاق التاريخ " في العلوم الإنسانية عبر أول من نظر لهذا المصطلح : محمد-شريف ساحلي.

---

[88] Vermeren, P., 2012, p. 95.

[89] Vermeren, P., 2012, p. 101.

[90] Benseddik, N., 2008, « L'archéolologie en Algérie, hier et aujourd'hui », *L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en Sciences Sociales et Humaines 1954-2004*, Oran, p. 197.

[91] Bouchenaki, M., 2013, « Kadria Fatima Kadra. Première archéologue algérienne », *L'affirmation de l'identité dans l'Algérie antique et médiévale. Combats et résistances*, Alger, p. 11-12.

2-محمد شريف ساحلي* و نظرية إنعتاق التاريخ

إن فكرة تحرير التاريخ من الإيديولوجيا أو بالأحرى إنعتاق التاريخ ليست وليدة إستقلال بالد المغرب الكبير، الجزائر والمغرب الأقصى وتونس، بل تعود جذورها إلى سنوات المخاض التي سبقت حرب تحرير الجزائر. يعد صاحب هذه المقاربة، محمد شريف ساحلي، مناضلا في الحركة الوطنية الجزائرية ومثقفا و جامعيا.

أدرج إسم محمد شريف ساحلي في خانة المثقفين الملتزمين إلى درجة أن المفكر الجزائري مصطفى لشرف نعته ب " *إيديولوجي الحركة الوطنية* "[92]. لقد كرس كتاب محمد شريف ساحلي " إنعتاق التاريخ "، الذي نشر بفرنسا سنة 1965 بدار النشر ماسبيرو، شهرة الكاتب و المثقف في الأوساط العلمية والأكاديمية سواء في بلاد المغرب الكبير أو في الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط أي في فرنسا.

تبنى محمد شريف ساحلي أراء فرناند بروديل ومن ورائه مقاربة مدرسة الحوليات ليدحض إحدى فرضيات مؤرخي الاستعمار وهي " *الحتمية الجغرافية* ". ما يعيبه محمد شرف ساحلي على الإنتاج المعرفي لمؤرخي الاسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية هو تخصيصهم لمدخل في كتبهم لجغرافية البلاد وقد كتب في هذا الخصوص " *لا يوجد تاريخ للجزائر لا يحتوي على إطار جغرافي* "[93]. فما تأثير الجغرافيا على الأحداث التاريخية ؟ يدافع أصحاب هذه النظرية عن أطروحة مفادها أن للجغرافيا تأثير كبير على الإنسان و المجتمع والثقافة إلى درجة أن لا يمكن للإنسان أن يؤثر في الأحداث ومن هذا المنطلق تعتبر الجزائر " *البلد الأكثر انغلاقا وتجزئة من بين البلدان المغاربية الثلاثة* "[94]. ولقد تحامل محمد شريف ساحلي على جغرافيين معروف عنهم نبذهم للإستعمار على غرار نوشي ولاكوست (Lacoste) وبرونو (Prenant) لأنهم تبنوا تلك الأفكار. ما يمكن إستخلاصه من هذه النظرية هو أن التباين الكبير في التضاريس كان عائقا لتحقيق الوحدة السياسية وانصهار السكان ولقد كان عدم تجانس التضاريس عاملا مساهما في بروز

[92] Lacheraf, M., 1968, « préface », p. 18.
[93] Sahli, M-Ch., 1968, p. 159.
[94] Sahli, M-Ch., 1968, p. 159.

الخصوصيات المحلية. ومن البديهي أن مثل هذه الأفكار لقيت رواجا كبيرا عند مؤرخي الإستعمار.

إن التكوين الفلسفي و الجامعي لمحمد شريف ساحلي جعله يولي إهتماما جادا للنقد إذ أخضع النصوص التي درسها للنقد و التمحيص. ومن الأمثلة التي ندرجها في هذا السياق ذلك التعليق الذي كتبه محمد شريف ساحلي حول نص لغابريال كامبس يزعم فيه أن " لم يكن للبلاد نزعة بحرية "[95]، فرد عليه قائلا " *من السهل أن نعطي نماذج في تاريخ بلاد المغرب للوحدة السياسية و القوة البحرية* "[96]. دافع محمد شريف ساحلي عن أطروحة مفادها أن التاريخ يعطي لنا أمثلة عن كيف تحرر الإنسان من تأثير الوسط الطبيعي حين إبتكر التقنية كما إستشهد بأعمال فرناند بروديل و غيره من الحولياتيين الذين درسوا المناخ ليفسروا بعض الأزمات الإقتصادية.

عارض محمد شريف ساحلي بشدة نظرية الحتمية العرقية (Le déterminisme racial) التي تبناها مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية. ولقد أشرنا سابقا إلى أن رواج النظريات العرقية في القرن التاسع عشر لم يكن غريبا عن إنتشار أطروحة حول خصائص وطبائع الشعوب. لقد سقط الكثير من المؤرخين الفرنسيين في فخ الإسقاط (Anachronisme) حين صادفتهم صعوبات في أبحاثهم حول سكوت المصادر. أعاب محمد شريف ساحلي على ستيفان قزال، الذي لا يملك معطيات كثيرة وكافية حول البربر القدماء، وقوعه في فخ الإسقاط وهذا عند " *الإحالة إلى المجتمع البربري المعاصر له، ليحقق، عبر ألاف السنين، مقابلة حقيقية بين المجتمعين* "[97].

لقد بالغت الإسطوغرافيا الفرنسية حين تبنت نظرية الحتمية العرقية إلى درجة أن المؤرخ لاسوس (Lassus) أكثر من الإطراء على ستيفان قزال لأن هذا الأخير قدم وصف و تحليل للإنسان البربري " *خارج عن أي إطار كرونولوجي* "[98] أي أن ستيفان قزال وقع

[95] Sahli, M-Ch., 1968, p. 159.
[96] Sahli, M-Ch., 1968, p. 159.
[97] Sahli, M-Ch., 1968, p. 163.
[98] Sahli, M-Ch., 1968, p. 163.

في فخ الإسقاط حين لم يراعي التغيير الذي طرأ على المجتمع البربري فشتان بين المجتمع البربري في العصور القديمة و المجتمع البربري في نهاية القرن التاسع عشرة و بداية القرن العشرين. كانت نزعة وصف طبائع الشعوب هي موضة العصر إلى درجة أن فرضية ومقاربة ستيفان قزال رفعت إلى مقام الحقيقة العلمية. في هذا المخاض إبتكرت فكرة " *البربري البدائي الأزلي* " (l'immuable primitif berbère)[99] والتي تبناها الكثير من المؤرخين: غوتيي وجوليان ولاسوس وبرتيي وكامبس. ألصقت بالبربر عدة خصائص وميزات نذكر منها:

- عدم قدرة " البربر " على تحقيق الوحدة السياسية والاستقلال.
- يعتبر " البربر " غرباء عن الحضارة التي تؤثر فيهم دائما عن طريق الأجانب و الدخلاء. ويظهر تأثير الحضارة في المدن في حين أن هذا التأثير يكاد يكون منعدما في الأرياف التي تبقى مهمشة.

ما يعاب على كل من برتيي ولاسوس حين تحدثوا عن " *الإستمرارية البربرية* " هو تبنيهم لفكرة أن الجماعات البشرية التي يطلق هليها إسم " البربر " لم تكن خاضعة لقوانين التطور و التغيير. خلاصة القول أن توظيف النظريات العرقية في التاريخ هي مقاربة بعيدة عن الفكر العلمي.

إنطلاقا من بعض معطيات السوسيولوجيا ونتائج الأبحاث العلمية حاول بعض المؤرخين أن يعمموا تلك النتائج على مجمل تاريخ بلاد المغرب الكبير، ويعتبر إميل فيليكس غوتيي من بين من دافعوا عن أطروحة أن تاريخ بلاد المغرب الكبير يختزل في " *الصراع الدائم والمستمر بين البدو والحضر* "[100]. كان في نظرهم البدوي-الجمال (nomade chamelier) هو سبب مآسي وانحطاط حضارتي روما وبيزنطة في بلاد المغرب الكبير. إستلهم معظم المؤرخين هذه النظرية من إبن خلدون الذي يعتبر أول من تناول العلاقة بين البدو والحضر بالدراسة، وحسب نظرية إبن خلدون فالبدو يغيرون على الحضر لكسب قوتهم، وإعتمادا على إبن خلدون إستنتجوا أن العداوة بين البدو والحضر

[99] Sahli, M-Ch., 1968, p. 163.
[100] Sahli, M-Ch., 1968, p. 171.

والعرب و" البربر " هي إحدى مفاتيح قراءة تاريخ بلاد المغرب الكبير. خلاصة القول أن مثل هذه الأفكار لقيت صدى واسعا عند مؤرخي الاستعمار[101].

ناء محمد شريف ساحلي بالذود عن وجهة نظر السالفة الذكر، ويعتقد جازما بأن مؤرخي الاستعمار غالوا في تضخيم هذا التعارض والعداوة بين الفريقين؛ لأنه " *لا توجد حدود واضحة بين البدو والحضر المغاربة بل هناك تسلسل من الوضعيات الإنتقالية والأحوال المختلفة التي تتناسب مع تباين المناخ الذي يتغير من شمال بلاد المغرب إلى جنوبها أين يكون جافا. فالعداوة المفترضة بين الفريقين ما هي في الحقيقة إلا تعاون جسدته آلاف السنين من التعايش السلمي* "[102]. علينا أن نسلم مع محمد شريف ساحلي أن المؤرخ الكبير عبد الرحمان إبن خلدون أسهم في بناء ووضع هذه الأسطورة. الحس النقدي عند محمد شريف ساحلي جعله لا ينفي مطلقا هذه النظرية وهذا لسبب بسيط هو أن الصراع بين البدو والحضر له وجود فعلي في بعض الحالات، وهذا ما يوضحه بقوله: " *كان تدهور العلاقات بين البدو والحضر في تاريخ الجزائر نتيجة لتدخل الأنظمة السياسية التي تحت تأثير الرغبة الجامحة للطبقة الحاكمة الراغبة في توفير فائض من الربح تلجأ إلى إستغلال الأراضي الزراعية على حساب أراضي الرعي مما ينتج عن ذلك زيادة مطردة للملكية الفردية. تعتبر هذه السياسة عائقا أمام أصحاب قطعان الماشية لأنها تؤثر سلبا على الحياة الإقتصادية للبدو. كان هذا الحال سائدا تحت النفوذ الروماني أين توسعت المساحات المزروعة نحو الجنوب مما إستدعى بناء خط الليمس*"[103]. تظهر بداهة وفطنة محمد شريف ساحلي في دحض هذه النظرية باعتماده على الاقتصاد.

لم تكد تمر خمسة سنوات على نشر كتاب محمد شريف ساحلي بباريس سنة 1965 حتى سطع نجم مؤرخ مغربي ألا وهو عبد الله العروي ليثري النقاش حول موضوع إنعتاق التاريخ و الإسطوغرافيا في بلاد المغرب.

---

[101] حول التوظيف الإيديولوجي لنظرية إبن خلدون و بالخصوص التضاد بين البدو و الحضر نحيل القارئ إلى كتاب إيف لاكوست : Lacoste, Y., 1978, *Ibn Khaldoun. Naissance de l'histoire. Passé du tiers monde*, paris, p. 87-105.

[102] Sahli, M-Ch., 1968, p.171.

[103] Sahli, M-Ch., 1968, p.173.

3- عبد الله العروي و الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية

لا يوجد من بين كل المثقفين الذين تبنوا أطروحة محمد شريف ساحلي حول إنعتاق التاريخ مثقف أكثر شراسة في الدفاع عنها مثل المفكر المغربي الكبير عبد الله العروي. وهي نقطة التقاطع بين مشروعه الفكري و مشروع محمد شريف ساحلي.

في مقال رائع لدريس منصور حول عبد الله العروي* تحت عنوان عبد الله العروي أو هاجس الحداثة " يعرض لنا ترجمة مختصرة للمؤرخ والأديب المغربي[104].

في أي خانة يمكن أن نصنف عبد الله العروي؟ إنه بكل بساطة مؤرخ وكاتب مقالات (Essayiste) وروائي، ويعتبر دريس منصور عبد الله العروي ب " *المؤرخ الشبه رسمي للملكة* "[105]. يقودنا الحديث عن المثقف إلى التقسيمات التي وضعها عبد الله العروي للمثقف العربي: رجل الدين والليبرالي والتقنوقراطي[106]. يدرج عبد الله العروي في خانة المثقف الماركسي وحتى هو بنفسه يقر بذلك في هذه المقولة " *إن ضالة العرب الذين يبحثون عن أحسن مدرسة تاريخية سوف يجدونها في الماركسية* "[107]. لا يجب أن نغفل عند التطرق إلى المسار العلمي لعبد الله العروي أن تكوينه الأصلي كان في اللغة العربية[108]. وحسب وجهة نظره فإن الماركسية هي نظرية تساعد الإنسان العربي على التحرر من الإستلاب

---

* ولد عبد الله العروي في مدينة أزمور بالمغرب الأقصى سنة 1933، ودرس في ثانوية مولاي يوسف بالرباط قبل أن يواصل دراسته العليا بجامعة السربون وبالضبط في معهد الدراسات السياسية بباريس. لقد عين سنة 1964 أستاذا للتاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في حين أنه كان عضوا في الأكاديمية الملكية في المغرب وفي المجلس الإستشاري المغربي لحقوق الإنسان.

نشر عبد الله العروي عدة كتب أهمها: الإيديولوجية العربية المعاصرة (1967) ومجمل تاريخ المغرب (1970) و أزمة المثقفين العرب (1974) و الجذور الإجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (1977). صدرت كل هذه الأعمال باللغة الفرنسية. نشر عبد الله العروي أعمال أخرى باللغة العربية: مفهوم الإيديولوجيا (1980) و مفهوم التاريخ (2005) و ثقافتنا في منظور التاريخ (1986).

[104] Driss, M., 1997, « Laroui et l'obsession de la modernité », *Horizon maghrébin*, *Parcours Maghrébins Contemporains*, Tunis, p. 198.

[105] Driss, M., 1997, p. 198.

[106] Driss, M., 1997, p. 200.

[107] Driss, M., 1997, p. 208.

[108] Monteil, V., 1977, *Clefs pour la pensée arabe*, Paris, p. 183.

الفكري الذي تفرضه عليه الثقافة الغربية و من الفكري التقليدي البالي، ولكننا سنركز على تصور عبد الله العروي لإنعتاق التاريخ.

أ- مشروع تفكيك الإسطوغرافيا الكلاسيكية

كان الذود عن الحداثة وتفكيك الأسس النظرية للإسطوغرافيا الكلاسيكية هو الشغل الشاغل للمفكر المغربي الكبير عبد الله العروي. وهي نقطة التقاطع بين مشروعه الفكري ومشروع محمد شريف ساحلي.

بزغ إسم عبد الله العروي في الفترة التي تلت مباشرة إستقلال بلاد المغرب الكبير : الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، وفي هذه الظروف أوكلت لعلم الاجتماع مهمة المساهمة في التنمية، حيث كان " *تطور السوسيولوجيا كان مرتبطا بمسار البناء الوطني أين أعطيت الأولوية للعوامل الإقتصادية والسياسية إلى درجة أن هذا العلم وجد في التعارض الحداثة-التقليد تجسيدا لمشروعها الفكري* "[109]. من الطبيعي أن نتيجة هذا التصور للعلوم الإنسانية هو إقصاء الأنتروبولوجيا من التدريس في الجزائر. إن المواضيع التي تتناولها الأنتروبولوجيا لم تعد تهم المثقف: الثقافة الشعبية والقبيلة والمقدس والأساطير و الفلكلور[110]. يمكن القول بكل بساطة إنها رميت في سلة المهملات.

كان عبد الله العروي متشبعا بالأفكار الرائجة في هذا المناخ الفكري، ومن الإنصاف القول بأنه لم يتنكر في يوم من الأيام لإرث معاصره من الجزائر محمد شريف ساحلي. ما يعيبه عبد الله العروي على محمد شريف ساحلي هو أنه " *إعتقد أننا سنحرر تاريخ المغرب من الأفكار الإستعمارية بمجرد أن نكشف عن الخلفيات الإستعمارية لمؤلفين مثل غوتيه وستيفان غزيل و هنري تيراس* "[111]. إعترف عبد الله العروي أن لمحمد شريف ساحلي دين عليه ورغم ذلك فقد أخضع منهج محمد شريف ساحلي للنقد و التمحيص " *الكشف عن الخلفيات السياسية خطوة ضرورية، لا شك، لكنها ليست كافية. إني أسلك الطريق نفسها*

---

[109] Rhani, Z., 2012, « Ne touche pas à mon Orient ! Auto-exotisme et anti-anthropologie chez quelques intellectuels marocains contemporains », *Après l'Orientalisme. L'orient créé par l'orient*, Casablanca, p. 173.

[110] Rhani, Z., 2012, p. 173.

[111] العروي، ع.، 1996، *مجمل تاريخ المغرب*، الطبعة الخامسة، الدار البيضاء، ص. 28.

التي أراد ساحلي أن يسلكها، لكني أنبه القارئ من البداية على أن النقد لا يعني إنجاز ذلك العمل الإيجابي الذي نطمح إليه جميعا، فهو تمهيد له فقط "[112]. خلاصة القول أن عبد الله العروي أدرج أعمال محمد شريف ساحلي في سياقها التاريخي أي أنها تمهد الطريق لكتابة تاريخ جديد.

إن الصرخة التي أطلقها عبد الله العروي في السبعينات من القرن الماضي ما يزال دوي صداها مؤثرا إلى يومنا هذا " *وإذا التجأ إلى كتب الأجانب رآها تزخر بأحكام إستعمارية تعكر عليه صفو يومه. فيسخط و يقول : أين مؤرخونا ؟ لماذا لا يعيدون كتابة تاريخنا*؟ "[113]. تزعم عبد الله العروي إتجاه فكريا له مشروع عرضه في كتابه " مجمل تاريخ المغرب " : إلمام المؤرخ بطرق البحث و الإهتمام بكيفية " *صناعة المؤرخ* "[114] والنظر في " *كيفية تعامله مع أحداث ماضية*". ميز عبد الله العروي بين المنهج الإسلامي الكلاسيكي في الكتابة التاريخية والمنهج الغربي وإعترف بتفوق الثاني عن الأول. إن تبني عبد الله العروي لهذا المنهج لم يمنعه من إخضاع الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية إلى ميزان النقد، حيث يقول: " *يتميز التاريخ الاستعماري بتوسيع مفهوم الوثيقة. شرع الباحثون الأوروبيون في الحفريات، وسجلوا روايات شفوية و جمعوا الوثائق المكتوبة الأجنبية، رسمية كانت أم أدبية. ثم وسعوا أيضا مفهوم الواقعة بتجديد معنى الدولة. لم تعد تعني عندهم المدة الزمنية التي تستقل بالحكم أثناءها جماعة قليلة، بل عادت تعني مجموع المؤسسات التي تجسد السلطة العليا. على هذا الأساس أعطي للتاريخ إتجاه ومنطق وأقحم فيه التحقيب الثلاثي المتداول في التواريخ الأوروبية وأبدلت فكرة الدورة الخلدونية بفكرة التقدم. بهذه المبادئ كان المؤرخ الاستعماري يحكم على مادة التاريخ المغربي. كان يمارس نقدا هو في الحقيقة مجموع ملاحظات مترتبة عن تلك المبادئ و مطبقة بكيفية آلية على المعلومات التقليدية. وبسبب هذا النقد الإفتراضي المنفصل تماما عن ترابط الأحداث أجرى المؤرخون الإستعماريون أحكاما سلبية على تاريخ المغرب. فقالوا إنه تاريخ ناقص، متعثر، دوراني. و قالوا إنه تاريخ غامض، تاريخ قبائل متناحرة. كان التأليف الإستعماري جديدا*

---

[112] العروي، ع.، 1996، ص. 28.
[113] العروي، ع.، 1996،ص.14.
[114] العروي، ع.، 1996، ص.14.

في زمانه، لأنه إستعاب مكتسبات القرن التاسع عشر الأوروبي،لكنه الآن بالنظر إلى الإتجاهات المعاصرة، أصبح تقليديا. يمثل إذن في المغرب تقليدا ثانيا بجانب التقليد الأول،أي التأليف العربي الإسلامي"[115]. من الواضح للعيان أن عبد الله العروي أدرج إسطوغرافيا القرن التاسع عشرة في خانة التاريخ الوضعي أو التاريخ-الحدثي لهذا فهو يرى أن هذا التاريخ لم يعد صالحا بحيث يجب أن تعاد قراءته على ضوء المدارس التاريخية المعاصرة: إسطوغرافيا مدرسة الحوليات والإسطوغرافيا الماركسية التي يعد هو من أبرز روادها في البلاد العربية.

رغم تأثر عبد الله العروي بكتابات الجزائري محمد الشريف ساحلي إلا أن تأثره بمدرسة الحوليات التي تعتمد على العلوم الأخرى لكتابة التاريخ كان أشد. وهذا ما يوضحه قوله: " *لو كان عندنا معهد يجتمع فيه باحثون من شتى التخصصات، يعرفون المحيط الطبيعي و الوثائق المحلية معرفة دقيقة، و يتحلون بالذهنية النقدية الصارمة و بالحماس الذي يميز دعاة التاريخ الشامل- أعني أمثال الأستاذ فرناند بروديل في فرنسا-، لكان من مسؤولية ذلك المعهد أن يقدم للمغاربة مؤلفا شاملا يلخص نتائج ما أنجز من بحوث و كشوف، و لحكم مقدما بالعقم على كل عمل فردي*"[116].

القاسم المشترك بين فرناند بروديل وعبد الله العروي أنهما توقفا مطولا عند الكتاب المرجع لشارل أندري جوليان تاريخ شمال إفريقيا أثناء تمحيص ونقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.

لقد أخضع عبد الله العروي كل ما كتب عن تاريخ بلاد المغرب الكبير لميزان العقل والنقد: التسمية، التحقيب، أصل البربر، عرض بعض المقولات من إستعمار إلى أخر و غزو بعد أخر.

---

[115] العروي، ع.، 1996، ص.15-16.

[116] العروي، ع.، 1996، ص.30.

ب- الحدود بين التاريخ و الإيديولوجيا

في البداية علينا أن نشير أن عبد الله العروي خصص كتابه " مجمل تاريخ المغرب " لمشروع فكري طموح و جريء ألا وهو تحرير التاريخ من الإيديولوجيا. لقد بذل عبد الله العروي مجهودا كبيرا لنقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية وهذا ما يحسب له.

لقد أدرج عبد الله العروي في خانة المؤرخ الغير رسمي للنظام الملكي المغربي وبالتالي للعائلة العلوية الشريفية. رغم ولاءه للقصر الملكي إلا أن له تصور خاص به للتاريخ لأن الكتابة التاريخية تعني عنده المؤرخ و صناعة التاريخ. يعتبر عبد الله العروي من بين ثلاث ثلاثة نجحوا في مسعاهم في كتابة تاريخ شامل لبلاد المغرب الكبير في سبعينيات القرن الماضي: مرسيي وجوليان وهو بطبيعة الحال.

لم يدل عبد الله العروي بدلوه في المضمار الصعب لصناعة التاريخ فقط - مفهوم التاريخ. 1. الألفاظ و المذاهب. 2. المفاهيم و الأصول– بل أسهم أيضا في موضوع علاقة العرب ومن ورائهم المسلمين بالتاريخ: الإسلام و التاريخ. بحث في الإبيستيمولوجيا و من هذا المنطلق تبنى نظرية " تحرير التاريخ من الإيديولوجيا " و تجلى ذلك في كتابه " مجمل تاريخ المغرب "[117]. إذا كان عبد الله العروي قد أدرج في خانة المثقفين الماركسيين فإننا يمكن إعتباره من رواد الإسطوغرافيا الماركسية في البلاد العربية. لم يشكل تصنيفه في خانة الماركسيين عائقا بالنسبة إليه ليكتب حول الإيديولوجيا كما هو الحال في كتابه مفهوم الإيديولوجيا[118].

لقد نذر عبد الله العروي جهوده النقدية و الفكرية لتسليط الأضواء على تأثير الإيديولوجيا على الإسطوغرافيا. ومن بين المنطلقات الإيديولوجية التي تصدى لها عبد الله العروي بالنقد نجد فكرة " سوء الحظ " (malchance) التي لقيت رواجا كبيرا عند مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية و التي مفادها أن بلاد المغرب الكبير كانت تسير عكس مسار التاريخ للأسباب التالية: عدم فهم المغاربة للطابع الحضاري للتواجد

[117] Laroui A., 1970, *L'histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris, 206 p.
[118] العروي، ع.، 1999، *مفهوم الإيديولوجيا*، الطبعة السادسة، الربط، 142 ص.

الروماني في المنطقة ووقوعه في خطيئة إعتناق الإسلام و في الأخير وقوعه ضحية لهمجية بني هلال ثم القرصنة. و يواصل عبد الله العروي نقده لكل هذه الآراء ويصوب سهام نقده نحو مؤرخين محترفين ساهموا في إنتاج معرفي هائل ألا وهي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية و إبتكروا نظرية سوء الحظ التي تصد لها بالمرصاد " *بيد أن سوء حظ المغرب الحقيقي هو أن تاريخيه كتبه لمدة طويلة هواة بلا تأهيل : جغرافيون أصحاب أفكار براقة، وموظفون يدعون العلم، وعسكريون يتظاهرون بالثقافة، ومؤرخو الفن يتجاوزون إختصصاتهم، وبكيفية أعم مؤرخون بلا تكوين لغوي وأرخيولوجيون بلا تأهيل تاريخي. يحيل بعضهم على الأخر يعتمد هؤولاء على أولائك، وتحبك خيوط مؤامرة لتفرض الافتراضات البعيدة كحقائق مقررة* "[119].

يفهم من سياق كلام عبد الله العروي أن إذا ما إستثنينا بعض الحالات النادرة فإن تاريخ بلاد المغرب الكبير لم يكتب من طرف أهل الاختصاص، بل كتب من طرف هواة، الذين يعيب عليهم جرأتهم في تعميم بعض الفرضيات التي صارت بعد ذلك من المسلمات العلمية الغير قابلة للنقاش.

يرى عبد الله العروي أن هناك خط رفيع يفصل بين السياسة والعلم وبالتالي التاريخ، ورغم القطيعة التي رافقت إستقلال بلاد المغرب الكبير إلا أن جسور التواصل لم تنقطع بين الإنتاج المعرفي المتراكم خلال كل الفترة الاستعمارية وأجيال المثقفين الذين ينتمون إلى الفترة اللاحقة. ترسخت لدى المفكر المغربي قناعة ولدت أثناء تدريسه في الجامعات الأمريكية مفادها أن" *مؤلفات عهد الاستعمار حول المغرب، التي نهملها ونحتقرها، لا تزال تؤثر في أذهان الأجانب* "[120]. وإن تلك النزعة التي تتبنى الرأي القائل أن تجاهل تلك الإسطوغرافيا كفيل أن يقينا من تبني المغلطات التي توجد في حيثيات تلك الكتب. ما يعاب على مثل هذا التفكير هو أنه لا يمكن حجر وسجن الأفكار فهي حرة طليقة.

---

[119] العروي، ع.، 1996، ص.27.

[120] العروي، ع.، 1996، ص. 28-29.

لم يكن عبد الله العروي بمعزل عن تجدد المقاربات والمناهج للدراسات التاريخية، وفي هذا الإطار لم يخف إعجابه الكبير بمقاربة فرناند بروديل وتحسر على إنعدام معهد يتكفل بكتابة تاريخ شامل للمنطقة[121].

إن ازدراء عبد الله العروي للتاريخ التقليدي وإنبهاره بمقاربة مدرسة الحوليات جعله ينظم إلى قافلة أولائك الذين ينادون بضرورة الإعتماد على تاريخ جديد يستعين بالعلوم الأخرى و يتناول مواضيع جديدة مثل التاريخ الإقتصادي و يعتمد على علم النفس[122]. وكان وراء الصرخة التي أطلقها عبد الله العروي رغبة ملحة في توظيف العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى في الدراسات التاريخية، ويظهر هذا المسعى جليا في هذا السطر أين يبدي إعجابه الكبير بالتاريخ الجديد و مقاربته، حيث يقول: " *أردنا فقط أن نقترح تأويلات غير التي راجت إلى حد الساعة، متأثرين بمنهجية التاريخ الجديد* "[123]. لقد جمع عبد الله العروي في كتاباته بين التاريخ الجديد، بمفهوم رواد مدرسة الحوليات، و مقاربة إنعتاق التاريخ و تحريره من الإيديولوجيا.

كان لدى عبد الله العروي مشروعا طموحا يتمثل في تقديم " *نظرة مغربية على تاريخ المغرب* "[124]. إن تفضيل عبد الله العروي لمقاربة الحولياتيون جعله يعقد مقارنة جريئة بين تلك المدرسة و سابقتها المعروفة بالوضعية " *لا يكتب المؤرخ المعاصر بأسلوب وصفي مباشر، تتخلله تعليقات سريعة كما كان يفعل المؤرخ الوضعاني، بل يكتب من البداية إلى النهاية بأسلوب نظري تحليلي، لا يقص علينا أحداث الماضي بقدر ما يسرد مراحل تعامله مع المادة التاريخية* "[125]. لكن السرد والنقد هما شيئان مختلفين في ميدان البحث، فالسرد يعني كتابة أفكار علمية وأدبية وحتى أفكار مسبقة، وهنا تدخل الذاتية والإيديولوجية في الكتابة ومما لا شك فيه أنها عائق أمام المعرفة العلمية.

---

[121] العروي، ع.، 1996، ص. 30.
[122] العروي، ع.، 1996، ص. 18.
[123] العروي، ع.، 1996، ص. 25.
[124] العروي، ع.، 1996، ص. 29.
[125] العروي، ع.، 1996، ص. 19.

إن نقد الإسطوغرافيا ونقد الإيديولوجيا هما في صميم مشروع عبد الله العروي الذي عرضه في كتابه القيم مجمل تاريخ المغرب. ما يهمنا في هذا الكتاب هو كيف تناول التواجد الروماني في المغرب الكبير وما هو المنهج الذي اتبعه لنقد إسطوغرافيا العهد الروماني في المنطقة؟.

ت- كتاب " *مجمل تاريخ المغرب* " و نقد إسطوغرافيا العهد الروماني في الجزائر

حظي كتاب المؤرخ المغربي عبد الله العروي* " مجمل تاريخ المغرب " بحفاوة كبيرة عند صدوره عام 1970 و ما زال يثير الإهتمام إلى يومنا هذا. ما يهمنا هنا ليس الإطراء بالكتاب بقدر ما يهمنا الموضوع الذي تناوله: تفكيك ونقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.

ليس ثمة خلاف أن عبد الله العروي يعير إهتماما كبيرا لدقة الألفاظ ولتحديد المصطلحات. ولقد أشار إلى ذلك المفكر المغربي شقراوي خالد حين أكد أن عبد الله العروي إستعمل مصطلحات " المغرب " و " المغاربة " في جل صفحات كتابه ولكن تحفظ عن إستعمال تلك المصطلحات فيما يخص حقبة العصور القديمة أين يفضل إستعمال مصطلح " البربر " لتسمية سكان المنطقة في حين أنه يستعمل مصطلح خاص بالجغرافيين " شمال إفريقيا " حين يتحدث عن البلاد[126].

ما يثير إنتباهنا عند المفكر المغربي هو إعتنائه بقضايا المنهجية والتي هي في صميم إهتمامات الإسطوغرافيا: أصل تسمية البلاد وإشكالية التحقيب ثم تصوره لإسطوغرافيا البلاد. لقد أظهر عبد الله العروي حسا نقديا مميزا وهذا حين أخضع كل من تسمية البلاد وتحقيب المنطقة وبالتالي إسطوغرافيته إلى ميزان العقل والنقد.

---

* في ظرف خمسة سنوات 1965 و 1970 صدر كتابين في فرنسا يدعوان إلى ضرورة إنعتاق التاريخ: محمد شريف ساحلي و عبد الله العروي. تحت تأثير مقاربة إنعتاق التاريخ أوكلت لجامعيين مغاربة وفرنسيين مهمة إعداد كتاب خاص بالمتعلمين والطلبة في المملكة المغربية.

[126] Chegraoui, Kh., 2003, « Idéologie, Religion et ethnocentrisme au Maghreb. Des acteurs politico-intellectuels au Maroc contemporain », *Idéologie, nationalisme et idéal pan-africain, Conférence commémorative du 30 anniversaire du CODESRIA*, Dakar, p. 5.

علينا أن نشير إلى أن تواضع عبد الله العروي جعله يظهر إعجابه و تأثره بأعمال وأفكار شارل أندري جوليان، وهذا ما يلخصه قوله في هذا الصدد: " *إذ لا يوجد كتاب أخر بلغة أوربية يعطي نظرة عامة و شاملة عن ماضي المنطقة* "[127]. الإشادة بشارل أندري جوليان له مغزاه العميق لأن عبد الله العروي يطمح إلى كتابة تاريخ شامل لبلاد المغرب الكبير لذا تكمن إضافته في أنه يطمح لإخضاع إسطوغرافيا بلاد المغرب الكبير إلى النقد والتمحيص.

أولى عبد الله العروي إهتماما بالغا بالتحقيب بحيث ميز بين أربعة مراحل في التاريخ المغاربي*. المرحلة الأولى وهي العصور القديمة التي تنتهي عند نهاية القرن الثامن الميلادي؛ ثم مرحلة ثانية يدرجها في العصور الوسطى و التي تمتد من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر؛ والمرحلة الثالثة تمثل العصور الحديثة و التي تبدأ من القرن الرابع عشرة و تنتهي عند القرن التاسع عشرة والمرحلة الرابعة و التي يدرجها في الحقبة المعاصرة تبدأ من القرن التاسع عشر إلى عصرنا هذا[128]. يدافع هشام عبد الصمد[129] عن نفس الأطروحة فيشير إلى أن عبد الله العروي تخل عن التحقيب الثلاثي و تبنى التحقيب الذي أشرنا إليه سالفا. رغم أن التحقيب الذي إبتكره عبد الله العروي يختلف عن التحقيب الذي وضعه المؤرخون الأوربيون إلا أن ميزته أنه كان الفتح الإسلامي حدا فاصلا بين

---

[127] العروي، ع.، 1996، ص. 31.

* يطلق على هذا التحقيب إسم التحقيب الرباعي (La périodisation quaternaire).

[128] للإلمام أكثر عن التحقيب عند عبد الله العروي نحيل القارئ إلى المقال التالي.: Almoubaker, M., 2005, « La fin de l'antiquité au Maghreb, ou le Maghreb à la croisé de deux chemins », *La périodisation dans l'écriture de l'histoire du Maghreb. Actes des tables rondes de mai et septembre 2005 Marrakech-Tunis*, Textes réunis et édités par Fatma Ben Slimane et Hicham Abdessamad, Rabat, pp. 127-128.

[129] Abdessamad, H., 2005, « *La périodisation dans l'écriture de l'Histoire du Maghreb. Le bricolage et la patience », La périodisation dans l'écriture de l'histoire du Maghreb. Actes des tables rondes de mai et septembre 2005 Marrakech-Tunis*, Textes réunis et édités par Fatma Ben Slimane et Hicham Abdessamad, Rabat, p. 139.

العصور القديمة والعصور الوسطى*. ما يهمنا في هذا المقام هو تسليط الأضواء على وجهة نظر عبد الله العروي فيما يخص تحقيب العصور القديمة في بلاد المغرب الكبير.

يمكننا إستخلاص جملة من الملاحظات حول هذا التحقيب الذي وضعه عبد الله العروي، فيبدوا لنا من الوهلة الأولى أن عبد الله العروي أحدث قطيعة جذرية عن التحقيب السائد في الغرب. كما أن لهذا التحقيب علاقة وطيدة بالتاريخ المغاربي وليس بالتاريخ الغربي. لكن مما هو جدير بالملاحظة أن التحقيب الذي وضعه الغربيون للتاريخ المغاربي جعلهم يميزون بين حقبتين من هذا التاريخ، قبل وبعد الفتح الإسلامي[130]. لعلنا مازلنا تحت تأثير الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية التي إبتكرت صورة نمطية عن التاريخ المغاربي القديم الذي كان عبارة عن تعاقب الغزاة والمحتلين.

ما يثير فضولنا هو إعتماد كل من الإسطوغرافيا الغربية وعبد الله العروي ومن وراءه المؤرخون المغاربة الفتح الإسلامي كمعيار للتحقيب. يعتبر مقال محمد المبكر " نهاية العصور القديمة في بلاد المغرب أو المغرب في مفترق الطرق " من بين الكتابات المتخصصة التي تناولت إشكالية التحقيب في الفضاء المغاربي بالدراسة ودافع عن أطروحة مفادها أنه يمكن أخذ الفتح الإسلامي كمعيار للتحقيب لأن " الإسلام أدخل تغييرات هامة على البلاد وتتجلى هذه التحولات في اللغة و الدين و العادات مما أثار التساؤل التالي: كيف أن ثقل الماضي القديم وبالخصوص الماضي اللاتيني و المسيحي إندثر بسرعة و فجأة؟ "[131].

وتحت تأثير أطروحة " *القطيعة* " بين الحقب التاريخية التي روج لها كل من هنري بيران وإميل فيليكس غوتيي إضطر عبد الله العروي إلى التطرق إلى هذه القضية وتفنيدها من الأساس. لقد فند عبد الله العروي أطروحة غوتيي ودافع عن نقيضها إذ كتب في هذا

* التحقيب الذي إبتكره عبد الله العروي لبلاد المغرب يختلف عن التحقيب الغربي الذي يحدد ثلاث حقب تاريخية فاصلة (Périodisation ternaire) وهي التاريخ القديم و الوسيط والحديث.

[130] Almoubaker, M., 2005, p. 129.

[131] Almoubaker, M., 2005, p. 130.

الصدد " *علينا أن نبرهن أن كل مرحلة متصلة بالأخرى و متميزة عنها* "[132]. نقد عبد الله العروي تحقيب الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية المبني على المعايير الجغرافية والعرقية إذ شرح موقفه قائلا " *سنتحاشى أولا التحقيب حسب المعطيات الجغرافية أو العرقية مثل أن نجزىء تاريخ المغرب إلى فترات: بونيقية، رومانية، وندالية، بيزنطية، عربية، تركية، فرنسية، لأن عيوب هذا التقسيم واضحة، ونتجنب تحقيبا أخر أكثر خطورة لأن جميع الكتاب يقبلونه ضمنيا. نسميه أسطورة العهود الثلاثة التي عممها التعليم الجامعي والتي تعبر عن فلسفة خفية* "[133]. تبنى غابريال كامبس نفس الأطروحة التي دافع عليها عبد الله العروي و التي مفادها أن تاريخ المغرب القديم ما هو في جوهره إلا " *تاريخا للحكم الأجنبي* " فينيقيون و رومان ووندال[134]. يدافع غابريال كامبس عن أطروحة جريئة تعارض الأسس التي تقوم عليها الإسطوغرافيا الغربية إذ من منطلق أن " البربر " ينتمون إلى الجماعات التي لديها ثقافة شفوية فإن الإسطوغرافيا التي كتبها هؤولاء الغزاة الأجانب تتجاهل دور " البربر " لأنهم لا يملكون وثائق مكتوبة.

إن تحامل عبد الله العروي على التحقيب الغربي الذي يطلق عليه تسمية " *أسطورة العهود الثلاثة*"* له ما يبرره من الناحية المنهجية، فمن منطلق تفوق الحضارة الغربية على الحضارات الأخرى عمم هذا التقسيم الخاص بالتاريخ الغربي على تاريخ الحضارات الأخرى. ما يعيبه عبد الله العروي على هذا التقسيم هو تأثير السياسة فيه، وفي هذا الصدد يقول: "*لكي ينطبق هذا التقسيم على التاريخ المغربي لا بد من تعديل صغير أو كبير. يضع المؤلفون المغربيون الفتح الإسلامي (القرن السابع م) موضع الغزو الجرماني (القرن الخامس في أوربا). أما مقابل عهد النهضة، فمهم من يضع الفتح العثماني (القرن السادس عشر) و منهم من يضع الغزو الفرنسي (القرن التاسع عشر). هذا التقسيم في ظاهره*

---

[132] العروي، ع.، 1996، ص. 36.

[133] العروي، ع.، 1996، ص. 36.

[134] كامبس، غ.، *البربر. ذاكرة وهوية*، ترجمة عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، 2014، ص. 185.

* ما يقصده عبد الله العروي بأسطورة التحقيب الثلاثي هو الحقب التاريخية الكبرى (Périodisation ternaire).

بيداغوجي صرف، لكنه في الواقع يخفي رأيا سياسيا "[135]. حسب وجهة نظر عبد الله العروي قد قلد ونسخ المؤرخون المغاربة نظراءهم في الغرب وتبنوا طريقة تحقيبهم دون نقد. خلاصة القول أن التحقيب في التاريخ المغاربي ما هو إلا صورة طبق الأصل للتحقيب في التاريخ الغربي الذي يقسم إلى " *العهد القديم هو عهد روم والعهد الحديث هو عهد فرنسا و بينهما عهد العرب* "[136].

إن إهتمام عبد الله العروي بإشكالية التحقيب لم يمنعه من أن يدل بدلوه في مسألة تسمية بلاد المغرب الكبير في العصور القديمة. ولا يكاد يخلوا أي كتاب نشر في فترة الإحتلال الفرنسي من مدخل يتناول جغرافية البلاد وهو ما تؤاخذ عليه مدرسة الحوليات المدرسة الوضعية. فهل يجوز إسقاط إسم الجزائر على العصور القديمة. هذا ما يحول عبد الله العروي التنبيه إليه في فقرة من كتابه.

ث- إشكالية تسمية بلاد المغرب الكبير

لقد طرحت إشكالية تسمية بلاد المغرب الكبير على المؤرخين سواء قبل مجيء عبد الله العروي وبعده. السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو التالي: ماهي وجهة نظر عبد الله العروي في الموضوع من خلال كتابه " مجمل تاريخ المغرب " ؟

لم تسلم تسمية البلاد من نقد عبد الله العروي. ما عدا كلمة المغرب فقد برع المثقفون الغربيون في إبتكار تسميات خاصة بالبلاد مثل تسمية " بلاد البربر " (La Berbérie) و " غرب شمال إفريقيا " و " شمال إفريقيا ". ومن الطبيعي أن يتساءل عبد الله العروي عن مدلول تلك التسميات " *إذا قلنا شمال إفريقيا، إعترض عليها الجغرافيون لأننا لا ندخل فيها مصر. إذا قلنا غرب شمال إفريقيا، كنا أقرب إلى الواقع، لكن الوصف يعبر عن حالة سياسية معاصرة. إذا قلنا أرض البربر، إستعملنا عبارة كانت رائجة في أوربا في بداية العصر الحديث ثم نبذت لما تحمل من خلفيات سياسية و ربما عرقية. أما كلمة مغرب، ذات المعنى المطاط، فإنها تفيد في اللغات الإفرنجية لأنها دخيلة عليها، و لا تفيد في العربية*

[135] العروي، ع.، 1996، ص. 36.
[136] العروي، ع.، 1996، ص. 36.

حتى ولو أضفنا إليها صفة عربي أو إسلامي "[137]. تحامل عبد الله العروي على هذه التسميات يجعلنا نتساءل عن التسمية الملائمة التي تفي بالغرض. جزء من الإجابة تقدمه لنا الإسطوغرافيا نفسها "*لنراقب ظهور فكرة المغرب وكيف انتهت الفكرة بأن طابقت الواقع الجغرافي* "[138]. إن بيت القصيد في هذه الجملة هو أن كلمة المغرب لديها مدلول تاريخي فالمتصفح لكتب التاريخ يمكن أن يقول لنا متى إستعملت لأول مرة في التاريخ. وفي هذا الصدد فإننا نتفق مع أطروحة المؤرخين المنضوين تحت راية الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية أمثال شارل أندري جوليان[139] و بنيامين سطورا[140] و القائلة أن العرب الفاتحين هم أول من أطلق تسمية جزيرة المغرب على البلاد. إذن من البديهي أن مقاربة عبد الله العروي وطريقة عرضه لإشكالية التسمية لا يمكننا إلا أن نقر بصحتها من الناحية المنهجية، فالرأي السليم والسديد يملي علينا العودة إلى الوثائق التاريخية لنرى متى وفي أي ظروف ظهرت تلك التسمية.

لكي نعطي للموضوع حقه علينا أن نشير إلى أن حتى المؤرخون والجغرافيون القدامى إختلفوا وتباينوا في الموضوع. لقد أماط جان دوزونج (Jehan Desanges) اللثام عن السر وراء تغير التسميات التي أطلقت على البلاد. لا يختلف إثنان على أن الإغريق سموا البلاد ليبيا و البحر الذي يحيط بها البحر الليبي وكانت التسمية رائجة قبل أن يطلق الرومان على البلاد تسمية إفريقيا. ورغم رواج التسمية التي إبتكرها الرومان إلا أن كل من بلين الكبير و بومبونيوس ميلا (Pomponius Méla) واصلوا إستعمال التسمية التي أطلقها الإغريق في كتاباتهم[141]. ما يهمنا في هذا الصدد هو أن النقاش تعد مسألة تسمية

---

[137] العروي، ع.، 1996، ص. 32.

[138] العروي، ع.، 1996، ص. 33.

[139] Julien, Ch-A., 1978, *Histoire de l'Afrique du Nord. Des origines à la conquête arabe*, Alger, p. 9.

[140] Stora, B., 1996, *Histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954*, Alger, p. 8.

[141] Desanges, J., 1999, *Toujours Afrique apporte fait nouveau*. *Scripta Minora*, Paris, pp. 95-96.

البلاد إلى إسم السكان و نحن بدورنا نتفق مع غابريال كامبس حين يقول عن كلمة البربر " *إن أصل هذه الكلمة هو نفسه مثار للخلاف* "[142].

خلاصة القول أن إذا كانت تسمية المغرب هي التسمية الشائعة في الدراسات التاريخية إلا أن المصادر في التاريخ القديم تحيلنا إلى تسميات أخرى مثل نوميديا و قرطاجة ومقاطعة إفريقيا.

إن فكرة تعاقب الغزاة الأجانب على بلاد المغرب الكبير هي فكرة إستهوت مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية و هذه المقاربة السطحية لتاريخ بلاد المغرب الكبير لم يستسغها عبد الله العروي الذي خصص فقرة لكتابه تحت عنوان " من إستعمار إلى أخر " و أخضعها لميزانالنقد و التمحيص.

ج- نقد عبد الله العروي لمقولة " من إستعمار إلي أخر"*

حظيت إفريقيا الرومانية بإهتمام كبير من المؤرخين الفرنسيين الذين تناولوا تاريخ المنطقة بالدراسة و تركوا لنا أعمال أكاديمية راقية و من بين من دل بدلوه في الموضوع نذكر: جلبير شارل بيكار و بول ألبير فيفري و فرانسوا دوكري (Decret François) و محمد فنطر و كلود لوبلي (Claude Lepelley) و كلود بريان بونسار (Claude Briand-Ponsart). يعتبر هذا الإنتاج المعرفي غزيرا و ميزته أنه كتب من طرف أقلام و مؤرخين متخصصين.

لم تحظ حقبة تاريخية بالدراسة في التاريخ القديم كما حظيت به بلاد المغرب الكبير في العهد الروماني. و تحت تأثير الإيديولوجيا والسياسة حاولت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية مد جسور التواصل بين التواجد الفرنسي و التواجد الروماني في المنطقة. يدعم هذا الرأي ما نقله بواسيير عن تصور المثقفين الفرنسيين لبداية الإحتلال للماضي الروماني

---

[142] كامب،غ.، 2014، ص. 125.

* تعتبر هذه المقولة عنوان للفصل الثالث من كتاب عبد الله العروي " مجمل تاريخ المغرب " ويحتوي هذا الفصل على ستة وأربعين صفحة، من صفحة 55 إلى صفحة 101.

" *إننا بصدد فرض سيادتنا من جديد على ملكية قديمة و تعتبر الأثار، التي يحترمها ويخشاها العرب، وثيقة ملكية لنا* "[143]. رغم نزاهة بحث بواسيير و قيمة كتابه العلمية إلا أنه وقع في خطا جسيم ألا وهو دراسة تاريخ روما بأعين الحاضر " *إن مهمة روما المجيدة نحو العالم القديم هي نفسها المهمة التي تريد فرنسا إنجازها إتجاه هذه المنطقة من إفريقيا* "[144].

كان زوال الثقافة اللاتنية و الديانة المسيحية هو الشغل الشاغل للإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية. بما أن إمبراطورية فرنسا الإستعمارية تعتبر نفسها الوريثة الشرعية لإمبراطورية روما في بلاد المغرب الكبير فإن مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية إبتكروا مصطلح القطيعة في التحقيب لكي يفسروا القطيعة بين الحقب التاريخية. فحسب وجهة نظرهم فإن البلاد تعاقب عليها غزاة على مر العصور و من هنا ظهرت مقولة من إستعمار إلى أخر. نقد و دحض تلك الفرضيات والمسلمات هي في صميم المشروع الثقافي للمفكر المغربي عبد الله العروي.

لعبد الله العروي تصور خاص لإسطوغرافيا بلاد المغرب الكبير في العصور القديمة فهو يرى أن تاريخ بلاد المغرب الكبير كتب بأقلام أجنبية. كان هذا التصور هو التصور الغالب في الأوساط الأكاديمية إلى درجة أن غابريال كامبس ربط بداية التاريخ في بلاد المغرب الكبير مع بروز شخصية الملك النوميدي ماسنيسا [145]. يحيلنا ضمنيا غابريال كامبس من خلال عنوان كتابه إلى دور الإسطوغرافيا الرومانية في القرن الثالث قبل الميلاد في تسليط الأضواء على شخصية ماسنيسا أي أن بداية التاريخ تعني بداية تأريخ الرومان لتاريخ المنطقة.

إن مقولة من " إستعمار إلى أخر " تعطي الشرعية للتواجد الفرنسي بالجزائر إذ تدعم الرأي القائل أن السكان ليس لهم سيادة على بلادهم. لقد ظهر هذا التوجه في الحفريات التي إهتمت بكل ما يخص المواقع الرومانية و أهملت كل ما يخص أثار الحضارتين

---

[143] Dondin-Paye, M., 2011, p. 53.

[144] Boissière, G., 1883, L'Algérie romaine, I, 2ème, Paris, p. XIII.

[145] كامبس، غ.، 1960، *في أصول البربر. ماسينيسا أو بدايات التاريخ*، ترجمة عقون، ع.، 2012، الجزائر، 730 ص.

البونيقية و النوميدية[146]. كرست الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية صورة نمطية عن تاريخ البلاد تتمثل في تعاقب المستعمرين عليها وإنفراد المؤرخين الأجانب بكتابة تاريخ المنطقة " *تكون الفترة الطويلة الممتدة من القرن العاشر ق.م إلى القرن السابع حقبة مميزة يطأ أثناءها أرض المغرب الفينيقيون والإغريق والرومان والوندال، بعضهم يزور الساحل فقط وبعضهم يقيم ويتوغل داخل البلاد. حول هذه الحقبة الطويلة نسجل في البداية واقعا في غاية الأهمية: إننا لا نعرفها إلا من خلال الآداب اليونانية و اللاتنية. نتعرف على المغاربة الأصليين من خلال ما يقوله عرضا جغرافيون ورحالة وهم يتكلمون على شعوب أخرى، والأمر كذلك بالنسبة إلى غزاة المغرب، القرطاجيون والوندال، بحيث نستقي معلوماتنا عن البربر عبر واسطتين: نراهم من خلال أنظار القرطاجيين ونرى هؤولاء من منظور الرومان فيظهرون لنا وكأنهم أشخاص يشاهدون من بعيد ما يقع على أرضهم من المآسي* "[147]. لم يكتب البربر التاريخ أو بالأحرى لم تصل إلينا كتاباتهم وبالتالي لم يكن أمام المؤرخ كتابات أخرى سوى تلك التي تركها لنا الأجانب. إن عدم وجود إسطوغرافيا مغاربية جعل عبد الله العروي يسلم أن ما يكتب عن الأهالي ما هو في الحقيقة إلا صفحة من التاريخ الرسمي الذي حرره الأجنبي، و يلخص العروي هذا الموقف بقوله: " *جملة القول أن معظم الكتب التي تؤرخ للحقبة المذكورة تؤرخ في الواقع لروما، و لروما وحدها* "[148].

كان نقد تلك المصادر الأدبية بمثابة الشغل الشاغل لعبد الله العروي لأن في كتابة التاريخ لا يعتمد المؤرخ فقط على المصادر الأدبية بل هناك مصادر أخرى مثل النقوش والآثار والنقود(العملة). إذا كان من المسلم به أن النقوش والحفريات تسلط الأضواء على جوانب مظلمة لم تتطرق إليها المصادر الأدبية فإن هذا الرأي لا يلق إجماع المختصين " *في الواقع عندما نتجاوز المؤلفات المجملة الموجهة للقارئ العادي، نصطدم بالحقيقة التالية: تنقسم الوثائق غير الأدبية إلى قسمين: منها ما يسهل تأريخه و تأويله و هذا القسم لا يغير*

[146] Benkada, S., 2006, p. 237.

[147] العروي، ع.، 1996، ص. 57.

[148] العروي، ع.، 1996، ص. 58.

شيئا من المعلومات التي نستقيها من الأدبيات، و منها ما نتوقع أن نجد فيه معلومات جديدة، لكن هذا القسم هو ما لا يتفق الباحثون على حقيقة و معنى محتواه "[149]. حسب عبد الله العروي لا يضاهي إهتمام الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية بالأطلال الرومانية، عسكرية كانت أم مدنية، إلا تجاهلها وإهمالها للأطلال البربرية. لقد تبن جان ماري لاسير نفس الموقف إذ يعتبر أن المصادر الأدبية حول بلاد المغرب الكبير كانت شحيحة في حين أن ما تقدمه لنا الحفريات من بقايا مثل النقوش و الخزف ليست "*كافية لكتابة التاريخ* "[150].

رغم جرأة وشجاعة عبد الله العروي إلا أنه ارتكب بعض الأخطاء فنلاحظ أنه وقع في بعض المغالطات التاريخية وهذا حين استعمل كلمات البربر والمغاربة الأصليين عند إحالته إلى سكان البلاد القدامى: النوميديون والليبيون والمور والجيتول.

لا يمكن لأحد أن يتجاهل دور العلوم المساعدة للتاريخ في تسليط الأضواء على جوانب لم تتطرق إليها المصادر الأدبية، وفي هذا الإطار بالذات ساعدت بعض العلوم مثل الحفريات في إعادة قراءة وتأويل النصوص الأدبية. ما يهمنا هنا هو أن عبد الله العروي تناول الأربعة قرون من النفوذ من زاويتين أساسيتين هما: الإسطوغرافيا المسيحية و سبب فشل روما الذريع في شمال إفريقيا.

ح- نقد الإسطوغرافيا المسيحية

إن تمسيح بلاد المغرب الكبير بقي راسخا في مخيال الغربيين عموما و المثقفين منهم خاصة الكاثوليك. إن الإنتشار الواسع للمسيحية في إفريقيا الرومانية بلغ ذروته مع القديس أوغسطين و القديس تيرتوليانوس. يرى عبد الله العروي أن السلطة الروحية، الكنيسة، تعاظم نفوذها إلى درجة أنها حلت محل السلطة الزمنية، الإمبراطورية الرومانية " *حلت الكنيسة المسيحية، إبتداءا من القرن الثالث، محل السلطة الإمبراطورية على مستويات عديدة* "[151]. نجد هذه الأطروحة التي دافع عنها عبد الله العروي في مراجع تاريخية أخرى فيمكن أن نحيل القارئ إلى غابريال كامبس الذي يعترف بتنامي نفوذ الكنيسة على حساب

---

[149] العروي، ع.، 1996، ص. 58.

[150] Lassère, J-L., 2015, p. 10.

[151] العروي، ع.، 1996، ص. 66.

سلطة الإمبراطورية الرومانية فيكتب قائلا " *تقوم كلها شهادات على تمسيح يبدوا و من بعض الوجوه و قد تجاوز حدود السيطرة الإمبراطورية* "[152].

يرى عبد الله العروي أن الكنيسة تركت إرثا كبيرا للإسطوغرافيا في بلاد المغرب الكبير: أخبار شهداء النصارى، القوائم الأسقفية الطويلة من المجامع الدينية الإفريقية والقوانين الدينية للإمبراطورية. ما يهمنا هنا هو التعرف على محتوى هذه المؤلفات. يميز عبد الله العروي بين إتجاهين متباينين داخل الكنيسة: أنصار و خصوم الكنيسة " *تصور لنا مؤلفات النصارى الأفارقة مسيرة الكنيسة. كانت أيام ترتوليان* (160-245) *تعارض السلطة الرومانية معارضة عنيفة، إلى حد الإنخراط في الجندية، ثم إنتهت أيام أغسطين* (354-430) *إلى التفاهم و التعايش معها. فأصبحت كل من السلطتين، المدنية و الدينية، تعترف بنفوذ الأخرى المطلق داخل النطاق المحدد لها* "[153]. خلف الصراع بين أتباع تلك المذاهب، الدوناتية و الكنيسة الرسمية، ثورات تحدث عنها شارل أندري جوليان[154] بإسهاب و لقد أنتجت الثقافة المسيحية في ظل هذا الصراع أدبا راقيا يعتبر كل من سيبريانوس و تيرتوليانوس و القديس أوغسطين من أشهر أعلامه. يمكننا أن نستخلص أن الأعمال الأدبية لأباء الكنيسة الإفريقية تشكل مصادرا هامة للإسطوغرافيا المسيحية.

أمام صمت وسكوت المصادر إعتمد عبد الله العروي ومن سار في دربه من المؤرخين على مؤلفات وكتابات الكنيسة لدراسة تاريخ المنطقة. إن المقاربة التي تبناها عبد الله العروي سليمة لأن باستثناء الجدل الديني تحتوي تلك الإسطوغرافيا على كم هائل من المعلومات في الاقتصاد والسياسة والحرب والمجتمع كلها تفيد المؤرخ في عمله.

إجتهد عبد الله العروي في تفيسر طريقة دخول و توغل الديانة المسيحية في بلاد المغرب الكبير. لقد دافع عن أطروحة مفادها أن جماعات شرقية تكفلت بمهمة نشر المسيحية في المدن الساحلية قبل أن يتكفل الجنود الرومان بنشر تلك الديانة في المدن الساحلية. ومن بين الجماعات التي تكفلت بنشر المسيحية يذكر عبد الله العروي فقراء

---

[152] كامب، غ.، 2014، ص. 216.

[153] العروي، ع.، 1996، ص. 66.

[154] Julien, Ch-A., 1978, pp. 201-222.

المدن والأرياف. ودائما فيما يخص بدايات الديانة المسيحية في بلاد المغرب الكبير نحيل القارئ إلى أعمال المؤرخ الفرنسي جان ماري لاسير الذي تناول بإنصاف هذه البدايات إذ تطرق إلى بعض الروايات التي تذهب إلى أن بعض حواريي عيسى جاءوا إلى شمال إفريقيا لنشر المسيحية: بطرس و مرقا و شمعون[155]. مهما يكن فإن إنتشار الديانة المسيحية في بلاد المغرب الكبير كان تحت تأثير الشرق.

كانت هناك طائفتين داخل الكنيسة الإفريقية وهما الأساقفة المنادون بالاستقلال وقادة الكنيسة المنضوين تحت سلطة الإمبراطور. تزايد الاحتقان بين الطائفتين إلى درجة أن المغاربة " شقوا عصى الطاعة على كنيسة روما والتفوا حول الحركة الدوناتية (Donatisme). إشتعل فتيل الحرب بين الدوناتيون والكنيسة الكاثوليكية ودام قرنا من الزمن، وفي الأخير إنتصرت الكنيسة الرسمية التي دافع القديس أغسطين عن لوائها بعدما إلتفت حوله بعض القوى الإجتماعية: السلطة المدنية وكبار الملاكين.

يكثر عبد الله العروي من الإطناب على مقاربة إستغلال المؤرخ للنصوص الدينية المسيحية لملأ الفراغ الذي تركته سكوت المصادر خاصة في الفترة الممتدة ما بين القرن الثالث والسابع الميلاديين و يضيف أن على المؤرخ أن يستعين بعلم الحفريات " *لا أحد ينكر أهمية المؤلفات والآثار والنقوش المسيحية لمعرفة الفترة الفاصلة ما بين القرن الثالث والقرن السابع* (م). *لا يجد المؤرخ وثائق غيرها تتصل بالجزء الغربي الذي جلا عنه الجيش الروماني في أيام ديوقليزيان، و لا توجد معلومات حول الطبقات الفقيرة، المهملة عادة في التاريخ الرسمي، إلا في مجموعة أخبار الشهداء، رغم ما فيها من مزالق إستطاع النقد الحديث أن يتجاوزها* "[156]. لا يخامرنا شك في أن المؤرخين وجدوا أنفسهم أمام نصوص دينية ولم يكن لديهم أية وسيلة أخرى سوى التعامل معها على أن الفارق أن عبد الله العروي أخضعها لميزان النقد و التمحيص. رغم تناقض و تعدد الأثار ترى جان ماري

[155] Lassère, J-L., 2015, p. 349.

[156] العروي، ع.، 1996، ص. 67.

لاسير أننا يمكن أن نعتمد على بقايا الحفريات لكتابة تاريخ الأبرشيات في مدن إفريقيا الرومانية[157].

كانت بقايا الحفريات مادة علمية إستغلتها الإسطوغرافيا المسيحية لكتابة و مناقشة أعمال علمية هامة و نذكر هنا كتاب مرتونس (Mertens) الشهداء الأوائل و أحلامهم[158]. تطرقت تلك الإسطوغرافيا إلى أباء الكنيسة مثل بحث كلارك[159] حول رسائل سيبريانوس و ماندوز حول الدوناتية[160].

ما يعيبه عبد الله العروي على كل أولائك الدارسين لتاريخ بلاد المغرب الكبير هو أنهم يرون " *المغاربة من خلال منظور الكنيسة كما رآهم غيره من منظور الإمبراطورية* "[161]. يتناول المفكر المغربي فكرة جوهرية روجت لها الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية مفادها أن المغاربة لم يلعبوا دورا يذكر في التاريخ فكانوا مهمشين أو بالأحرى منسيوا التاريخ، وفي هذا الصدد يقول العروي: " *أما الساكن الأصلي فإننا نجتهد لنتخيله عاملا فوق ضيعة كبرى، مؤديا ضريبة القمح، محاصرا في الأوراس، طريدا وراء السد الأمني دون أن نراه أبدا رؤية واضحة مباشرة* "[162].

كان عبد الله العروي قاسيا في حكمه على تلك الإسطوغرافيا. تتمثل وجهة نظر عبد الله العروي في أن تلك النصوص قد أنتجتها الكنيسة وبالتالي فهي تطرح وجهة نظر فريق واحد وتتجاهل رؤية الأخر، السلطة الرسمية والسكان، للوقائع التي تعرضها. وعلينا أن نشير هنا إلى إشكالية المصادر المسيحية. مما لا نقاش فيه أن تلك المصادر تكاد تكون

---

[157] Lancel, S., 1990, « Évêchés et cités dans les provinces africaines (IIe-V) siècles», L'Afrique dans l'Occident romain (1er siècle av-J.C – VI siècle ap. J. C). Actes du colloque organisé par l'Ecole française de Rome sous le patronage de l'Institut national d'archéologie et d'art de Tunis, Paris, pp. 274-290.

[158] Mertens, C., 1986, « Les premiers martyrs et leurs rêves. Cohésion de l'histoire et des rêves dans quelques passions latines de l'Afrique du Nord », *Revue d'histoire ecclésiatique*, vol. 81, n 1-2, Louvain.

[159] Lassère, J-M., Le Bohec, Y., 1991, p.9.

[160] Lassère, J-M., Le Bohec, Y., 1991, p.56.

[161] العروي، ع.، 1996، ص. 67.

[162] العروي، ع.، 1996، ص. 68.

منعدمة كلما بحثنا في البدايات. لقد دافع سيرج لانسيل على هذا الرأي قائلا "*تفسر غموض بدايات المسيحية بفقر المصادر. لا يوجد حسب معرفتنا أي نص يعود إلى ما قبل القرن الثاني* "[163]. و دائما فيما يخص المصادر فقد أشار تيرتوليانوس إلى وجود أرشيف لدى مسيحيو قرطاجة و فيمل يخص محتواه فهو يضم قائمة لأتباع المسيح و كتب الأساقفة و كل ما يتعلق بحياة و تاريخ الجماعة[164].

من الواجب التنبيه إلى أن تهميش الأهالي أو السكان هو تحصيل حاصل لأن التاريخ كما تقول المقولة المأثورة يكتبه المنتصرون. إن محاولات ربط جسور التواصل بين العهد الفرنسي و العهد الروماني في بلاد المغرب الكبير فرض على المؤرخين تناول مسألة نفوذ و توغل الرومان في البلاد وأثر حضارتهم على السكان.

خ- حقيقة التواجد الروماني في بلاد المغرب الكبير وإشكالية تمدين الأهالي

رغم وجود إثنا عشر قرنا بين التواجد الفرنسي في بلاد المغرب الكبير و التواجد الروماني إلا أن سؤال كبير بقي يحير العلماء حول مدى إمتداد هذا التواجد.

فغابريال كامبس تساءل عن حسن نية عن "*مدى الرومنة* "[165] في البلاد؟ في حين أن عبد الله العروي طرح إستفهاما إلى أي عمق وصل تأثيرها؟

لقد قام بعض المؤرخين على غرار كورتوا[166] و يان لوبويك[167] بمحاولات جادة لقياس مساحة التواجد الروماني في شمال إفريقيا. يتفق كلا المؤرخين على رقم واحد ألا وهو 350.000 كيلو مربع. لقد أخضع عبد الله العروي هذا الرقم إلى ميزان النقد والتمحيص، حيث يرى أن لا قيمة لهذا الرقم كونه أخذ في الحسبان بعض المعطيات و تجاهل معطيات أخرى. إذا كان كورتوا قد قام بحساب مساحة البلاد إعتمادا على المساحة التي يحددها خط الليمس في القرن الثاني للميلاد فإن عبد الله العروي لم يدخل في حساباته مناطق لم

[163] Lassère, J-M., 2015, p. 350.

[164] Lassère, J-M., 2015, p. 350.

[165] كامب، غ.، 2014، ص. 206.

[166] كورتوا نقلا عن عبد الله العروي، 1996، ص. 72.

[167] Le Bohec, Y., 2005, *Histoire de l'Afrique romaine*, Paris, p. 9.

يخضعها الرومان لنفوذهم : الجبال والأراضي غير الصالحة لزراعة الحبوب وغرس الزيتون. إنطلاقا من هذه المعطيات قدم لنا عبد الله العروي رقما أخر فيما يخصص مساحة التواجد الروماني و التي قدرها ب 240.000 كيلومتر.

طرحت إشكالية حقيقة و عمق التواجد الروماني في بلاد المغرب الكبير إشكالية ثانوية تتمثل في مساهمة الحضارة الرومانية في تمدين الأهالي. لقد إنقسم المؤرخون الغربيون إلى فريقين عند تناول مسألة تمدين الأهالي. حسب عبد الله العروي سادت في الأوساط الجامعية أطروحتان تفسران أصول التمدن و الحضارة في بلاد المغرب الكبير:" *رأي أغلب المؤرخين الغربيين الذين ينقسمون إلى قسمين: قسم ينتصر للقرطاجيين وقسم للرومانيين. كل تطور حضاري يقع في شمال إفريقيا يعزى إما لهؤولاء أو لأولائك دون أن يذكر دور للمغاربة في الموضوع* "[168]. رغم تباين الرأيين إلا أن القاسم المشترك بينهما هو ازدراء البربر وإنكار أي دور لهم في مضمار الحضارة.

كانت النتيجة الرئيسية التي توصل إليها عبد الله العروي هي الإقرار باحتراز المؤرخين من" *دور روما في تطوير الحضارة المادية في شمال إفريقيا* "[169]. لعب الرومان دور في تعميم المنشأت الهندسية المائية وفي التمدين (تخطيط المدن) وفي إنتشار اللغة اللاتنية. إن إهتمام الرومان بالتمدن في بلاد المغرب الكبير أثار إعجاب المؤرخين. فغابريال كامبس لم يخف إعجابه بإنتشار العمران " *و أما خرائب المدن أكانت عواصم أم مجرد بلدات، فتقدر بالمات، و هي تعطينا صورة واضحة عما كان لروما من سطوة و سلطان* "[170]. و من جانبه منير بوشناقي يشيد بإزدهار العمران في المقدمة التي وضعها لكتاب سيرج لانسيل و يؤكد على أن رغم إنتشار المدن إلا أن المؤرخ يجد صعوبات لتحديد عدد سكانها و معرفة مؤسساتها القانونية و الإدارية[171]. وما يعاب على الحفريات التي أقيمت في مواقع المدن هو تركيز الباحثين على الأثار الرومانية و تجاهل غيرها من

---

[168] العروي، ع.، 1996، ص. 73.

[169] العروي، ع.، 1996، ص. 76.

[170] كامب، غ.، 2014، ص. 206.

[171] Lancel, S., 2015, p. 7.

الأثار. و يؤكد شارل أندري جوليان أن الأثرياء هم الذين يهيؤون المدن[172]. جملة القول أن في ظل التواجد الفرنسي إنتشرت صورة نمطية مفادها أن بلاد المغرب الكبير كانت أكثر " *تمدينا وحضارة ورخاء من إسبانيا وجنوب فرنسا* "[173]. فيما يخص التمدين هناك رأي يقول أنه وجدت 500 مدينة في بلاد المغرب الكبير ويستشهد أصحاب هذا الرأي بالحفريات والنقوش التي " *إستنبطت قائمتها من وثائق أدبية وآثار ونقوش* "[174]. ما يعيبه عبد الله العروي على نسبة التمدن التي قدرها كورتوا لبلاد المغرب الكبير، نسبة 60% ، هو أنها تحيلنا إلى " *مستعمرات فارغة* " ووجود نزعة لديه نحو تطبيق " *نسبة التمدين بمعنى الجغرافيين المعاصرين على المدينة القديمة* "[175].

لم يجد مؤرخو الفترة الاستعمارية حرجا من القول أن روما فشلت في محاولات اللتننة (latinisation) سكان البلاد الذين بقوا خارج تأثير تلك الثقافة وهذا إذا ما إستثنينا بعض الأفراد الذين يمكن إعتبارهم بالشاذين عن القاعدة. لسنا في حاجة إلى كبير عناء لشرح نظرية أولائك الذين يرجون لفكرة الإنتشار الواسع للثقافة اللاتنية في البلاد لأنهم خلصوا إلى ذلك تحت تأثير الحفريات والنقوش التي تتحدث في الغالب عن الحياة الرسمية ولا تهتم باللغات المحلية أو العامة والغوغاء (Plèbe). لقد أطلق غابريال كامبس صرخة مدوية عندما كتب أن الإفريقيون رفضوا روما و رفضوا اللتنة. ليس في وسعنا إلا أن نستخلص ما يلي: من المسلم به أن جماعة من " البربر" وهم من الأغنياء، اندمجوا مع الرومان و احتقروا الغوغاء.

من النافل القول أن التواجد الروماني كان حقيقة تاريخية لكن الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية أعطت للتواجد الروماني حجما أكبر مما هو عليه في الواقع. إنطلاقا من هذه المفارقة، طول مدة التواجد الروماني وقلة التأثير على السكان، طرح عبد الله العروي سؤالا جوهريا وعميقا راود كثيرا أقرانه من المؤرخين: لماذا أخفقت روما.

---

[172] Julien, Ch-A., 1978, p. 209.

[173] العروي، ع.، 1996، ص. 76.

[174] العروي، ع.، 1996، ص. 77.

[175] العروي، ع.، 1996، ص. 77.

د- أسباب إخفاق روما في بلاد المغرب الكبير

لقد أثارت سرعة زوال اللغة و الثقافة اللاتنية و إضمحلال الديانة المسيحية إستغراب و تعجب المؤرخين الفرنسيين. كان الموضوع يستهويهم إلى أبعد الحدود

فسرت فئة من المؤرخين الفرنسيين فشل روما الذريع في تمدين " البربر " وقدمت حجة يمكن تصنيفها في خانة الأدلة العنصرية وتقول بعدم قابليتهم للحضارة. لقد قدمت لنا تلك الإسطوغرافيا نماذج لبربر تحصلوا على حق المواطنة الرومانية لكن عددهم كان ضئيلا مقارنة بكتلة السكان الكبيرة *" حينما تحققت أسباب نجاح الإدماج، في بداية القرن الأول* (م) *قررت روما ضم إفريقيا إلى الإمبراطورية، بيد أن الضم السياسي لا يعني التمتع بالمواطنة فورا. قامت روما بجيشها وإدارتها بتحضير الرحل وتعمير البلاد وتنمية الزراعة، ثم نظمت داخل المنطقة الهادئة بلديات متفاوتة الحقوق لتعطي منحة تشجيعية لكل من تولى نمط العيش الروماني. كان المرء يرتقي سلم الحقوق كلما تعلم اللغة والعادات والذهنية المدنية والرومانية، مع مرور الزمن وتغلغل الحضارة الرومانية إختزل السلم إلى أن منح مرسوم 212 حق المواطنة للجميع "*[176]. هناك مفارقة عجيبة مفادها أن رغم هذا النجاح فإن الحضارة الرومانية إندثرت في فترة وجيزة. كيف فسرت الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية إحتضار روما في بلاد المغرب الكبير؟.

يقدم كل من شارل أندري جوليان و غابريال كامبس تفسيرات لشرح أسباب زوال الثقافة اللاتنية و الديانة المسيحية في بلاد المغرب الكبير. لقد تحدث شارل أندري جوليان عن " *إرث روما* "[177] في المنطقة. فيما يتمثل هذا الإرث يا ترى؟ لقد بقي إسم رومي (Roûmi) في الثقافة الشعبية و يستعمل للإحالة إلى الغربيين و حسب شارل أندري جوليان فإن المؤرخ العربي اليعقوبي أشار في القرن التاسع إلى وجود مجموعات من الروم في المنطقة[178]. يدافع غابريال كامبس عن رأي مفاده أن رغم ظاهرتي التعريب و الأسلمة التي رافقت دخول بلاد المغرب الكبير في العصور الوسطى إلا أن " *بقي للمسيحية وجود لديهم*

---

[176] العروي، ع.، 1996، ص. 85.

[177] Julien, Ch-A., 1978, p. 277.

[178] Julien, Ch-A., 1978, p. 277.

حتى *القرن الحادي عشر* "[179]. إذن رغم أن بلاد المغرب الكبير تبنت الثقافة العربية و الحضارة الإسلامية إلا أن اللغة اللاتنية و الديانة المسيحية لم تزولا فجأة بل بقي تأثيرها واضحا حتى العصور الوسطى.

لقد إعتمدنا في هذا الفصل على مقاربة كل من فرناند بروديل و عبد الله العروي لنقد و تفكيك الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية. و مهما يكن من أمر فإن يحسب على عبد الله العروي أنه كتب تاريخ شامل للمنطقة، إضافة إلى ذلك أن هذا التاريخ الشامل هو تأريخ للإسطوغرافيا المغاربية ونقد لها. وقد حاولنا بدورنا في الفصل الثالث أن ندل بدلونا في حقل تفكيك الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.

لم نجد من قام بهذا العمل أحسن من كل من فرناند بروديل وعبد الله العروي. قبل التطرق إلى هذا الموضوع رأينا أنه من الأجدر أن نضع نظرية إنعتاق التاريخ التي روج لها الكثيرون في إطارها التاريخي. والقاسم المشترك بين كل من فرناند بروديل وعبد الله العروي هو إيمانهما العميق بأن لكتابة التاريخ يجب على المؤرخ أن يستعين بالمناهج والعلوم الأخرى، كما أنهما يشمئزان من التاريخ-الحدثي و الذي يفضلان عليه التاريخ الإقتصادي وتاريخ الأفكار والذهنيات.

[179179] كامب، غ.، 2014، ص, 216.

الخاتمة

يظهر جليا تأثير الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية على النخب الثقافية الجزائرية في ميداني التعليم والنشر. وفي هذا الصدد ألم يستمع الألاف من التلاميذ الجزائريين بالمدارس الفرنسية بالجزائر إلى المدرس الذي كان يردد على مسامعهم هذه الجملة " *أسلافنا الغاليين* " ؟ لم يتوقف تأثير ذلك الإنتاج المعرفي عند هذا الحد بل تعداه إلى أن الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية كانت منهلا لا ينظب لم يتردد الباحثين من أن ينهلوا منه. مهما يكن من أمر فإن بعد أن أنهينا تحرير المذكرة لنيل درجة الماجستير كان يجب أن نستخلص النتائج التي توصلنا إليها.

يعد الحديث عن موضوع الإسطوغرافيا حديثا متشعبا وطويلا، ولم يتنكر في هذا الصدد أي من المؤرخين المحترفين عن إعلان إنتمائه إلى تلك الفئة من المثقفين التي لم يتوان المؤرخ الفرنسي ذو التوجه الحولياتي مارك بلوخ بنعتها ب "*قبيلة المؤرخين* ".

لقد حدث تحول كبير في الممارسة الإسطوغرافية حين أصبحت الكتابة التاريخية مهنة كغيرها من المهن، وقد حدث ذلك بفرنسا في القرن التاسع عشر وهي بلاد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن وبلاد ثورة عظيمة ألا وهي ثورة 1789. إرتأيت الإحالة إلى هذه الواقعة التاريخية لكي أسلط الضوء على التحول الكبير للدراسات التاريخية منذ القرن الخامس قبل الميلاد إلى الفترة المعاصرة. بيد أن هذا لا يمنعنا من التسليم بأن التاريخ لم يكن مادة مستقلة تدرس في المدارس قبل القرن التاسع عشر بل هو دعامة فقط لدروس البلاغة والأخلاق واللاهوت ولا أكثر.

إذا كان الإهتمام بالإسطوغرافيا في المعاهد والجامعات الغربية عموما وفي الثقافة الفرنسية خصوصا أمرا بديهيا إلى درجة أن خصصت وحدات بيداغوجية ودروس لها فإن هذا لا يمنعنا من أن نشير إلى أن هذا التقليد حديث النشأة. لقد أسس كل من شارل فيكتور لانغلوا وشارل سنيوبوس هذا التقليد بجامعة السربون بفرنسا حين تكفلا بإلقاء دروس في موضوع الإسطوغرافيا خلال العام الدراسي 1896-1897 والتي نشروها فيما بعد في كتاب تحت عنوان " *المدخل إلى الدراسات التاريخية* ". رغم أن هذه الدراسة تعتبر أول

كتاب في المنهجية فإن هذا لم يمنع المؤرخ الفرنسي شارل أوليفيي كاربونيل من التحسر على قلة إهتمام المؤرخين الفرنسيين بالبحث في موضوع الإسطوغرافيا.

هناك شبه إجماع من المتخصصين في الإسطوغرافيا بأنها تدرس الخطاب ونتائج بحث المؤرخين وطرق البحث ومناهجه والإبيستيمولوجيا والمدارس التاريخية.

دفع الغزو الفرنسي للجزائر بالدراسات الإسطوغرافية خطوات إلى الأمام خاصة وأن الحفريات أظهرت أن المنطقة تحتوي على عدد هائل من النقوش اللاتنية مما جعل المنافسة تشتد بين الدول الأوربية لإنجاز مدونة للنقوش اللاتنية. ورغم أن للفرنسيين الأفضلية لإنجاز هذه المهمة إلا أن شرف نشر مدونة للنقوش اللاتنية عاد إلى المؤرخ الألماني تيودور مومسن.

كان يجب إنتظار قرن من الزمن لكي يقوم كل من أوجين ألبيرتيني و ستيفان قزال بتقديم حصيلة لقرن من الإسطوغرافيا. إذا كانت تلك الحصيلة تفيدنا في التعرف على الأعمال الأولى حول العهد الروماني ببلاد المغرب الكبير ونتائجها إلا أنها تخول لنا أن نستنتج أن للتاريخ وظيفة تتمثل في إضفاء الشرعية للنظام السياسي القائم.

لم يقتصر إسهام المؤرخين في الممارسة الإسطوغرافية على الفرنسيين فقط بل تعداه إلى الجنسيات الأوربية الأخرى مثل الألمان، تيودور مومسن، والدنمارك، مولر.

تنتمي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية إلى المدرسة الوضعية بفرنسا التي تهتم بالتاريخ السياسي والعسكري و الديبلوماسي مما جعل خصومها ينتقدونها بنعتها بالتاريخ الحدثي. ما يعاب على هذه المدرسة هو إهمالها لمواضيع الإقتصاد والحياة الإجتماعية وتاريخ الأفكار والذهنيات في دراسة التاريخ.

علينا أن نشير إلى أن هناك فرق بين التاريخ والذاكرة. بما أن سكان بلاد المغرب الكبير القدامى " البربر " يدرجون في خانة الشعوب ذوي الثقافة الشفوية إلا أنهم للأسف يمكن إعتبارهم من الشعوب التي لا تمتلك إسطوغرافيا. وهذا يعني أن مثل تلك الشعوب لكي تحتفظ بوقائع الماضي عليها أن توكل هذه المهمة إلى الذاكرة. ما يعاب على الذاكرة

هو نسيان وضياع معظم الوقائع التاريخية لذلك دافعت المدرسة الوضعية عن أطروحة مفادها: لا تاريخ بدون ذاكرة. لقد حافظت الشعوب على أحداث الماضي بتدوينها على ورق البردي و جلود الحيوانات والورق.

ظهرت إشكالية تحقيب العصور القديمة مع عصر النهضة في أوربا أين ميز العلماء الإنسانيون بين عصرهم، العصر الحديث، والعصور القديمة. إن إزدرائهم لإسطوغرافيا العصور الوسطى وإحتقارهم لمفكري ومؤرخي ذلك العصر لا يضاهيه إلا إعجابهم بأسلوب وبلاغة نظرائهم في العصور القديمة.

تناولنا الحديث عن التحقيب بإسهاب لأنه يطرح إشكال كبير على إسطوغرافيا بلاد المغرب الكبير. أولا، لأن الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية أخذت الفتح الإسلامي كمعيار للتحقيب مما يعني أن بداية العصور الوسطى في المنطقة تأخرت بأكثر من قرن ونصف عن بدايته في الغرب. ثانيا، إعتماد الإسطوغرافيا الكولونيالية الإستعمارية على معيارين للتحقيب. معيار إثني أو عرقي: فينيقي و روماني ، ومعيار ديني: مسيحي وإسلامي.

رغم أن حقبة العصور القديمة أنجبت مؤرخين موهوبين على غرار سالوست وقيصر وتيتوس ليفيوس و بولبيوس إلا أن الإسطوغرافية الرومانية عرفت إنحطاطا كبيرا إذ تأثرت بدروس البلاغة والسياسة والأخلاق.

ظهر إتجاه في الإسطوغرافية في أواخر القرن العشرين يدعو إلى ضرورة دراسة العهد الروماني في بلاد المغرب الكبير من خلال المصادر الإسلامية التي تعود إلى العصور الوسطى. يمثل أصحاب هذه الدعوة ثلة من المؤرخين: بول لويس كامبوزا و أحمد سيراج وبختى مقرنة عابد. وحسب وجهة نظرهم فيمكن أن نعتمد على تلك المصادر في ميدان الحفريات.

أعطى تأسيس لجنة الإستكشاف العلمي للجزائر عام 1837 إشارة الإنطلاق للممارسة الإسطوغرافية بالجزائر. وقد كان لتوطين معمرين فرنسيين بالمستعمرة دور في

دفع الدراسات التاريخية خطوة إلى الأمام لأن ذلك العنصر الأوربي كان يبحث في التاريخ عن الجذور اللاتنية والمسيحية للجزائر.

لم تحظ حقبة العصور القديمة بنفس الإهتمام عند مؤرخي الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية الذين وجهوا إهتمامهم إلى العهد الروماني: أعمال ألبيرتيني وكانيا. كان إهتمام الفرنسيين بالحفريات واضحا إذ يعود الفضل إلى ليون رونيي في نشر أول مدونة فرنسية للنقوش اللاتنية.

تزامنت نشأة الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية مع العصر الذهبي للإستشراق. وعلينا أن نميز بين فترتين في الممارسة الإسطوغرافية بالجزائر: قبل وبعد تأسيس جامعة الجزائر عام 1880. لقد تكفلت الجمعيات العالمة بتأطير الممارسة الإسطوغرافية ومن أشهر تلك الجمعيات نذكر: الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) الجمعية العالمة لقسنطينة (1853) وأكاديمية هيبون. نذرت تلك الجمعيات جهودها لتأطير الممارسة الإسطوغرافية ولذلك أسست مجلات متخصصة مثل المجلة الإفريقية التي أخذت الدراسات التاريخية حصة الأسد من المقالات المنشورة فيها.

درسنا عينة تتكون من أربعة مؤرخين. ما يميز هذه العينة هو أن كل من مرسيي وغوتيي ليسا مؤرخين فالأول يعتبر مؤرخ هاوي والثاني جغرافي التكوين في حين أن كل من شارل أندري جوليان وبول ألبير فيفري كانا مؤرخين محترفين أحدثا قطيعة مع الكتابة التاريخية السابقة حين تقصوا وجهة نظر " البربر " في كتاباتهم.

كانت نشأة إسطوغرافيا وطنية جزائرية هو رد الفعل الطبيعي لهيمنة الإسطوغرافيا الوطنية الجزائرية. إذا ما إستثنينا إسهام أعمر بوليفة فإن معظم من حمل لوائها ينتمي إلى الحركة الإصلاحية: مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني.

كانت الجزائر مصدر إلهام لمؤرخين ذائعا الصيت: فرناند بروديل وعبد الله العروي. أحدث فرناند بروديل ثورة في تصوره للزمن فهناك زمن جغرافي وزمن إجتماعي و هناك زمن طويل خاص بالإقتصاد والذهنيات. وطرح إستقلال بلدان المغرب

الكبير إشكالية للعلوم الإنسانية كيف ندرس تاريخ المجتمعات ذات الثقافة الشفوية مثل " البربر " ؟ للإجابة على هذا السؤال إستنجد المؤرخون بالتاريخ الجديد الذي دعت إليه مدرسة الحوليات. كان للإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية تاريخا خاصا بها، فهي نتاج ظرف وإطار زمني محدد وهو الجزائر في ظل الهيمنة الإستعمارية الفرنسية. إنه من الطبيعي أن تطرح ظاهرة إستقلال بلدان المغرب الكبير إشكالية تفكيك تلك الإسطوغرافيا لتحل محلها مناهج ومقاربات جديدة، ومن البديهي أن نتناول المدارس والمقاربات التاريخية التي كان شغلها الشاغل هو تفكيك الإسطوغرافيا الكلاسيكية. في هذا الصدد كانت لمدرسة الحوليات وللمدرسة الماركسية الكلمة العليا. حيث طفق صدى تلك الصرخة التي أطلقها رواد مدرسة الحوليات حول تبني " *تاريخ* جديد " مدويا، ولقيت إستحسانا لدى مثقفين مغاربة على غرار محمد شريف ساحلي وعبد الله العروي.

شاءت الأقدار أن يكون محمد شريف ساحلي وهو مناضل قديم في حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية أول من ينقد ويعطي قراءة جديدة لتاريخ المغرب. لقد نشر سنة 1965 كتابا ذائع الصيت تعدت شهرته الأفاق " *إنعتاق التاريخ* ". لقد فك محمد شريف ساحلي طلاسم تلك الإسطوغرافيا حين سلط الأضواء على المقولات غير العلمية التي روجت لها تلك الإسطوغرافيا: الحتمية الجغرافية والحتمية العرقية.

أثر كتاب محمد شريف ساحلي في المفكر المغربي الكبير عبد الله العروي. لا سبيل لإنكار أن عبد الله العروي كان من بين الثلاثة مفكرين الذين حققوا ما يطمحون إليه وهو كتابة تاريخ شامل لبلاد المغرب ونخص بالذكر هنا ككل من إرنست مرسيي وشارل أندري جوليان و العروي. ليس من الغريب أن يخوض عبد الله العروي في مواضيع التاريخ والإيديولوجيا والإسطوغرافيا لأن تكوينه ومساره العلمي يسمح له بذلك: لقد نقد تطبيق التحقيب الغربي على بلاد المغرب الكبير دون العناية بإختلاف الثقافات والخصوصيات المحلية. أضحى نقد المسلمات الإيديولوجية هو الشغل الشاغل لهذا المفكر، وعليه قد نقد بشكل لاذع مقولة "من إستعمار إلى آخر" ومقولة شمال إفريقيا اللاتنية.

خلاصة القول أنه لكتابة التاريخ لها تاريخ لذلك رأينا أن نتناول الإسطوغرافيا الكولونيالية بالدراسة. إن إعتمادنا على أعمال محمد شريف ساحلي و عبد الله العروي مكننا من العثور على دراسات تتناول تلك الإسطوغرافيا بالنقد.

قائمة البيبلوغرافيا

أ- البيبلوغرافيا العربية

- الدوري، ع.ع.، 2000، نشأة علم التاريخ عند العرب، الإمارات العربية المتحدة.
- العروي، ع. ،1966، مجمل تاريخ المغرب، الطبعة الخامسة، الدار البيضاء.
- العروي، ع.، 1999، مفهوم الإيديولوجيا، الطبعة السادسة، الرباط.
- العروي، ع. ،2005، *مفهوم التاريخ*، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء - بيروت.
- الميلي، م. م.، دون تاريخ، *تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الأول*، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون تاريخ.
- اكصيل،ص.،2007، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة سعود، م. ت.
- بن غبريط-رمعون، ن.، و حداب، م.، وهران، 2008، الجزائر بعد 50 سنة. حوصلة المعارف في العلوم الإجتماعية و الإنسانية 1954-2004، وهران.
- بروديل، ف، تاريخ و قواعد الحضارات، ترجمة و تعليق سفير د. حسين، ش.، 1999،القاهرة.
- دوس، ف.، التاريخ المفتت. *من الحوليات إلى التاريخ ألجديد*، ترجمة المنصوري، م. ط.، 2009، بيروت.
- دليل الرسائل الجامعية من 1963 إلى 2013، 2013، جامعة الجزائر، الجزائر.
- غانم، م.، و رمعون، ح.، 1995، مركز البحث في الأنتروبولوجيا الإجتماعية و الثقافية، *كيف يدرس التاريخ في الجزائر*، وهران.
- فاتان، ج. ك.، لوكا، ف.، جزائر الأنثروبولوجيين. نقد السوسيولوجيا الكولونيالية. ترجمة محمد يحياتن، بشير بولفراق و وردة لبنان،2002، الجزائر.
- كامب، غ.، البربر. ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق،2014، الدار البيضاء.
- كامبس، غ.، في أصول البربر. ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ترجمة عقون، ع.،2012، الجزائر.

- لوكيلي، ي.،1013، سوسيولوجيا الإسلام المغربي. نظرات في حصيلة الأرشيف الفرنسي 1900-1930، الجزء الأول، الدار البيضاء.
- محمد، ف.، 2005،" تدريس تاريخ العصر الوسيط ومسألة التحقيب، التحقيب في الكتابة التاريخية المغاربية "، *أعمال ندوتي مراكش وتونس 2005*، تونس و الرباط.
- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان. أسباب النهوض و الإنحطاط،، ترجمة العروي، ع.، 2011، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.

ب- المراجع باللغة الأجنبية

- Abdessamad, H., 2005, « *La périodisation dans l'écriture de l'Histoire du Maghreb. Le bricolage et la patience », La périodisation dans l'écriture de l'histoire du Maghreb. Actes des tables rondes de mai et septembre 2005 Marrakech-Tunis*, Textes réunis et édités par Fatma Ben Slimane et Hicham Abdessamad, Rabat.

- Ageron, Ch-R., 1992, « Charles André Julien (1891-1991) », *Revue française d'histoire d'Outre-mer*, tome 79, Paris.

- Ainad-Tabet, R., 1995, « Manuel d'Histoire et discours idéologique véhiculé », *Comment on enseigne l'histoire en Algérie, Actes du colloque « l'enseignement de l'Histoire* , *CRASC*, Oran.

- Albertini, E., Marçais, G., Yver, G., 1937, *L'Afrique du Nord française dans l'histoire*, Alger.

- Albertini, E., 1955, *L'Afrique Romaine*, Alger.

- Almoubaker, M., 2005, « La fin de l'antiquité au Maghreb, ou le Maghreb à la croisé de deux chemins », *La périodisation dans*

l'écriture de l'histoire du Maghreb. Actes des tables rondes de mai et septembre 2005 Marrakech-Tunis, Textes réunis et édités par Fatma Ben Slimane et Hicham Abdessamad, Rabat.

- Aymard, M.,1999*, Les écrits de Fernand Braudel, Autour de la Méditerranée*, Paris.

- Benkada, S., 2006, « Archéologie et entreprise coloniale : l'armée et les premiers travaux de topographie historique en Algérie », *CRASC* et *Diraset*, Oran.

- Benseddik, N., 2008, « *L'archéololologie en Algérie, hier et aujourd'hui* », *L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en Sciences Sociales et Humaines 1954-2004*, Oran.

- Bernard, G., 2004, *Les apports de l'archéologie à l'enseignement de l'histoire,* Lyon.

- Blais, H., 2012, « La longue histoire de la délimitation des frontières de l'Algérie *»*, *Histoire de l'Algérie à la période coloniale*, Paris.

- Bloch, M.,1967, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien, 6ème édition, Paris.

- Boissière, G., 1883, *L'Algérie romaine*, I, 2ème, Paris.

- Boissière, G., 1878, *Esquisse d'une histoire de la conquête et de l'administration romaine dans le Nord de l'Afrique et particulièrement dans la province de la Numidie*, Paris, 1895, *L'Afrique romaine*, Paris.

- Bouchenaki, M.,2013, « Kadria Fatima Kadra, Première Archéologue Algérienne », *L'Affirmation de l'identité dans l'Algérie antique et médiévale. Combats et résistances*, Alger.

- Boulifa, S. A., 1924, *Le Djurdjura à travers l'histoire. (Depuis l'Antiquité jusqu'en 1830). Organisation et indépendance des zouaouas.* (*Grande Kabylie*), Alger.
- Bourdé, G., Martin, H., 1983, *Les écoles historiques*, Paris.
- Braudel, F., 1996, *Autour de la Méditerranée*, Paris.
- Braudel, F.,1969, *Écrits sur l'histoire*, Paris.
- Braudel, F., 1966, t 1, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Seconde édition revue et augmentée, Paris.
- Braudel, F., 1928, « Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577 », *Revue Africaine*, Paris.
- Brunhs, A., 2001, *Fernand Braudel*, Paris.
- Carcopino, J., 1943, *Le Maroc antique*, 9 édition, Paris.
- Cagnat, R., 1912, *L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs*, Paris.
- Cambuzat, P-L., 1986, *L'évolution des cités du Tell en Ifriqîya du VII au XI siècle*, t 1-2, Alger.
- Carbonell, Ch-O.,1994, *Les sciences historiques, De l'antiquité à nos jours*.
- Carbonell, Ch-O., 1985, *L'Historiographie, Que sais-je ?*, Paris.
- Carbonell, Ch-O, 1982, « Pour une histoire de l'historiographie », *His. Historiographie* 1, Milan.
- Carcopino, J.,1943, *Le Maroc antique*, 9ème édition, Paris.
- Carlier, O., 2003, « *Braudel avant Braudel ? Les années algériennes* (*1923-1932*) », *Insaniyat*, n° 19-20, Oran.

- Carlier, O., 2008 ,« Julien André dit Charles-André », Dictionnaires des orientalistes de langue française, Paris.

- Cheddadi, A.,2004, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire, Émergence et premiers développements de l'historiographie musulmane jusqu'au II/VIII siècle*, Aix-en-Provence.

- Chegraoui, Kh., 2003, « Idéologie, Religion et ethnocentrisme au Maghreb. Des acteurs politico-intellectuels au Maroc contemporain », *Idéologie, nationalisme et idéal pan-africain, Conférence commémorative du 30 anniversaire du CODESRIA*, Dakar.

- Cizek, E., 1983, « *Quelques remarques sur l'historiographie romaine du Bas-Empire* », *Actes du VII congrès de la F.I.E. C, Vol. II*, Budapest.

- Coornaert, E., 1977, *Destins de Clio en France depuis 1800, Essai*, Paris.

- Couteau-Bégaire, H.,1983, *Le phénomène « nouvelle histoire », Stratégie et idéologie des nouveaux historiens*, Paris.

- Croce, B., 1968, *Théorie et Histoire de l'Historiographie*, Genève.

- Deliège, R., 2006, *Une histoire de l'anthropologie, école, auteurs, théories*, Paris.

- Delorme, 1905, « Paul, Congrès des Sociétés Savantes », *R. Afr*.

- De Romilly, J., 1964, *Hérodote-Thucydide,Œuvres complètes*, Paris.

- Desanges, J., 1999, *Toujours Afrique apporte fiat nouveau, Scripta Minora*,Paris.

- Dondin-Payre, M., 2011, *Empire Antique, Empire contemporaine : l'Afrique du Nord In Figures d'empire, fragments de mémoire. Pouvoirs et identités dans le monde romain impérial (2e s. av. n.è.-VI s. de n. è.)*, Benoist, St., (éds), Presses universitaire du Septentrion, 2011.

- Dondin, M., 1994, *La Commission d'Algérie : héritière méconnue de la commission d'Egypte*, Paris.

- Dondin-Payre, M., 2008, « Historiographie de l'Afrique du Nord antique », *Annuaire de l'école pratique des hautes études*, Paris.

- Driss, M., 1997, « Laroui et l'obsession de la modernité » , *Horizon maghrébin, Parcours Maghrébins Contemporains*, Tunis.

- Edouard, W. S., 2014, *L'Orientalisme, L'Orient créé par l'Occident*, Paris.

- Février, P-A., 1999, *Approche du Maghreb Romain, Pouvoirs, différences et conflits*, Aix-en-Provence.

- F. L . N., 1964, *La charte d'Alger*, éditée par la commission d'orientation politique du F.L.N, ensemble des textes adoptés par le premier congrès du parti du front de libération national (du 16 au 21 avril 1964), première partie, pour une révoltion socialiste, chapitre 1, Alger.

- Gallois, L., 1918, « Paul Vidal de la Bache », Annales de Géographies, Paris.

- Gast, M., Bernus, Ed., Desanges, J., Chaker, S., 2015, " Gabriel Camps (*1927-2002*)", *Ency. ber*, Aix en provence.

- Gautier (1864-1940), E-F., 2011, *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb* , Alger.

- Gran-Aymerich, E., 2008, « Renier Charles-Alphonse Léon », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.

- Gran-Aymerich, E, 2011, « Épigraphie française et allemande au Maghreb. Entre collaboration et rivalité (*1830-1914*) », *Bullettino Dell'istituto Archeologico Germanico Sezione Romana*, Volume 117, Schnell-Steiner.

- Gsell, S., 1911, *Atlas archéologique de l'Algérie*, Alger et Paris.

- Gsell, S., 1903, *L'Algérie dans l'Antiquité*, 2ème édition, Alger.

- Gsell, S., 1883, *Essai sur le règne de l'empereur Domitien*, Thèse de doctorat présentée à la Faculté des Lettres de Paris, Paris.

- Gsell, S., 1896, *Guide archéologique des environs d'Alger*, Alger.

- Gsell, S., 2013, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, 8 tomes, Alger.

- Gsell, S. , 1931, *Histoire et historiens de l'Algérie,* Paris.

- Gsell, S., 1919, *Inscriptions latines de l'Algérie*.

- Gsell, S., 1901, *Les monuments antiques de l'Algérie*, 2 vol, Paris.

- Gsell, S., 1893, *Recherches archéologiques en Algérie*, Paris.

- Guenée, B., 1983, *Les premiers pas de l'historiographie en Occident au XII siècle*, Paris.

- Gutron, Gl., 2008, « Albertini Eugène », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.

- Gutron, Cl.,2014, « Archéologie maghrébine et relecture de l'histoire, Autour de la patrimonialisation de Paul-Albert Février », Année du Maghreb, Paris.
- Gutron, Gl., 2008, « Cagnat René », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.

- Gutron, 2008, « P-Al., Février Paul-Albert », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.

- Gutron, G., 2008, « Gsell Stephane », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.
- Hannouz, A., 2014, « Mémoire et patrimonialisation d'un passé antéislamique : Mubârek al-Mili et l'ethnogenèse du peuple algérien », *l'Année du Maghreb*, Paris.
- Harbi, M., 2009, 1954, *La guerre commence en Algérie*, Alger.
- Henry, J-R., 2012, « Le centenaire de l'Algérie, triomphe éphémère de la pensée algérianiste », *Histoire de l'Algérie à la période coloniale*, Paris.
- Heurgon, J., 1956, « L'œuvre archéologique française en Algérie », *Bulletin de l'Association Guillaume Budé : Lettres d'humanités n° 15*, Paris.
- Janjar, M-S., 1997, « De la nation à la société : présentation de la pensée de Mostefa Lacheraf », *Horizon maghrébin, penseurs Maghrébins contemporains*, Tunis.
- Julien, Ch.A., 1931, *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris.

- Kaddache, M.,1993, *Histoire du nationalisme Algérien*, Alger.

- Kadri, A., 2012, « Algérie années 1960. Génération de la coopération à l'Université, Un engagement diversifié et multiforme, une sur-idéologisation de l'Université », *Le temps de la coopération. Sciences sociales et décolonisation au Maghreb*, Paris.

- Lacoste, Y., 1978, *Ibn Khaldoun, Naissance de l'histoire,* Paris.

- Lancel, S., 2003, *L'Algérie antique, De Massinissa à Saint Augustin*,Paris.

- Lancel, S., 1990, « Évêchés et cités dans les provinces africaines (IIe-V) siècles», L'Afrique dans l'Occident romain (1er siècle av-J.C – VI siècle ap. J. C). Actes du colloque organisé par l'Ecole française de Rome sous le patronage de l'Institut national d'archéologie et d'art de Tunis, Paris.

- Langlois, Ch-V., Seignobos, Ch., 1992, *Introduction aux études historiques*, Paris.

- Laporte, J-P., 2012*, «* Les sociétés savantes historiques et Géographiques d'Afrique du Nord avant les indépendances », *Bulletin de liaison des sociétés savantes août 2012 n° 15, Les sociétés savantes et l'outre-mer. Leur rôle scientifique, culturel et social, aujourd'hui et demain*, Paris.

- Laporte, J-P., 2004, « Kabylie antique », Ency. Ber., XXVI, Paris.

- Laporte, J-P., 2013, « Notables de Rusuccuru (Dellys) et de ses pagi : Iomnium (Tigzirt) et Rusippisir (Taksebt) » *bulletin archéologique*, Paris.

- Larnaude, M., 1940, « E.-Gautier (1864-1940) », *Bulletin de l'Association de géographes français* n°132-133, Paris.
- Laroui A., 1970, *L'histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, Paris.
- Laroui, A., 1999, *Islam et Histoire, Essai d'épistémologie*, Paris.
- Lassère, J-M., 2015, *Africa, quasi Roma* (256 av. J.-C. – 711 ap. J.-C.), Paris.
- Le Bohec, Y., 2005, *Histoire de l'Afrique romaine*, Paris.
- Lassère, J.-M., Le Bohec, Y., 1991, *Bibliographie analytique de l'Afrique antique XX* (1986),Paris.
- Lefebvre, 1971, *La naissance de l'historiographie moderne*, Paris.
- Le Roi Laduire, E., 2001, *Fernand Braudel, Les marées de l'histoire,*Paris.
- Marrou, H. I., 1957, « *La décadence de l'antiquité classique* », *De Classicisme et Déclin Culturel dans l'histoire de l'Islam*, Bordeaux.
- Mercier, E., 1888-1891, *Histoire de l'Afrique Septentrionale* (*Berbérie*) *depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, 3* vol*,* Paris.
- Mertens, C., 1986, « Les premiers martyrs et leurs rêves. Cohésion de l'histoire et des rêves dans quelques passions latines de l'Afrique du Nord », *Revue d'histoire ecclésiatique*, vol. 81, n 1-2, Louvain.
- Merdrignac, B., Chédeville, A., 1998, *Les sciences annexes en histoire du Moyen Age*, Rennes.
- Mercier, E., 1888, *Histoire de l'Afrique Septentrionale* (*Berbérie*) *depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française*, Paris.

- Merouche, L., 1999, « L'ancien et le nouveau dans l'ouvrage de Mbarek al-Mili : Histoire de l'Algérie dans les temps anciens et modernes », *Parcours d'intellectuels maghrébins. Scolarité, formation, socialisation et positionnement*, Paris.

- Messaoudi, A., 2008, « Berbrugger Adrian », *Dictionnaire des orientalistes de langue française,* Paris.

- Messaoudi, A., 2008, « Cherbonneau Jacques Auguste », *Dictionnaire des orientalistes de langue française,* Paris.

- Messaoudi, A., 2008, « Revue africaine (1856-1962) » *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, Paris.

- Mokraenta-Abed, B.,2013, *L'image de l'Algérie antique au travers des sources arabes du moyen âge*,t 4, Alger.

- Mommsen, Th., 1863, *Histoire romaine*, 2 tomes, Paris.

- Monteil, V., 1997, *Clefs pour la pensée arabe*, Paris.

- Montesquieu, 1968, *Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et leur décadence*, Paris.

- Noiriel, G., 1998,*Qu'est-ce que l'histoire contemporaine ?,* Paris.

- Nordman, D., 2008, « Exploration scientifique de l'Algérie », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.

- Offenstadt, N., 2011 ? *L'Historiographie, Que sais-je ?*, Paris.

- Picard, G.-Ch., 1990, *La civilisation de l'Afrique romaine*, Paris.

- Pirenne, H., 1970, *Mahomet et Charlemagne*, Paris.

- Pouillon, F., 2011, « Avant-propos », *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris.
- Prost, A., 1996, *Douze leçons sur l'histoire*, Paris.
- Rachik, H., 2012, *Le proche et le lointain. Un siècle d'anthropologie au Maroc*, Marseille.
- Remaoun, H., 2004, « Les historiens algériens issus du Mouvement national», *Insaniyat* 25-26, Oran.
- Remaoun, H., 2008, « L'Etat nationale et sa mémoire : le paradigme histoire », *L'Algérie 50 ans après. Etat des Savoirs en Sciences Sociales et Humaines 1954-2004*, Oran.
- Remaoun, H., 2003, « L'intervention institutionnelle et son impact sur la pratique historiographique en Algérie : la politique d'Ecriture et de Réécriture de l'histoire, tendances et contre-tendances *», Historiographie maghrébine : champs et pratiques* , Insaniyat 19-20, Oran.
- Remaoun, H., 1995, « Sur l'enseignement de l'Histoire en Algérie ou la crise identitaire à travers – et par- *l'école* », *Comment on enseigne l'histoire en Algérie, Actes du colloque « l'enseignement de l'Histoire* , *CRASC*, Oran.
- Rhani, Z., 2012, « Ne touche pas à mon Orient ! Auto-exotisme et anti-anthropologie chez quelques intellectuels marocains contemporains », *Après l'Orientalisme. L'orient créé par l'orient*, Casablanca.
- Sahli, M-Ch, 1986, *Décoloniser l'Histoire*, Alger.

- Saint Augustin, 1994, *La cité de Dieu*, Livre I à X, Paris.

- Seddiki, L., 2008, *La Revue Africaine de 1856 à 1961 : études bibliométrique*, Constantine..

- Selles-Lefranc, M., 2006, « Le Djurdjura à travers l'histoire (1925) : histoire modèle d'une « fraction du monde berbère » ou exemple d'une construction autochtone de savoir à l'Ecole des Lettres d'Alger, Outre-mer, tome 3, n° 352-353, savoirs autonomes XIX-XX siècles, Paris.

- Siegfried, A., *Tableau politique de la France de l'Ouest sous la Troisième République*, Bruxelles.

- Simon, P., 1969, *Histoire et Critique*, Bruxelles.

- Siraj, A., 1995, *L'image de la Tingitane. L'historiographie arabe médiévale et l'antiquité nord-africaine*, Rome.

- Stora, B., 1985, *Dictionnaire biographique de militants nationalistes algériens. E.N.A, P.P.A-M.T.L.D,* Paris.

- Stora, B., 1996, *Histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954*, Alger.

- Tahar, M., 2007, « *Les visées d'Athènes sur Carthage : Conquête, savoir et usages* », Écritures de l'histoire au Maghreb, Rabat.

- Vatin, J-Cl., 2010, *L'Algérie. Politique, histoire et société*, Alger.

- Vayssettes,1968, « *Société historique algérienne. Séance annuelle* (*8 juin 1860*) », *Revue Africaine*, Vo.3, 1858-1859.

- Vermeren, P., L'historiographie des deux côtés de la Méditerranée, Histoire et politique, Paris, 2011.

- Vermeren, P., 2012, *Misère de l'historiographie du « Maghreb » post-colonial 1962-2012*, Paris.

- Zeiller, J., 1945, « Un historien de l'Afrique du Nord, Ernest Mercier », *Journal des savants*, Paris.

- Zimmerman, M., 1942, « Émile-Félix Gautier, 1864-1940 » *Les études rhondanienn*es, Vol. 17, n° 3-4, Paris.

فهرس محتوى المذكرة

الفصل الأول : جذور إسطوغرافيا العهد الروماني بالجزائر

I-مفهوم الإسطوغرافيا.....2

II-ملامح إسطوغرافيا العهد الروماني في الجزائر.....7

1- أوجين ألبيرتيني و إفريقيا الرومانية.....7

2- أعمال ستيفان قزال و أرائه حول الإسطوغرافيا.....12

1- ستيفان قزال و العلوم المساعدة للتاريخ: الحفريات و النقوش.....12

2- ستيفان قزال و إسطوغرافيا الجزائر في العصور القديمة 15

III - ملامح الإسطوغرافيا الفرنسية في القرن التاسع عشر 21

أ- السجال بين التاريخ وعلم الاجتماع.....25

ب-التاريخ الحدثي: مفهوم وتأويلات.....28

IV- العصور القديمة وإشكالية التحقيب في الإسطوغرافيا.....31

1- إشكالية تحقيب العصور القديمة و الوسطى في الإسطوغرافيا المغاربية 34

2- لمحة عن إسطوغرافيا العصور القديمة.....37

أ- التاريخ بين الذاكرة و الكتابة.....37

ب- بلاد المغرب في إسطوغرافيا العصور القديمة.....41

V- تصور الإسطوغرافيا الإسلامية للماضي الروماني في بلاد المغرب الكبير.....48

الفصل الثاني : الممارسة الإسطوغرافية في الجزائر خلال العهد الفرنسي (1837-1930)

I- الممارسة الإسطوغرافيا الفرنسية بالجزائر: مساهمة الأفراد و المؤسسات.....55

II- الإسطوغرافيا الكولونيالية والإستشراق الفرنسي 59

III- الممارسة الإسطوغرافية في الجزائر قبل تأسيس جامعة الجزائر.....67

1- الجمعيات العالمة بالجزائر وظهور أول أشكال الإسطوغرافيا 67

IV - نماذج للممارسة الإسطوغرافية في الجزائر 74

1- منهج إرنست مرسيي لكتابة التاريخ المغاربي 75

2- إميل فيليكس غوتيي: من الجغرافيا إلى التاريخ 80

3- شارل أندري جوليان و كتابة تاريخ شامل لبلاد المغرب الكبير.....83

4- مسار بول ألبير فيفري ونهجه.....87

V- نشأة الإسطوغرافيا الجزائرية.....90

3- مقاربة سي أعمر بوليفة للتاريخ القديم لمنظقة القبائل 91

4- مبارك الميلي و التاريخ القديم للجزائر 94

الفصل الثالث: تطبيق مقاربة التاريخ الجديد على تاريخ الجزائر القديم

I – مدرسة الحوليات و التاريخ الجديد 100

أ- الجيل الأول لمدرسة الحوليات: الأصول والمشروع.....101

ب- فرناند بروديل و مدرسة الحوليات.....105

أ- علاقة فرناند بروديل بالجزائر.....105

ب-فرناند بروديل و نظرية تعدد الأزمنة 109
ت- تطبيق مقاربة مدرسة الحوليات على تاريخ الجزائر القديم 112
II- إنعتاق التاريخ أو تفكيك الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.....117
1- دور المؤسسات الأكاديمية في تجديد الدراسات الإسطوغرافية.....121
2- محمد شريف ساحلي و نظرية إنعتاق التاريخ.....128
3- عبد الله العروي و الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.....132
أ- مشروع تفكيك الإسطوغرافيا الكلاسيكية.....134
ب- الحدود بين التاريخ و الإيديولوجيا 137
ت- كتاب مجمل *تاريخ المغرب* و نقد إسطوغرافيا العهد الروماني في الجزائر 140
ث- إشكالية تسمية البلاد.....144
ج- نقد عبد الله العروي لمقولة "*من إستعمار إلي أخر* ".....146
ح- نقد الإسطوغرافيا المسيحية.....149
خ- حقيقة التواجد الروماني في بلاد المغرب الكبير و إشكالية تمدين الأهالي.....153
د- أسباب إخفاق روما في بلاد المغرب الكبير 156